قرآن يبني الإنسانية ترقى

من سنن تداول الأيام

اقتحام العقبة

سنة التدافع والخروج من عقبة الاستضعاف
رؤية قرآنية لصناعة التوازن والسلام العالميين

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
الأستاذ في كلية الشريعة/ جامعة قطر

لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

من سنن تداول الأيام

اقتحام العقبة

ستة لتدافع والخروج من عقبة الاستضعاف

بسم الله الرحمن الرحيم

برعاية

نصائح المعرفة القرآنية
قرآن يتلى لإنسانية ترقى

من سنن تداول الأيام

اقتحام العقبة

سنة التدافع والخروج من عقبة الاستضعاف
رؤية قرآنية لصناعة التوازن وسلام العالمين

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
الاستاذ في كلية الشريعة/ جامعة قطر

لوسيل
LUSAIL
للنشر والتوزيع
PUBLISHING & DISTRIBUTION

الكتاب:

من سنن تداول الأيام

اقتحام العقبة

سنة التدافع لصناعة التوازن

والسلام العالميين والخروج من الاستضعاف

تأليف:

الأستاذ الدكتور/ عبد السلام مقبل المجيدي

جميع الحقوق محفوظة

© دار لوسيل للنشر والتوزيع

الناشر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:

2021 / 111

الرقم الدولي (ISBN):

978 / 9927 / 142 / 147

الطبعة الأولى: 2020

التحرير والتدقيق اللغوي:

دار لوسيل

الإخراج الفني والتصميم:

القسم الفني - دار لوسيل

التنفيذ الطباعي:

شركة الخليج للطباعة والنشر

الدوحة - قطر

+974 44 17 73 11 +974 44 17 73 22 +974 50 80 98 89 Doha,Qatar,64040

@ darlusail darlusail@darlusail.com www.darlusail.com

مُقَدِّمَة

الحمد لله.. العزيز التواب، الكريم الوهاب، منزل الكتاب وهازم الأحزاب: جعل القرآن العظيم تجارةً لن تبور، واستثمارًا لا تضيع أرباحه، وضياءً لا يُطفأ مصباحه، وسراجًا لا يخبو توقُّده، ومنهجًا لا يضلُّ سالكه، ومعينًا لا يبلىٰ تَجَدُّدُه، وفرقانًا لا يخمد برهانه، وتبيانًا لا تُهدم أركانه.

والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد السيد المجتبىٰ المهاب، وعلىٰ الآل الكرام وسائر الأصحاب، ومن اقتفىٰ آثارهم من ذوي الأحلام، والألباب، ومن ثبت علىٰ سبيلهم إلىٰ يوم الحشر والمآب.

اللَّهُمَّ ربَّنا.. إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ:

اجعلنا ممن يُمَسِّكون بالكتاب، ويقيمون الصلاة، ويهدون بالحق، وبه يعدلون.. ربنا ألحقنا بالربانيين الذين يُعَلِّمون الكتاب، وهم له يدرسون..

ربَّنا... وَلا تجعلنَا من الذين فرَّقُوا دِينَهم وَكانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون.. اللهم آمين.

وبعد:

فإن (تداول الأيام) سنة حاكمة للدنيا قابضة للعالم:

لا تخطئ العينُ النظرَ عند فقه دروس التاريخ أن ترىٰ أن (سنةً) من أهم السنن الكلية التي تحكم هذا العالم الدنيوي. سنة مزلزلة للسلطات الحاكمة، والأمم والحضارات القائمة.. إنها سنة (تداول الأيام) .

وفق هذه السنة الكلية تجد الأيام قُلَّبًا؛ ولا يمكن لأحد أن يجد منها مهربًا؛ إذ تنتقل الأمم من خضرة التمكين إلىٰ حمأة الاستضعاف، وتتغير مواقع الدول والشعوب من الأودية السحيقة التي تتخطفها فيها مخالب الأقوياء إلىٰ زهرة المُبَوأ الرشيد الصادق.

هذا التداول الدهريُّ إنما تحل قوارعه المفاجئة بسبب الجهل بسننه الحاكمة لنظامه، أو عدم العمل بمقتضىٰ السنن الموصلة للتمكين..

ألا تجد أن هذه المقدمة تثير شوقك للبحث عن حقيقة السنن الحافظة للنمو والازدهار من التدهور والاندحار ؟

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ
هيَ الأمورُ كما شاهدتُها دولٌ مَنْ سرَّهُ زَمَنٌ ساءَتهُ أزمانُ
يمزقُ الدهرُ حتمًا كلَّ سابغةٍ إذا نَبَتْ مشرفياتٌ وخِرصانُ
وينتضي كلَّ سيفٍ للفناءِ ولو كانَ ابنُ ذي يَزَنٍ والغمدَ غمدانُ
أَينَ المُلوكُ ذَوو التيجانِ مِن يَمَنٍ وَأَينَ مِنهُم أَكالِيلٌ وَتيجَانُ
وَأَينَ ما شادَهُ شَدّادُ في إِرَمٍ وَأينَ ما ساسَه في الفُرسِ ساسانُ
وَأَينَ ما حازَهُ قارونُ من ذَهَبٍ وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ
أَتىٰ عَلىٰ الكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدّ لَهُ حَتّىٰ قَضوا فَكَأَنّ القَومَ ما كانُوا
يا غافلًا ولهُ في الدهرِ موعظةٌ إنْ كنتَ في سِنَةٍ فالدهرُ يقظانُ[1]

(١) التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٤، ص٤٨٧.

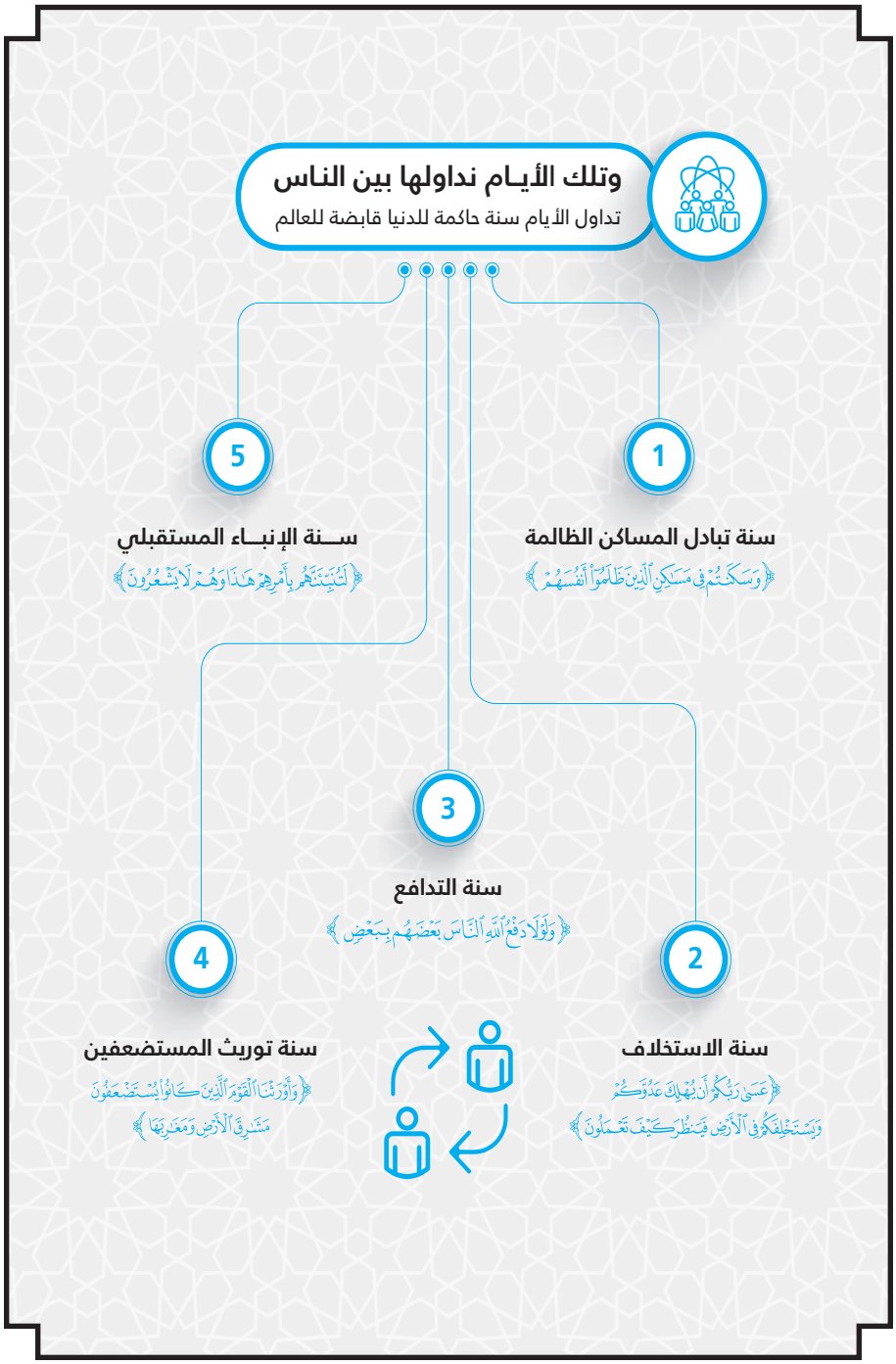
وتلك الأيـام نداولها بين النـاس
تداول الأيام سنة حاكمة للدنيا قابضة للعالم
1
سنة تبادل المساكن الظالمة
﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾
2
سنة الاستخلاف
﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾
3
سنة التدافع
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾
4
سنة توريث المستضعفين
﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾
5
سـنة الإنبـاء المستقبلي
﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

كوكب دريٌّ ينبعث من النور القرآني:

أخي أيها المتابع لأحداث الأمم: أَسْمِعْ بالحضارات والجماعات، وأَبْصِرْ عند عرض تقلبهم في البلاد علىٰ القرآن المجيد؛ حيث يطلع لك النور مشرقًا في الآيات المباركات من سورة البقرة ابتداءً بالآية (٢٤٣)، ووصولًا إلىٰ الآية (٢٥٤)..

أقرأها، وأحدث نفسي أن أنشر أنوارها لتبين للناس ما نزل إليهم في كيفية الخروج من حالة الاستضعاف.

لقد شكلت هذه الآيات المباركات خريطة متكاملة للانعتاق من التيه العاصف الذي يتلعّبُ بالشعوب المستضعفة، والتحرر من الوهن القاصف للأمم المظلومة..

وتجد في دلالاتها إشراق فجرٍ حضاري، ومعالمَ رشدٍ نهضوي تحرري فضلًا عن احتوائها علىٰ معالم عسكرية وتنظيم سياسي برؤية قرآنية صميمة.

وكم تثقَفُ في خباياها كنوزًا اجتماعيةً وقواعدَ سياسيةً يمكن أن تكون محاور ارتكاز في خطط الانبعاث الحضاري أمام الطغيان الدولي.

لقد كان القصص القرآني واضحًا في تقديمه القصص الحق؛ حتىٰ تنهل البشرية الحائرة من كل دقيقةٍ من دقائقه، ودرسٍ من دروسه.

عهد إسرائيلي مثير للتساؤلات:

ربما قلتَ: ولكن معظم هذه الآيات يحدثنا عن عهدٍ إسرائيلي في الماضي.. فهل يكتسب المرء خبرته من التجارب الإسرائيلية؟

أيها المبارك، لا تطع غفلةَ القلب إن أعرضتَ عن هذا الموضوع لمجرد الشعور بأن هذه السنن عُرِضت من خلال التجربة الإسرائيلية، فهل الإسرائيليون إلا أمة صنعت التاريخ في صورته العوجاء في أزمنة، وفي شكله البهي الوضاء في أزمنة

أخرىٰ؟ ألم يقل الله ﷻ عنهم مرسلًا موازين التقويم العادل ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وقال مفرقًا بين الفئتين الكبيرتين في مجتمعهم: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ﴿مِنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].. ذلك ميزان القسط المثيل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وهنا يبادرك السؤال: فكيف كانت تجربة القوى الإسرائيلية في صناعة التاريخ؟

وأبادرك الجواب: القوىٰ الإسرائيلية تصنع الآن تاريخًا من البغي الممنهج، والظلم المؤسس والعدوان المقنن في فلسطين، لكن الله ﷻ قال عنهم في زمنٍ آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ولكن حالهم الدقيق لا يخرج عن قول الله ﷻ: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

إن ثمة سنةً كليةً تحكم البشر تجد لُبَّها في قول ربنا جل ذكره: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].. العبرةُ ليست بالجنس بل بالعمل والحركة، وإعمال سنة السببية.. مكمن التأثير والتغيير والتقويم والتكريم أو التجريم ليس بالانتساب إلىٰ النبي الخاتم أو إلىٰ موسىٰ أو إلىٰ عيسىٰ عليهم الصلاة والسلام.. كلا! ليس بالأماني والادعاءات بل كما قال رب الأرض والسماوات: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ٧٦]، فليجمع المفتخرون بألقابهم وأسمائهم وأجناسهم.. ليجمعوا أسماءهم وألقابهم وأجناسهم، ولينصرفوا عن صناعة الحياة.

لقد كان من رحمة الله تعالىٰ بعباده المؤمنين أن تضمَّن وحيه إلىٰ الناس نمطين من المفاهيم لا يستغني عن أي منهما العقل البشري: مفاهيم تتعلق بالمبدأ: فصلت نظام القيم في الإسلام وبينت مضامين الرسالة التي جاء بها محمد ﷺ، وتجسيدات تلك الرسالة في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع.. فهي مفاهيم تتعلق بـ"ماذا"؟ لا بـ"كيف"؟ ومفاهيم تتعلق بالمنهج بينت طرائق التطبيق ومناهج التغيير وسننية الإصلاح والبناء، إما من خلال قواعد منطوقة أو ضمنية في النص، أومن خلال الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ. فهي تتعلق بـ"كيف"؟ لا بـ"ماذا"؟[١]

الأسلوب القرآني في عرض سنة التداول:

يعرض القرآن المجيد سنن تداول الأيام بأسلوبٍ قصصيٍّ يثير حرث الأفكار النيرة ليصل بالشعوب المقهورة إلىٰ أن تستلهم منها معالجة الأزمات، وتصنع النصر، وتحقق النجاح في المعارك الحضارية، وتنال ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ولا تقف البصائر القرآنية في هذه الآيات عند السنن التفصيلية لكيفية الخروج من أودية الاستضعاف، بل تمد لنا في أنوارها مدًا، لتنتهي ببيان السنن المطردة حول كيفية التدافع، وفهم حقيقة الصراع العالمي، ويغلب علىٰ الأسلوب القرآني هنا الأسلوب التصويري للمشاهد القصصية؛ لتظهر كأنها تبث علىٰ الهواء، وتقع أمام الأعين، وترىٰ في بيان السنن الإلهية من خلالها وصفًا واقعيًا مدهشًا لمن عملت فيه سنن الإخفاق والفشل، ففقد اسْتِقْلَاله، وحاز العدو دياره، وسيطر علىٰ مقدراته وثرواته، وواجه الموت الذي فر منه، كما تلمح تفصيلًا حول مَن أخذوا بسنن النهوض الحضاري، والانبعاث بعد الضعف والتبعية، واقتحموا الصعاب، وخاضوا المكاره

(١) محمد المختار الشنقيطي، الحركة الإسلامية في السودان، (مدخل إلى فكرها الاستراتيجي والتنظيمي)، بتصرف، ص ٣١.

فمنهم من فاز وجاز، ومنهم من أخفق ولشهوته انحاز، وبعد التمحيص جاء الانتصار وانجلت عنهم الأخطار وسادوا في الأقطار.

وبين مشهد الغرق في حمأة الاستضعاف ومشهد اليقظة للخروج من أوزار الذلة تحس بالمدد الذي بعث الله ﷻ به أعظم أنبياء بني إسرائيل، وقال له ولأخيه عليهما السلام ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].. تحس بهذا المدد قد بُعِثَ ليُجَدِّدَ تلك النفوسَ الذليلة، والعقول المنهكة، فأحياهم الله ﷻ بعد ممات، وآتاهم نصره في الحياة الدنيا قبل أن يقوم الأشهاد، «وقد شعر القوم بالذل ومرارة الهزيمة والهوان، وكان هذا الشعور عند الجميع، العامة والملأ المالكين فيهم، فأرادوا أن يغيروا واقعهم الذليل، وأن يبدلوا ذلهم عزة وهزيمتهم نصرًا، وعلموا أن السبيل الوحيد لذلك هو الجهاد والقتال، لذلك لجأ الملأ الحاكمون فيهم إلىٰ نبيهم عليه السلام، وفزعوا إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم ملكًا يتولىٰ أمورهم، ويقودهم إلىٰ العزة والنصرة»[1].

بهذه القومة، وبذاك التغير في طريقة التعاطي الإسرائيلي مع سنن تداول الأيام رأيت هذا التأثير المدهش لهم في الأحداث العالمية بعدها.

وهل يخفىٰ عليك ما قام به (تيودور هرتزل) وهو مجرد صحفي نمساوي مجري، عندما شكّل (المنظمة الصهيونية) في مؤتمر النمسا فجمع اليهود؛ ليخرجهم من حياة الذل والشتات حول العالم إلىٰ التخطيط والنهوض، ومن التبعية والخمول إلىٰ الريادة والنشاط والتأثير العالمي؟

بدايةً بالتآمر علىٰ آخر دولة مركزية توحِّد العالم الإسلامي (الإمبراطورية العثمانية الإسلامية) مع أنها أنصفتهم، وآوتهم، ومنعت الدول الأوربية وروسيا المتسلطة من

(١) الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ج١، ص ٦٦.

اضطهادهم لكن (هرتزل) مع عصابته نخروا في جسد المجتمع المسلم، وتآمروا علىٰ المسلمين وكيانهم الجامع، وشعوبهم المتآلفة الملتفة حول قيادتها، كل ذلك للوصول إلىٰ هدف واحد موحّد عند جميع أتباعه هو (قيام دولة إسرائيل علىٰ أرض الميعاد المزعوم).

ألا تراهم يومًا إثر يوم يحققون أهدافهم ويتقدمون باتجاه غاياتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية؟

ألا يدهشك التأثير الكبير لمجموعات الضغط اليهودية في الكيان الصهيوني وداخل الولايات المتحدة علىٰ الاقتصاد العالمي وعلىٰ سياسة أقوىٰ دولة في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) خاصة الأسر الثلاث المحورية!!

وأما أحداث الصراع العربي الإسرائيلي فهي من الأحداث المفصلية الهامة في تاريخ المنطقة والعالم، فمن نكبة ١٩٤٨م إلىٰ نكسة ١٩٦٧م إلىٰ الاعتراف بالقدس عاصمة للكيان الصهيوني قبل سنوات قلائل من قبل الرئيس الأمريكي (ترامب) ضمن صفقة القرن إلىٰ التطبيع العلني مع هذا الكيان الغاصب الظالم من قبل دول عربية مسلمة!!

كيف يمكن للعقل المسلم الواعي أن يصدق ما يجري من انهيار لمنظومة الكيان المسلم وصعود تيارات التطبيع والخيانة؟! لمَّا أَخَذ الرَّعيل الأول من صالح سلف أمتنا بسنن التمكين ومقتضياته رفع الله ﷻ شأنهم وأعزهم ومكنهم من ناصية الحضارة فإذا ما نظرت إلىٰ المسلمين في هذا العصر، وقد ضلوا سواء السبيل في الأخذ بسنن الخروج من أَسَنِ الاستضعاف.. ألفيت مجموع المشهدين كافيًا - وعزة ربِّنا - لبحث موضوع السنن الإلهية في الخروج من حالة الاستضعاف، كيف لا؟ وهو الذي يتعلق به النظر في تصاريف الحياة، وتقلب الدهر، والعلاقة بين الطرق الكسبية في صنع عزة

الأمم، والحلىٰ الإيمانية بما جرىٰ في اللوح وخطه القلم.. ولقد كان ذاكم همًّا يقض مضجعي.. وما برحت أتقلب علىٰ جمر الغضا أتأمل فيه والخَلِيُّون هُجَّعٌ؛ إذ ترىٰ الارتباك الواسع في معرفة كيفية المدافعة لجحافل الباطل المتوحشة؛ فإن المدافعة لا تعني البتة التهور والاندفاع في غير آنه، ولا تعني الرضوخ والانكسار في غير زمانه.. كلا! فالمدافعة توفيقٌ حقيقيٌّ لوضع كل شيءٍ في موضعه بقدره.

ها أنت ترىٰ استفحال الداء، وكيف استغلت القوىٰ المتوحشة هذا الارتباك في قلب موازين الحق والباطل في الأرض، وحسبك أن ترىٰ كيف لاثت نظرية (الفوضىٰ الخلاقة)[١] التي أعلنت عنها (كونداليزا رايس) وعاثت.. لقد سمع العالم تلك الخطة الاستراتيجية، فكأنهم لم يسمعوا شيئًا؛ إذ أنبتت أشواكها القاتلةَ من خلال المليشيات المتعددة التي تعيث في الأرض فسادًا ما بين النهرين إلىٰ عدن، والأبرياء حائرون!!.

إن واقعًا كهذا بحاجة لـ "لكتابات العلمية التي تنتقد ولكنها لا تتحامل، تراجع المسيرة ولكنها لا تتنكر لعطاءات السابقين، ترتبط بماضي الكسب لكنها لا تقع أسيرة له أو تفتتن به عن واقع الحال ومثال المستقبل الواعد"[٢].

وهذا البحث جاء تكملةً لكتابي (عاقبة المنذرين - من السنن الإلهية في تداول الأيام) بل كان جزءًا منه، وفيه فَصَّلت المقدمات التأصيلية للسنن، ثم رأيت أنه يستحق أن تكون له راية الاستقلال عن أصله غير ناءٍ في فصله.

لا تعجب - أي خليلاه - أن أحصر حركتي وذهابي وجيئتي لمعرفة ورصد سنن الخروج من الاستضعاف في الآيات [٢٤٣-٢٥٤] من سورة البقرة..

---

(١) كونداليزا رايس (Condoleezza Rice): سياسية ودبلوماسية أمريكية، شغلت منصب وزير الخارجية بالفترة من ٢٠٠٥م إلى ٢٠٠٩م، وهي ثاني من تولى المنصب من الأمريكيين الأفارقة (بعد كولن باول)، وثاني امرأة في المنصب، ويكيبيديا https://ar.wikipedia.org/wiki.

(٢) محمد المختار الشنقيطي، الحركة الإسلامية في السودان، ص ١٦.

أو ليست آيات الكتاب الهادي المنير الذي لا ريب فيه تفيض بأنوارها وبصائرها لتصلح العالم؟ أليس ترىٰ أثرها المثير ينتشر فيحيي النفوس، ويُذهِب اليأس، ويزيل القنوط، ويملأ الأجواء بالاطمئنان.

الخطة العامة للكتاب:

ضم هذا الكتاب إلىٰ جناحه ما يأتي:

تمهيدٌ : يحوي دراسة السنن بين حالتين إسرائيليتين مثيرتين: حالة القعود، وحالة البعث.

وفيه تجد تعريفًا بالحالة الإسرائيلية في صورتها الإيجابية (المسلمة) في سورة البقرة بعد عهد موسىٰ عليه السلام، ثم تبع التمهيد ثلاثة أقسام تشكل واحدًا من محاور سورة البقرة علىٰ النحو الآتي:

القسم الأول: القومة وبعث التحدي بداية اليقظة بمواجهة الأزمات وعدم الهروب منها.

وفيه ترىٰ السنن الأساسية للانطلاق والخروج من التيه، وذلك في الآيات من سورة البقرة [٢٤٣-٢٤٥].

القسم الثاني: (صناعة الفُلْك): السنن الإجرائية للخروج من حالة الاستضعاف، والنجاح في المعارك الحضارية.

وذلك في الآيات من سورة البقرة [٢٤٦-٢٥٢].

وفيه أربعة مشاهد وكل مشهدٍ تضم حناياه سننه الخاصة به:

المشهد الأول: (بداية النور) بعث الملأ وفقه التغيير.

المشهد الثاني: إدراك أسباب الإخفاق في الانطلاق.. الحذر من الشهوات التي تجتاح قلوب الصديقين.

المشهد الثالث: أهم الصفات المؤهِّلة لقيادات مرحلة التأسيس.

المشهد الرابع: المعركة الشاملة: اصطفاء الجنود، والاستعداد الذكي للمواجهة الحتمية.

القسم الثالث: حقائق أزلية وسنن ثابتة في الخريطة العالمية.

وتجد هذا القسم في سورة البقرة [٢٥٠-٢٥٤].

وترىٰ فيها تلخيصًا لأهم الحقائق التي تعرفك بتداول الأيام وسنن التدافع لإبعاد الفساد في الأرض أو لإحلاله عند غيابها، وكيف يمكن تجنب دفع الهيمنة المتغطرسة للقوىٰ المفسدة في الأرض؟ أو كيف يمكن إعمال الردع والدفع بدلًا من الرفع؟

وبعد:

فإن المرقوم في هذه الصفحات محاولة لاستنطاق القرآن المجيد في واقعنا المؤلم، وعندما تجد فيها ثناء علىٰ المسلمين (الإسرائيليين) فهو ثناء علىٰ من اتبع الدين الذي جاء به موسىٰ عليه السلام وجدده أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام من قبل.. إنه حديث عن الفئة القيادية المؤمنة التي شابهت أهل بدر، فقال الله عز وجل عنها رافعًا هاماتها فوق الذرىٰ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وفي المقابل ستجد هذه الكلمات تنبئك أن أهم حقائق الصراع العالمي، وإحلال هذا الظلم الذي تئن منه الأرض إصرارُ الذين يزعمون اتِّباع موسىٰ عليه السلام علىٰ الكفر بآخر نبيين بعثا إلىٰ الأرض، وهما عيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام.. هذا القرآن المجيد ينطق علىٰ الواقع البشري بالحق، وما الله يريد ظلمًا للعالمين...

ولما قرأ د/ سعيد بن دحباج مسودة هذا الكتاب "اقتحام العقبة" اهتز قلبه، وربا فكره، فأشعل سرجًا منيرة من الشعر قائلًا:

هَجَعَ القومُ واستطابوا المَنَامَا وعلىٰ الذلِّ قَدْ أطالوا المُقَامَا
وَبَدَا مِنْ حَوَالِكِ الليلِ نورٌ فغدا الصَّبُّ مُغْرَمًا مُسْتَهَامًا
يَتَمَلَّىٰ بِحُسْنِ غَيدَاءَ يُغْرِي سِحْرُها والجمالُ لمَّا تَسَامَىٰ
تُبْهِرُ العينَ بالمحاسنِ تَتْرَىٰ تأسرُ اللبَّ خِفَّةً وَقَوَامًا
ولها منْ خلائقِ الغِيدِ دَلٌّ هلْ أسمِّيهِ رِقَّةً وانسجامًا؟
أمْ أناديهِ رغمَ أنفِ الغواني قمرَ الليلِ حينَ حازَ التماما؟
طالَ مني القعودُ حتىٰ دَهَانِي حُبُّها فاستحالَ مني (اقتحامًا)
ولقدْ كنتُ في الوراءِ زمانًا فأنا اليومَ قدْ مضيتُ أَمَامًا
كمْ تعثَّرْتُ في متاهاتِ ضعفي وإذا بي نهضتُ أسعىٰ (إِمَامًا)
و(اقتحامُ العقابِ) عُقباهُ فوزٌ يُعقِبُ الهم فرحةً وابتسامًا

اللهم افتح لهذه البشرية أمرًا رشدًا تقيم فيه أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون يا أرحم الراحمين.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، علىٰ الله ربنا توكلنا.

ذوالحجة ١٤٤٢هـ الموافق يوليو ٢٠٢١م
s1435y@gmail.com

تمهيد

دراسة السُّنن بين حالتين إسرائيليتين مشرقيتين
حالة الصُّعود وحالة البعث

سنّة القعود والانبعاث

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

[البقرة: ٢٤٦]

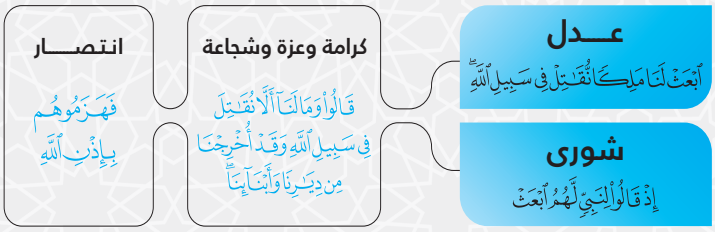

قال تعالى:

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ

[المائدة ٢٤]

تمهيد

دراسة السُّنن بين حالتين إسرائيليتين مثيرتين
حالة القُعود وحالة البعث

تأملْ - أيدك الله - في دروس التاريخ لتجد فرقًا كبيرًا بين الحالة الإسرائيلية التي يقول فيها أصحابها ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وبين الحالة التي ترىٰ فيها الإسرائيليين منتفضين من حالة الذل والاستضعاف يقولون لنبيهم بكل بسالة ودون تردد: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ فيحاورهم نبيهم مستصحبًا حالة الهزيمة النفسية السابقة، فيقول لهم: ﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

بين الحالتين ترىٰ المهيَعَ فسيحًا، يستيقظ من كان فيها ميتًا أو كسيحًا، وتتعجب في الحالة الأولىٰ من منظر الوادي السحيق الذي هبطوه، ويأسرك في الحالة الثانية منظر المرتقىٰ السامق الذي بلغوه..

لكنك لا ترىٰ في المشهدين إلا شعبًا واحدًا.. هم أنفسهم في الحالتين -بنص القرآن المجيد- ينتمون إلىٰ العرق الإسرائيلي، فالجينات الوراثية لم تختلف، والتركيب الحيوي المكون لأجسادهم هو ذاته، ومن المدهش أن ترىٰ عاملًا مهمًا في الحالة الأولىٰ يجعلك تتوقع أن يكون وجوده مُحَفِّزًا لهم لتصبح معه أنفسهم باسقات لها طلع نضيد في التوثب والإقبال.. ذلكم العامل المهم هو وجود موسىٰ عليه السلام كليم الله -تعالىٰ مجده- الذي تقول عنه التوراة المعاصرة في سفر التثنية:

٣٤: ١٠ "ولم يقم -بعدُ- نبيٌّ في إسرائيل مثل موسىٰ الذي عرفه الرب وجهًا لوجه"

٣٤: ١١ "في جميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه"

٣٤: ١٢ "وفي كل اليد الشديدة، وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسىٰ أمام أعين جميع إسرائيل"[(١)].

إننا بحاجة لمعالجة أكثر وأعمق لمسألة أن وجود القيادة الكفؤة لا تعني دائما النجاح، فعلىٰ الرغم من عَظَمة موسىٰ عليه السلام عندنا وعند الإسرائيليين.. علىٰ الرغم من كل الآيات المدهشة التي أجراها الله عز وجل علىٰ يده.. إلا أنهم كانوا معه أمواتًا غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون.. يأمرهم المرة بعد الأخرىٰ بما يصنعون به مجدهم، ويرفع ذكرهم، فيردون وفق منطق الجفاء وسوء الأدب والكسل والتبلد: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] فكيف لهذه النفوس أن تغير وهي لا تتغير.. أحرىٰ أن يقال فيهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق:٣].

فإذا نظرت إلىٰ الحالتين وقلَّبت الطرف كرَّتين وَرَدَك سؤال:

ما الذي أحدث ذلك الانتقال العظيم من حالة الخمود والهمود والموت والاستسلام الحضاري، بل الخضوع الحيوي إلىٰ حالة الانتصار والصناعة لآفاق الحياة حتىٰ قالوا وهم يواجهون عدوهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]؟

ألا تُعمِل فكرك في هذا التغير المدهش عسىٰ أن ترىٰ فيه تبصرة وذكرىٰ لكل

(١) الفغالي، وعوكر، أنطوان، الأبوان، العهد القديم العبري، المكتبة البولسية، لبنان، ٢٠٠٧م، ط١، ج١، ص٢٤٠، فكري، أنطونيوس القس، سفر التثنية، مشروع الكنوز القبطية، ص ١٤٨.

عبدٍ منيب؟

لقد أفسد الظلم الفرعوني الممنهج نفسيات الإسرائيليين حتىٰ استمرؤوا الذل، وألِفُوا حياة الهوان، ولم تعد تضيء أعينهم بأفكار التحرر والانتصار، فكان ذلك القول المؤلم منهم لموسىٰ عليه السلام في الحالة الأولىٰ، بل جاء في سِفْر العدد من كتابهم المقدس ما يحكي شيئًا مدهشًا من ذلتهم ومسكنتهم لما أمرهم موسىٰ عليه السلام أن يدخلوا الأرض المقدسة.. اسمع وصدق أو لا تصدق:

١٤: ١ "فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكىٰ الشعب تلك الليلة"

١٤: ٢ "وتذمر علىٰ موسىٰ وعلىٰ هارون جميع بني اسرائيل وقال لهما كل الجماعة: ليتنا متنا في أرض مصر أو ليتنا متنا في هذا القفر"

١٤: ٣ "ولماذا أتىٰ بنا الرب إلىٰ هذه الأرض؟ لنهلك بحد السيف وتؤخذ نساؤنا وأطفالنا سبايا؟ أليس خيرًا لنا أن نرجع إلىٰ مصر؟"

١٤: ٤ "فقال بعضهم إلىٰ بعض: نقيم رئيسًا ونرجع إلىٰ مصر"

١٤: ٥"فسقط موسىٰ وهارون علىٰ وجهيهما أمام كل معشر جماعة بني إسرائيل"

١٤: ٦ "ويشوع بن نون وكالب بن يفنة من الذين تجسسوا الأرض مزقا ثيابهما"

١٤: ٧ "وكلَّما كلَّ جماعة بني إسرائيل قائلين: الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها. الأرض جيدة جدًّا جدا"

"١٤: ٨ إن سُرَّ بنا الرب يدخلنا إلىٰ هذه الأرض ويعطينا إياها أرضا تفيض لبنًا وعسلًا"

"١٤: ٩ إنما لا تتمردوا علىٰ الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأننا سنبتلعهم

كالخبز، فقد تلاشىٰ ظل الحماية عنهم، والرب معنا فلا ترهبوهم"[١].

وما لك ألا تصدق أن يتمرد الإسرائيليون علىٰ أعظم أنبيائهم عليه السلام؟ وما لك ألا تصدق أن يشعر الرجلان الصالحان -اللذان قالا ادخلوا عليهم الباب- بقهرٍ موجع، وألمٍ مفظع وهما يريان موسىٰ عليه السلام يأمر فلا يُطاع، ويُنهِضُ القوم، فما يجد إلا الإباء والامتناع، ويحاول أن يبعث فيهم الحياة الحقيقية فما يجد منهم إلا العبث والضياع ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]..

لم يكتف الإسرائيليون في تعاملهم مع موسىٰ عليه السلام بذلك بل تنادوا حسب كتابهم المقدس لتدبير انقلابٍ محكمٍ ضده رغبة في حياة الهون؟ بل اشتياقًا إلىٰ مصر "بيت العبودية" يحنّون إلىٰ ما جرت به تلك السنون.. وما لك ألا تصدق ذلك وأنت ترىٰ الحالة المسلمة هذه الأيام علىٰ الهواء مباشرة.. فقط ضع هؤلاء مكان هؤلاء؟

هذه حالتهم مع موسىٰ عليه السلام الذي ما أَخْرَجَهُمْ مِنْ مِصْرَ من بيت العبودية -كما هو تعبير الكتاب المقدس- إلا لبناء مجد حضاري مستقل يبين للإنسانية نعمة العيش عندما تطبق كلمات الله عز وجل، وتنفذ قوانينه.

لو أراد الله المجيد الحميد أن ينصرهم علىٰ الجبارين بكلمته لفعل.. أليس هو الله عز وجل الذي أنقذهم من فرعون بقوةٍ قاهرة، وخلصهم من العذاب المهين بمعجزات عجيبة خارقة؟ أليس هو الذي قال سبحانه ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١].

لكنه أراد أن يربيهم علىٰ تطبيق سنن التغيير البشرية التي تليق بالإنسانية الحرة

(١) فكري، أنطونيوس القس، سفر العدد، مشروع الكنوز القبطية، ص ٧٠.

المكرمة ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: ٤٢].

"إن سنة الأخذ بالأسباب مقررة في كتاب الله ﷻ، ولقد وجه الله ﷻ عباده المؤمنين إلىٰ وجوب مراعاة هذه السنة في كل شئونهم الدنيوية والأخروية سواء. قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].. ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالىٰ طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعفها، قال تعالىٰ: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]"[(١)].

أراد أن تظهر منهم الإرادة البشرية الصادقة التي تنشد صبغة الحياة علىٰ مراد الإله.. أراد ﷻ أن يجري عليهم قانون﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ [محمد: ٤].. أراد أن يُظهِر كل منهم انتصاره الحقيقي علىٰ نفسه الخوارة، فيشعر بالفرح والاغتباط عندما يرىٰ ما صنعه من مجدٍ بيده ضمن قانون ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

وحينها تشرق الأرض بنور العدالة الإلهية التي تحاسب كل واحدٍ حسب عمله، وتجازيه وفاقًا لكسب يده، ثم يأتي النصر الإلهي أو تُبرز الحكمة الغيبية أمورًا أخرىٰ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) الصلابي، فقه النصر والتمكين، ص٢١٥.

انظر إلىٰ التأثير المدهش لبني إسرائيل الآن في الأحداث العالمية، فعلىٰ الرغم من قلة عددهم بالنسبة لبقية سكان العالم إلا أنهم أشد نفيرًا، وتراهم في الأحداث العالمية أقوىٰ تأثيرًا، علىٰ حد قول الأميري:

وقائلين يهودٌ قلت واحربًا أجلْ يهودُ يهودُ الذلِّ والفَرقِ
يا نائمين انظروا فالله مِنْ أَزَلٍ أرسىٰ نواميسه في الخلقِ كالفلقِ
هم حاربونا برأيٍ واحدٍ عددٌ قِلٌّ ولكنْ مُضَاءٌ ثابتُ النسقِ
علمًا ودأبًا وإعدادًا وتعبئة وبادروا غزونا في مكرٍ مُستبقِ
يحدوهُمُ أملٌ يمضي به عمل ونحن واسوأتا في ظلة الحمقِ
كثرٌ ولكن عديدٌ لا اعتداد به جمعٌ ولكن بديدٌ غير متّسقِ
زاغت عقائدنا حارت قواعدنا أما الرؤوس فرأي غير متفقِ
البعض يحسب أن الحرب جعجعة والبعض في غفلة والبعض في نفقِ
وأعلنوها وما خاضوا معامعها ولا أعدوا لها إعداد ذي حذقِ
فكان من أمرنا ما كان من فشل هذي جحافلهم مهزومة المزقِ[1]

وتأمل فيما قاله السلطان عبد الحميد الثاني ﵀ في مذكراته :

«لا يريد الصهيونيون الاشتغال بالزراعة فقط في فلسطين، بل إنهم يريدون إنشاء حكومة لهم وانتخاب ممثلين سياسيين لهم، وإني أفهم جيدًا معنىٰ تصوراتهم الطامعة هذه، وإنهم لسُذج إذا تصوروا أني سأقبل محاولاتهم هذه... إن هرتزل يريد أرضًا لإخوانه في دينه لكن الذكاء ليس كافيًا لحلِّ كلِّ شيء»[2].

(١) عمر بهاء الأميري، من وحي فلسطين، ج١، ص٨٦، وانظر: حليمة الحمد، القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، ص ٦٣.

(٢) محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، ج ١،ص ٢٩.

ومن بعيدٍ في الأزمان ترىٰ النبي ﷺ يحرص علىٰ أمته، فيبين لها شدة شبه هذه الأمة بالحالة الإسرائيلية، وكيف ستجري عليها السنن الاجتماعية التي عاشتها الحالة الإسرائيلية.

فعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه وكان من أصحاب رسول الله ﷺ قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، خرج بنا معه قبل هوازن، حتىٰ مررنا علىٰ سدرة الكفار: سدرة يعكفون حولها، ويدعونها ذات أنواط، قلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨]»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إنكم لتركبن سنن من قبلكم»[(١)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتىٰ لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارىٰ؟ قال: «فمن»[(٢)].

وهذا البحث تذكيرٌ بالسنن الحقيقية في بناء المجتمعات، وفي النهوض الحضاري من حالات الاستضعاف واليأس الذي يستهلك النفوس.. إنه يستهلكها حتىٰ تراها ترضىٰ بالعيش في سوق العبيد بعيدًا عن حياة التكريم الإلهي للإنسانية

ذلَّ من يغبِطُ الذليلَ بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخَفُّ منهُ الحِمَامُ

---

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥/ ٩٤) برقم ٦٧٠٢، وقال الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حرملة -وهو ابن يحيى - فمن رجال مسلم"، والحديث رواه الترمذي (٤/ ٤٧٥) برقم ٢١٨٠، وقال: " هذا حديث حسن صحيح" وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي. وقولهم: "ذاتَ أنْواط" هو اسم شجرةٍ بعينها كانت للمشركين يَنُوطون بها سِلاحَهم: أي يُعَلِّقونه بها، ويَعْكُفون حَوْلَهَا على سبيل العبادة.

(٢) البخاري رقم ٧٣٢٠.

كلُّ حلمٍ أتىٰ بغيرِ اقتدارٍ حجةٌ لاجئٌ إليها اللئامُ
منْ يَهُنْ يسهلِ الهوانُ عليه ما لجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ[١]

"إذا كان الاستعمار القديم قد تمكن من الأوطان؛ فقامت عليه بعثة تجديدية تناوئه وتجليه فإن الاستعمار في هذه المرحلة قد تمكن من الإنسان قبل أن يتمكن من الأوطان، فاقتحم جسور البلاد بالشهوات قبل أن يقتحمها بالدبابات، ففقدت الشعوب الإسلامية قوتها للصمود أمام الإغراء العالمي.

إن بعثة التجديد القادمة مدعوة لتحرير الإنسان قبل تحرير السلطان، وإلىٰ تحرير الوجدان قبل تحرير الأوطان، وهذا ما نحاوله مستلهمين معالم الرشد والنهوض القرآنية"[٢].

سورة البقرة تبصرنا – ضمن بصائرها المدهشة- بالحالة الإسرائيلية في صورتها الإيجابية (المسلمة) بعد موسىٰ عليه السلام، علىٰ هيئة تستفزك لتجري دراسة تحليلية لها وفق الرؤية القرآنية:

حديثُك عن الخروج من حالة الاستضعاف يمثل نورًا في العالم المملوء بالظلم والجور، المثخن بأوزار الحروب، ولأن أحوال البشرية قائمة علىٰ التغير، وأيام الدهر يعتريها التداول؛ فإنك ترىٰ أنه بينا يُرىٰ المستضَعفُ في زمانٍ قد أكلته عاديات الظُلَم، وغشيته دياجي الانتهاك، إذا له في زمانٍ آخر الصولة والجولة قد أمده الله ﷻ بأموالٍ من الثروات الاقتصادية وبنيان من القوات العسكرية، وجعله أكثر نفيرًا في استقطاب القوىٰ الدولية لمصالحه، ومنادي الاختبار يذكر بقانونه في الملأ قائلًا: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]، وإنك لترىٰ انتشارًا لذكر واقع

(١) مصطفى سبيتي، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ج ٢، ص ٢٠٨.
(٢) فريد الأنصاري، الفطرية بعثة التجديد المقبلة، ص ٤٢.

الاستضعاف في القرآن المجيد، ولا يذكر الاستضعاف حتىٰ تصحبه السنن الكونية والشرعية والاجتماعية للخروج منه، ومن عجبٍ أن يكون التركيز القصصي في هذه الحالة متعلقًا ببني إسرائيل، وأنت تسمع موسىٰ عليه السلام يقول لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].. ولعَمْرُ إلهي إن الحياة الإسرائيلية في مثل ذلك لجديرة بالدراسة المستقلة، بيد أننا نوردها هاهنا باعتبارها أنموذجًا في كتابٍ، فأغنىٰ عن التوسع فيها ما يُزيل الظمأ، ويجلي العمىٰ، ويُذهبُ سنا برقه التيه في التِباب، ويوقف علىٰ النجاة من التَباب، ولذا اخترت الكلام عن الأنموذج الإسرائيلي خارج الإطار الفرعوني لحضور السنن الشرعية والاجتماعية بصورةٍ واضحةٍ فيه، وقلة المعجزات الخارقة التي كانت تغلب في مدافعتهم للاستكبار الفرعوني.

وهذا الأنموذج ذكره الله ﷻ في سورة البقرة في الآيات ٢٤٣-٢٥٤.

فإن كانت هذه الآيات نزلت قبل معركة بدر[1] – وهذا محتمل – فإن فيها تشجيعًا عظيمًا لأهل المدينة ليستعدوا لمواجهة حقيقية فاصلة كما استعد الإسرائيليون من قبل، والآيات ترسم لك هنا خططًا متكاملة لأي مواجهة مستقبلية.

تغير فقه الخروج من الاستضعاف بناء علىٰ الأحوال المختلفة:

الذي ينبغي التأكيد عليه هنا أنك ترىٰ في هذا الأنموذج من نماذج الاستضعاف خصوصية في الزمان والمكان والحالة، فليس كل ما ورد فيه من استلهام السنن يكون قابلًا للتطبيق والتنزيل علىٰ حالاتٍ لا تماثله في واقعه..

وإنك لترىٰ حجابًا كثيفًا وتخبطًا واضطرابًا يسوق من رأىٰ قومًا من المستضعفين

(١) ينظر: محمد عزت دروزة، التفسير الحديث، ج ٦، ص ٤٦٠.

استطاعوا أن يحققوا انتصاراتٍ جزئيةً، أو كلِّيةً في محاولة الخروج من واقع الاستضعاف الذي أحاط بهم.. فقام يسقط فقه التحولات والتغيرات عند قوم علىٰ هؤلاء مع أن واقعهم يخالف واقع الأولين في كثيرٍ من الوجوه والسبل، فذاقوا وبال أمرهم وكانت عاقبة تلك المحاولات خسرًا.. بل ربما كانوا يملكون مجموعةً من المكاسب الحقيقية فأبوا إلا تضييعها لحمقِ تدبيرٍ، وضعف فقهٍ، وشهوةٍ مستترةٍ في الصدور، وتَطلُّعٍ من فئة متحمسةٍ لمواقع القيادة، يساعده مكرٌ خارجيٌّ، واكتفاء من العقلاء بالانزواء عن مواقع النصح..

وما ذلك إلا بسبب غياب فقه الفصل بين المبادئ الثابتة والمواقف العابرة، بين الجوهر والعرَض، بين الاستراتيجية والتكتيك.

"إن إشعال الحرب أمر سهل، لكن كسبها ليس كذلك. وإذا استمر تفريط الصحوة في الثقافة العملية، فستنتهي بالإحباط والقعود، شأن كل من يشعل حربًا دون التخطيط لوسائل كسبها، ومن يقف بنظره عند أفق البدايات وينسىٰ العواقب والنهايات، فينتهي جهده بإثارة العدو لينهش جسد الأمة أكثر، بدلًا من قهره وتخليص الأمة من شره" (١)

فاضرب لهم في واقعنا المعاصر مثلًا فيمن حاول قياس الحالة اليمنية علىٰ الحالة التونسية، منخدعًا أو مخادعًا، قاصدًا أو غافلًا، وأصر إلا القيادة الرعناء، وتفضيل العمالة الخارجية باسم مطالبة المجتمع الدولي، والارتزاق في أبواب السفارات.. فماذا حدث؟

لقد جاء الآمنين الموجُ من كل مكان، وأحاطت بهم الذئاب، ولم تقتصر الفتنة علىٰ الذين ظلموا خاصة، وهدمت كثيرٌ من الإنجازات الواقعية، وأضحت الديار

(١) الشنقيطي، الحركة الإسلامية في السودان، ص ٥١.

بلاقع، وكتاب الله يناديهم في أخراهم فما أعاروا له أذنًا، ولا أصاخوا لهم سمعًا، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج ١٨].

القرآن الكريم علمنا أن ارتكاب خطأ منهجي لا يعني بالضرورة أن صاحبه آثم، ولا يترتب عليه نقص من جهده وجهاده في العاقبة. ففي ذلك التعقيب القرآني الجميل علىٰ غزوة أحد بين القرآن الكريم للمسلمين أن قتلاهم شهداء: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، لكنه أعلن لهم دون مواربة أنهم قصروا فأصيبوا: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] دون أن يكون ذلك إبطالًا لجهد المجاهدين، أو تقليلًا من شأن الشهداء. هذه المعادلة التي تميز بين القصور المنهجي والتقصير المبدئي هي التي تعوز كثيرًا من الإسلاميين اليوم. ولذلك يضيقون ذرعا بأي نقد، مهما كان نزيهًا وصادقًا، ومهما كان دافعه الإشفاق علىٰ العمل الإسلامي، ويدرجونه ضمن التشكيك في جهاد الحركات الإسلامية، والطعن في مبادئها، والتقليل من شأن روادها وشهدائها[1].

ويوضح ذلك واقع الاستضعاف الإسرائيلي حينها؛ فإننا نتكلم عن وقتٍ طرد فيه الإسرائيليون من ديارهم بعد ما كانوا قد تمكنوا وشادوا حضارة وبنوا مجدًا، فتخطفتهم جوارح التشتت، ونهش فيهم الوهن، وغرزت في أجسادهم أنياب الذل، وسنرىٰ كيف كانت معالجتهم لهذا الواقع مختلفة تمامًا عن معالجة موسىٰ عليه السلام لواقع الاستضعاف الذي رزح تحته الإسرائيليون في الحقبة الفرعونية.

فأول ما يضيء الطريق: معرفة المناسبة والاتصال بين هذه الآيات وما قبلها:

اقرأ (سورة البقرة) لتجدها مؤسسة علىٰ ذكر هداية البشرية بكتاب لا ريب فيه، ثم أظهر الله ﷻ إعلانه العالمي للناس كافة حول النمط المثالي للحياة البشرية السعيدة: إنها توجد في نظام العبادة، فليعبدوه ولا يتخذوا من دونه أندادًا بشرية أو حجرية أو

(١) ينظر: الشنقيطي، الحركة الإسلامية في السودان، ص ٥٢.

تشريعية يؤثرونها علىٰ التنظيم الإلهي للحياة، وبين لهم قصة الوجود البشري، وكيف تكونت خريطة الحلفاء والأعداء في هذا الوجود، ثم ضرب لهم أبرز أمثلة النجاح والفشل للاستخلاف البشري في الأرض من خلال ذكر الحقبة الإسرائيلية التي غلب علىٰ كثيرٍ من جوانبها الإخفاق في إقامة مبادئ الاستخلاف حتىٰ سمىٰ نبيهم حزقيل عليه السلام عاصمة الوجود الإسرائيلي سفاكة الدماء، كما ورد في توراتهم المعاصرة، كما قص الله ﷻ علينا النجاح الإبراهيمي في إتمام واجبات الاستخلاف، وبين جدارة الأمة المسلمة الخاتمة لتكون وريثة للملة الإبراهيمية، ولذا اصطفاها بالتشريعات الفقهية الحيوية التي تنظم الواقع البشري تنظيمًا دقيقًا مذهلًا.

إلا أن هذا التنظيم التشريعي الدقيق لأوضاع الحياة، قد يصادر بسبب عدم وجود مجتمعٍ مستقرٍّ آمن، أو بسبب تعرض البشرية لحالة استضعافٍ أو اضطهاد.. فكيف يكون الخروج منها؟ ناسب هنا أن يبين الله ﷻ كيفية الخروج من أزمات الاستضعاف ومحنه، كما ترىٰ أن معالجة موضوع الاستضعاف جاء بعد القضايا الاجتماعية، كالخمر، والميسر، وأحكام اليتامىٰ، وتكوين الأسر، ومعالجة ما يعترض سيرها ويصدع بنيانها؛ وكل ذلك ليبين عظمة المنظومة الإسلامية المتكاملة؛ ردًّا علىٰ من يحصر الإسلام في قضايا الأحوال الشخصية فقط.

سمات الأسلوب القرآني في هذا الموضع:

اتسم الأسلوب القرآني هنا بالسمات الآتية:

السمة الأولىٰ: تمت معالجة الاستضعاف هنا عبر أسلوبٍ قصصيٍ ملهم، يثير التعرف إلىٰ سنن معالجة الأزْمة، والخروج من الحلقات المترابطة للاستضعاف والاضطهاد الذي تتعرض له مجموعة من الناس بما يمنعها من القيام بواجبات الاستخلاف، ويحول بينها وبين الحياة البشرية الكريمة التي وهبها الله ﷻ للبشر،

وتخلل هذه المشاهد القصصية مجموعة من التعليقات المناسبة لئلا تصبح القصة مجرد ملهاة تمثيلية.

السمة الثانية: غلب علىٰ الأسلوب القرآني الأسلوبُ التصويريُّ للمشاهد القصصية؛ لتظهر كأنها تبث علىٰ الهواء، وتقع أمام الأعين، وهنا ندرك سر التعبير القرآني اللافت في قول الله تعالىٰ مجده: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ؛ فالرُّؤْيَةُ هنا إما أن تدل علىٰ الرؤية البصرية، وإما أن تدل علىٰ الرؤية القلبية كَقَوْلِهِ جل ذكره: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨] بمعنىٰ : عَلِّمْنَا تعليمًا يماثل رؤيتنا للأشياء، فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ ﴾ يخاطب به من لم ير ولم يسمع كأنه حاضر يشاهد الأحداث، أي انظر بقلبك نظر المتيقن،كأن الحدث ينقل إليك علىٰ الهواء مباشرة، كما يثير هذا التعبير التعجيب من حالهم إما ضلالًا وإما هداية في تصرفاتهم، وتحرك الحياة من خلال أفعالهم.

إنْ تدبَّرَ قلبُك هذه الآيات من سورة البقرة[1]، ولذا تدرجت هذه الآيات في بيان الأقسام الثلاثة فرتبتها ترتيبا تنظيميا بنائيا:

يروعك هذا الترتيب المدهش (لسنن الخروج من الاستضعاف وصناعة التوازن والسلام العالميين بإعمال سنة التدافع) في هذا الموضع من سورة البقرة؛ إذ تجد ربنا ﷻ يؤسس لك بنيانه علىٰ أساسٍ متينٍ، لترىٰ صورةً متكاملةً متراصةً يأخذ اللاحق منها بيديك من السابق، ولذا تدرجت الآيات في هذا الموقع من السورة إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: **(القومة) وبداية اليقظة**: السنن الأساسية للإنطلاق والخروج من التيه، وهنا يحبوك هذا القسم بمجموعة من السنن التي تبعث الحياة في الأجساد الميتة والأفكار الخاملة، لكن أهم تلك السنن سنتان أساسيتان: سنة اتخاذ القرار

(١) يراجع كتابنا : (بصائر المعرفة القرآنية): (سورة البقرة: إشراق الحضارة الإسلامية)، تحت الطباعة.

بالمواجهة للأزمات وعدم الهروب منها، وسنة إعداد الدعم الأساسي (اللوجستي) الذي يعني الاستعداد للإمداد بالمال والرجال.

وهنا يأتي **القسم الثاني**: **(صناعة الفلك)** ليفصل لنا السنن الإجرائية لصناعة الفلك الذي يمكنه الجري في موجٍ كالجبال، ويظهر أثره في الحصار العالمي والاضطهاد الممنهج.

فإذا تم ذلك جاء **القسم الثالث**: **(التدافع)** أهم حقائق صنع التوازن والسلام العالميين، ويحدثنا الله ﷻ بالحقائق الأزلية للصراع البشري، وكيف يمكن كبح جماح الشر فيه.

وإذا لوحظ علىٰ لغة الكتاب تصاعد النبرة، وتعالي صوت النذارة؛ فإنما ذاك ليوقظ النوام من سكرتهم؛ فإن الكتابات الرتيبة والأبحاث الباردة لا تحقق ذاكم الغرض ولا تفي به حسب تعبير إقبال:

ما في مدارسك التي ترتادها إلا بحوث مغفَّل وبليدِ
سرُّ الدراسة في فؤادك كامن لو كنت تحسن صرخة التوحيدِ[1]

(١) إقبال، محمد، ديوان (الأعمال الكاملة)، ٢٠٠٧م، ص ١١٨.

القسم الأول

القومة وبعث التحدي

بداية اليقظة بمواجهة الأزمات وعدم الهروب منها

السُّنة الأساسية للانطلاق والخروج مع الله

[البقرة: ٢٤٣-٢٤٥]

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾
وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن
ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا
كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

[البقرة: ٢٤٣-٢٤٥]

آيات هذا القسم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةًۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣-٢٤٥].

ويمكن أن يبصرك هذا القسم بالسنن الآتية:

السُّنَّة الأُولى
المواجهة المناسبة وعدم الانهزام أمام التحديات والأخطار أساس صناعة الحياة

فالانهزام في المواجهة الضرورية ابتغاء الحياة، مدعاةٌ للموت غير الشريف، أو الحياة المذلة.

تأخرتُ أستبقي الحياةَ فَلَمْ أجدْ لنفسي حياةً مثلَ أنْ أتقدمَا
فلسنا علىٰ الأعقابِ تدمىٰ كلومُنا ولكنْ علىٰ أقدامنا تقطُرُ الدمَا[1]

ويُبَصِّرُنا بذلك قول ربنا ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

---

(١) البيتان للحصين بن الحمام المري، من شعراء الجاهلية، شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري»، شُرَّاب محمد، ج ٣، ص ٦.

وكما قال الفاروق رضي الله عنه : «اطلبوا الموت توهب لكم الحياة»، وينسب لزيد بن علي رحمه الله: «من أحب الحياة عاش ذليلًا» والمعنىٰ من أحب الحياة لأجل الدنيا وأطماعها.

فسياق الكلام يبين قصة قومٍ كثيرٌ عددهم، فهم ألوفٌ، وعادة تشتمل هذه الأعداد علىٰ طاقات مختلفة، وبنوعٍ من الحكمة في إدارة طاقاتهم يمكنهم التغلب علىٰ كثيرٍ من المخاطر حولهم، وبدلًا من الاستفادة من طاقاتهم المختلفة وإدارتها بصورة حسنة آثروا الهرب أمام هجوم عدوهم، فتركوا ديارهم، وركبوا متن الهزيمة وأبوا المواجهة، فوقعوا في أسوأ مما كانوا منه يخافون:

وَخَارِجٌ أَخْرَجَهُ حُبُّ الطَّمَعْ فَرَّ مِنَ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعْ[1]

وأراد الله عز وجل أن يجعلهم للعالم آية، فأماتهم في طريق هربهم؛ وهذا العيش المذل، والتهرب من مواجهة الأخطار يشير إليه المتنبي، وفي عواقبه المدمرة فيقول:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ فَلا تَقنَعْ بما دونَ النّجومِ
فطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ حَقِيرٍ كطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عَظيمِ
يرَىٰ الجُبَناءُ أنّ العَجزَ عَقْلٌ وتِلكَ خَديعَةُ الطّبعِ اللّئيمِ
وكلُّ شَجاعَةٍ في المَرْءِ تُغني ولا مِثلَ الشّجاعَةِ في الحَكيمِ
وكمْ من عائِبٍ قوْلًا صَحيحًا وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السّقيمِ
ولكِنْ تأخُذُ الآذانُ مِنْهُ علىٰ قَدَرِ القَرائحِ والعُلُومِ[2]

ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنىٰ الآية أنهم كانوا أربعة آلاف، خرجوا من

(١) البيت لأحد الخوارج.، عباس، إحسان، شعر الخوارج، ص ٢٢١.

(٢) المتنبي، أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي،، ص ٢٣٢.

مدينتهم (دَاوَرْدان) [١] فرارًا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضًا ليس فيها موت، حتىٰ إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال لهم الله ﷻ: ﴿مُوتُواْ﴾، فمر عليهم نبي من الأنبياء عليهم السلام، فدعا ربه ﷻ أن يحييهم، فأحياهم، فتلا هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] [٢].

وهذه الرواية لا يظهر أنها بيانٌ للآية، فإن صحت فلعله يذكر دخول معناها ضمن الآية، وإلا فلا يظهر منها الاتصال بالسياق، ولُصوق سياقها بها، وأظنها من الإسرائيليات، فقد جاء نحوها عن وهب بن منبه رحمه الله حيث قال: أصاب ناسًا من بني إسرائيل بلاء وشدة من الزمان، فشكوا ما أصابهم، وقالوا: «يا ليتنا قد متنا فاسترحنا مما نحن فيه»! فأوحىٰ الله ﷻ إلىٰ حزقيل عليه السلام: إن قومك صاحوا من البلاء، وزعموا أنهم ودوا لو ماتوا فاستراحوا، وأي راحة لهم في الموت؟ أيظنون أني لا أقدر أن أبعثهم بعد الموت؟ فانطلق إلىٰ جبانة كذا وكذا، فإن فيها أربعة آلاف.

قال وهب: وهم الذين قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ فقم فيهم فنادهم، وكانت عظامهم قد تفرقت، فرقتها الطير والسباع. فناداهم حزقيل عليه السلام فقال: "يا أيتها العظام إن الله ﷻ يأمرك أن تجتمعي"! فاجتمع عظام كل إنسان منهم معًا. ثم نادىٰ ثانية حزقيل عليه السلام فقال: "أيتها العظام، إن الله ﷻ يأمرك أن تكتسي اللحم"، فاكتست اللحم، وبعد اللحم جلدًا، فكانت أجسادًا. ثم نادىٰ حزقيل عليه السلام الثالثة فقال: "أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن تعودي في أجسادك"! فقاموا بإذن الله، وكبروا تكبيرة واحدة [٣].

---

(١) دَاوَرْدان: بفتح الواو، وسكون الراء، وآخره نون: من نواحي شرقي واسط بينهما فرسخ. الحموي: ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٣٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٢٦٦.

(٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٦٧.

ويبين ذلك أن ابن عباس ﷺ قال في رواية أخرىٰ: «عدد كثير خرجوا فرارًا من الجهاد في سبيل الله، فأماتهم الله ﷻ، ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا عدوهم، فذلك قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾»[١]، وترىٰ ابن عباس ﷺ يعمل السياق هنا ببراعة، واستحضار السياق في الترجيح بين هذه الروايات معتبر وجيه.

بصيرة:

كثرة العدد يبطل العذر بعدم المواجهة؛ أما تسمع أن الله أنكر عليهم تخاذلهم وعدم إقدامهم مع أنهم ألوف؟

ترىٰ في قوله: ﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾كثرة عددهم حتىٰ قيل هم سبعون ألفًا.. ووصفهم بذلك يبطل عذرهم في عدم المواجهة، ولكن هذه الكثرة لم تجعل بعضهم فداء لبعض ليبنوا حياتهم، ويُشِيدُوا مَجْد عِزٍّ لم ينله ذل يسلط عليهم من أعدائهم، بل طرقهم الموت الثاقب، فاخترم حياتهم كأنهم نفس واحدة، ويلفت الحرالي ﷺ النظر هنا إلىٰ فائدةٍ عظيمة في ذكر عددهم، فيقول: «فيه إشعار بأن تخوفهم لم يكن من نقص عدد، وإنما كان من جزع أنفس»[٢]. فهي – عندي – حقيقة في كثرة العدد لبيان إمكانهم أن يذودوا عن أنفسهم..

لكنهم أبوا إلا ما يسمونه (الانسحاب التكتيكي)، وهذا النوع من الانسحاب قد يكون إنقاذًا محمودًا إن كان في موقعه، لكنهم تلاعبوا به، ووضعوه في غير مواضعه، وادعوا المظلومية أمام العالم ليستروا قيادتهم العوجاء فكانت نتيجة هذا التلاعب

(١) المصدر السابق .

(٢) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج ٣، ص ٣٨٨.

الخسارة الدائمة المضاعفة، علىٰ أن بعض المفسرين رأىٰ أن كلمة ﴿أُلُوفٌ﴾ تدل علىٰ معنىً آخر يمكن نظمه ضمن مشاهد الآية، فهي جمع (آلفٍ) كقعود جمع قاعد، ويرىٰ الرازي ﷺ أن المعنىٰ علىٰ هذا أن يكون أحدهم آلِفًا لِحَيَاتِهِ، مُحِبًّا لدنياه، إلا أنك تلمس هذا المعنىٰ بوضوح في قول ربنا جل ذكره ﴿ مِن دِيَـٰرِهِمۡ ﴾؛ إذ توحي لك هذه العبارة أنهم كانوا مقيدين بأغلال المحبة والولاء لديارهم التي نشأوا فيها، فما بالهم تركوا ديارهم لغيرهم؟.. لقد اثَّاقلوا إلىٰ الأرض، وآثروا عدم مواجهة عدوهم، حالهم كحال من قال الله ﷻ فيه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] فلما تخلوا عن تبعات الحياة الكريمة سلط عليهم ما كانوا يخافون من الموت[1].

ولكن ما سبب خروجهم من ديارهم التي ألفوها؟

ولماذا سلط الله ﷻ عليهم الموت؟

يميل الزمخشري ﷺ في تفسير خروجهم من ديارهم إلىٰ أنه بسبب هربهم من المواجهة، وليس خوفًا من طاعونٍ لم يرد له ذكر في سياق.

ويعضد ذلك بالسياق القرآني المبين، فيقول: "فإن قلت: ما معنىٰ قوله ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾؟ قلت: معناه فأماتهم، وإنما جيء به علىٰ هذه العبارة للدلالة علىٰ أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر اللَّه ومشيئته، وتلك ميتة خارجة عن العادة، كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالًا من غير إباء ولا توقف، كقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]وهذا تشجيع للمسلمين علىٰ الجهاد

(١) جعل الزمخشري ﷺ هذا المعنى من بدع التفاسير. وأنا أميل إلى أن هذا المعنى بعيد في الآية، وأنه يكفي فهمه من كلمة ﴿دِيَـٰرِهِمۡ﴾ فإن المرء يرتبط بحبال وثيقة من الإلف والمحبة لداره، لكنني أوردته لاحتماله الضعيف، مع عدم ما يكدر عليه. انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ١، ص٢٩٠.

والتعرض للشهادة، وأنَّ الموت إذا لم يكن منه بدٌّ ولم ينفع منه مفر، فأولىٰ أن يكون في سبيل اللَّه ﷻ"[١].

قبل أن نكمل كلام الزمخشري ﵀ نتذكر هنا قول عبد الله بن رواحة الأنصاري:

يا نفسُ إنْ لَمْ تُقْتَلِي تموتي
إن تَسْلَمِي اليومَ فلا تَفُوتِي
أو تُبْتَلِي فطالما عُوفِيتِ
هذي حِياضُ الموتِ قَدْ صَلِيتِ
وما تَمَنَّيتِ فَقَدْ لقيتِ
إنْ تَفْعَلِي فِعْلَهما هُدِيتِ
وَإِنْ تَوَلَّيتِ فَقَدْ شَقِيتِ[٢]

كلام الزمخشري في محله، والدليل علىٰ أنه ساق هذه القصة بعثًا علىٰ الجهاد: ما أتبعه من الأمر بالقتال في سبيل اللَّه ﷻ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ما يقوله المتخلفون والسابقون ﴿عَلِيمٌ﴾بما يضمرونه وهو من وراء الجزاء[٣].

وأورد الرازي ﵀ روايةً جامعةً بين الأمرين أَنَّ حِزْقِيلَ النَّبِيَّ ﵇ ندب قومه إلىٰ الجهاد فكرهوا وجبنوا، فأرسل الله ﷻ عليهم الموت، فلما كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، ثم أفنىٰ الموت عامتهم[٤]، ورأيت في سفر حزقيل من (الكتاب المقدس) ما يؤيد هذا.

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٢٩٠.

(٢) «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٣/ ٢٢٧).

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٢٩٠.

(٤) الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٤٩٦.

ففي الإصحاح الخامس:

٨: لذلك هكذا قال السيد الرب: ها إني أنا أيضًا عليك، وسأجري في وسطك أحكامًا أمام عيون الأمم.

٩: وأفعل بك ما لم أفعل، وما لن أفعل مثله بعد، بسبب كل أرجاسك.

١٠: لأجل ذلك تأكل الآباء الأبناء في وسطك، والأبناء يأكلون آباءهم. وأجري فيك أحكامًا، وأذري بقيتك كلها في كل ريحٍ.

١١: من أجل ذلك حيٌّ أنا، يقول السيد الرب، من أجل أنك قد نجست مقدسي بكل مكرهاتك وبكل أرجاسك، فأنا أيضًا أجز ولا تشفق عيني، وأنا أيضًا لا أعفو.

١٥: فتكونين عارًا ولعنةً وتأديبًا ودهشًا للأمم التي حواليك، إذا أجريت فيك أحكامًا بغضبٍ وبسخطٍ وبتوبيخاتٍ حاميةٍ. أنا الرب تكلمت.

١٦: إذا أرسلت عليهم سهام الجوع الشريرة التي تكون للخراب التي أرسلها لخرابكم، وأزيد الجوع عليكم، وأكسر لكم قوام الخبز،

١٧: وإذا أرسلت عليكم الجوع والوحوش الرديئة فتثكلك، ويعبر فيك الوبأ والدم، وأجلب عليك سيفًا. أنا الرب تكلمت».

وفي الإصحاح السادس:

١: وكان إلي كلام الرب قائلًا:

٢: يا ابن آدم، اجعل وجهك نحو جبال إسرائيل وتنبأ عليها

٣: وقل: يا جبال إسرائيل، اسمعي كلمة السيد الرب. هكذا قال السيد الرب للجبال وللآكام، للأودية وللأوطئة: ها أنذا أنا جالبٌ عليكم سيفًا، وأبيد مرتفعاتكم.

٤: فتخرب مذابحكم، وتتكسر شمساتكم، وأطرح قتلاكم قدام أصنامكم.

٩: والناجون منكم يذكرونني بين الأمم الذين يسبون إليهم، إذا كسرت قلبهم الزاني الذي حاد عني، وعيونهم الزانية وراء أصنامهم، ومقتوا أنفسهم لأجل الشرور التي فعلوها في كل رجاساتهم.

١٠: ويعلمون أني أنا الرب، لم أقل باطلًا إني أفعل بهم هذا الشر.

ثم تجد في هذا السفر (سفر حزقيل) ما يدل علىٰ إعادة الإحياء لنبي إسرائيل مجددًا، **ففي الإصحاح السادس والثلاثين:**

١: كانت علي يد الرب، فأخرجني بروح الرب وأنزلني في وسط البقعة وهي ملآنةٌ عظامًا.

٢: وأمرني عليها من حولها وإذا هي كثيرةٌ جدًا علىٰ وجه البقعة، وإذا هي يابسةٌ جدًا.

٣: فقال لي: «يا ابن آدم، أتحيا هذه العظام؟» فقلت: «يا سيد الرب أنت تعلم».

٤: فقال لي: «تنبأ علىٰ هذه العظام وقل لها: أيتها العظام اليابسة، اسمعي كلمة الرب:

٥: هكذا قال السيد الرب لهذه العظام: ها أنا ذا أدخل فيكم روحًا فتحيون.

٦: وأضع عليكم عصبًا وأكسيكم لحمًا وأبسط عليكم جلدًا وأجعل فيكم روحًا، فتحيون وتعلمون أني أنا الرب».

٧: فتنبأت كما أمرت. وبينما أنا أتنبأ كان صوتٌ، وإذا رعشٌ، فتقاربت العظام كل عظمٍ إلىٰ عظمه.

٨: ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها، وبسط الجلد عليها من فوق، وليس فيها روحٌ.

٩: فقال لي: «تنبأ للروح، تنبأ يا ابن آدم، وقل للروح: هكذا قال السيد الرب: هلم يا روح من الرياح الأربع وهب علىٰ هؤلاء القتلىٰ ليحيوا».

١٠: فتنبأت كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا علىٰ أقدامهم جيشٌ عظيمٌ جدًا جدًا.

١٣: فتعلمون أني أنا الرب عند فتحي قبوركم وإصعادي إياكم من قبوركم يا شعبي[١].

فهذه النصوص بمجموعها –كما– ترىٰ تدل علىٰ ترك بني إسرائيل أوامر الله ﷻ حتىٰ سلط عليهم الآفات، والأعداء في الوقت ذاته، وأوردناها هنا لارتباطها بمعنىٰ الرواية الجامعة القائلة بفرارهم من الموت (الوباء والأعداء)،كما يعلمك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَحۡيَيۡنَٰهُمۡ﴾ بأن الإحياء كان بعد زمنٍ ربما حدث فيه نوع تغيرٍ في الأحوال التي كانوا يعيشونها، ليشهدوا تداول الأيام وتغير ظروف الحياة، وعندها تشعرون بأن الدهر بيد ربكم ويخضع لمشيئته وقدرته، فتتوكلون عليه فيما يأمركم به بدلًا من النكوص عنه، والمسارعة إلىٰ البقاء الذي صار هلاكًا.

الإماتة والإحياء في أجساد الأحياء: موت الأمم وحياتها في لغة القرآن:

يرىٰ الأستاذ محمد عبده ﷺ أن الله ﷻ يعرض لنا سنته النافذة في هذا المشهد.. إنها السنة التي يمكننا تلخيصها بأنها الإماتة والإحياء في أجساد الأحياء: (انتصار الأمة وتمكنها من أمرها هو حياتها، وانهزامها وتسلط العدو عليها هو موتها) فترىٰ أممًا ميتة لأنها لم تُقِم سنن الحياة بل اتبعت سنن الموت مع بقاء أجسادها علىٰ قيد الحياة، إنها حياة كالموت، وموت كالحياة حيث الذل ضارب أطنابه علىٰ تلك الأمة

(١) وقد أورد نص هذا الإصحاح البقاعي، ولكنك ترى بعض الفروق البينة في الترجمة، ومن ذلك نداء الله بـ: سيد الرب، وفي البقاعي: رب الأرباب.

ترىٰ إهاناتها تجتمع عليها ليل نهار.. فموتة هؤلاء إنما كانت بانهزامهم وإدراك عدوهم لهم حيث «خرجوا فارين ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] أي: أماتهم بإمكان العدو منهم، فالأمر أمر التكوين لا أمر التشريع؛ أي: قضت سنته في خلقه بأن يموتوا بما أتوه من سبب الموت، وهو تمكين العدو المحارب من أقفائهم بالفرار، ففتك بهم وقتل أكثرهم، ولم يصرح بأنهم، ماتوا؛ لأن أمر التكوين عبارة عن مشيئته سبحانه فلا يمكن تخلفه، وللاستغناء عن التصريح بقوله بعد ذلك: ﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ وإنما يكون الإحياء بعد الموت، والكلام في القوم لا في أفراد لهم خصوصية؛ لأن المراد بيان سنته تعالىٰ في الأمم التي تجبن فلا تدافع العادين عليها، ومعنىٰ حياة الأمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف، فمعنىٰ موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنىٰ قوَّتهم، وأزال استقلال أمتهم، حتىٰ صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكل من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم.. ذلك أن من رحمة الله تعالىٰ في البلاء يصيب الناس، أنه يكون تأديبًا لهم، ومطهرًا لنفوسهم مما عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة، أَشْعَر الله ﷻ أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتىٰ عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلىٰ أن خرجوا من ذل العبودية التي كانوا فيها إلىٰ عز الاستقلال، فهذا معنىٰ حياة الأمم وموتها..

أقول: وإطلاق الحياة علىٰ الحالة المعنوية الشريفة في الأشخاص والأمم، والموت علىٰ مقابلها معهود كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٢٤]»[1].

وهذا المعنىٰ الذي يدور حوله كلام مفسري (المنار) رحمهما الله فانتقل إلىٰ

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ج ٢، ص ٣٦٢.

الطاهر بن عاشور رحمه الله لتجد أنه بين أن قوله جل جلاله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣] يحتمل ثلاثة احتمالاتٍ، فهو:

«إما مجاز في التكوين والموت حقيقة أي جعل فيهم حالة الموت، وهي وقوف القلب وذهاب الإدراك والإحساس، استعيرت حالة تلقي المكون لأثر الإرادة بتلقي المأمور للأمر، فأطلق علىٰ الحالة المشبهة المركب الدال علىٰ الحالة المشبه بها علىٰ طريقة التمثيل، ثم أحياهم بزوال ذلك العارض فعلموا أنهم أصيبوا بما لو دام لكان موتًا مستمرًا، وقد يكون هذا من الأدواء النادرة المشبهة داء السكت.

وإما أن يكون القول مجازًا عن الإنذار بالموت، والموت حقيقة، أي أراهم الله عز وجل مهالك شموا منها رائحة الموت، ثم فرج الله جل جلاله عنهم فأحياهم. وإما أن يكون كلامًا حقيقيًا بوحي الله سبحانه وتعالى لبعض الأنبياء عليهم السلام، والموت موت مجازي، وهو أمر للتحقير شتمًا لهم، ورماهم بالذل والصغار، ثم أحياهم، وثبت فيهم روح الشجاعة.

والمقصود من هذا موعظة المسلمين بترك الجبن، وأن الخوف من الموت لا يدفع الموت، فهؤلاء الذين ضرب بهم هذا المثل خرجوا من ديارهم خائفين من الموت، فلم يغن خوفهم عنهم شيئًا، وأراهم الله عز وجل الموت ثم أحياهم، ليصير خلق الشجاعة لهم حاصلًا بإدراك الحس. ومحل العبرة من القصة هو أنهم ذاقوا الموت الذي فروا منه، ليعلموا أن الفرار لا يغني عنهم شيئًا، وأنهم ذاقوا الحياة بعد الموت، ليعلموا أن الموت والحياة بيد الله عز وجل، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]»[1].

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٤٨٠.

القرآن يبني كرامة الإنسان:

التربية علىٰ مواجهة الأزمات وليس الانسحاب منها تتآزر علىٰ غرسها في القلوب وتعزيزها في النفوس أوجه متعددة في القرآن المجيد.. فاتل قوله تعالىٰ الذي ينفر من صفات المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران : ١٦٨]، وتأمل الموعظة في قوله جل جلاله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨]، وخَالِد بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه أحد القادة العالميين الذين استطاعوا تغيير التاريخ يقول علىٰ فراشه: «لَقَدْ شَهِدْتُ كَذَا وَكَذَا مَوْقِفًا وَمَا مِنْ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي إِلَّا وَفِيهِ رَمْيَةٌ أَوْ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ وَهَا أَنَا ذَا أَمُوتُ عَلَىٰ فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعِيرُ!! فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ»[(١)].

وفي غزوة مؤتة نرىٰ قوة الاستعداد للمواجهة وهوان الدنيا في أعين الصحابة الكرام فهذا القائد العظيم عبد الله بن رواحة رضي الله عنه، ينادي مستحثًا همم التحدي والاستعداد لخوض غمار المعركة ونيل الشهادة:

لكنني أسألُ الرحمنَ مغفرةً وضربةً ذاتَ فرغٍ تقذفُ الزَبَدَا
أو طعنةً بيدي حرَّانَ مجهزةً بحربةٍ تنفذُ الأحشاءَ والكبِدَا
حتىٰ يقالَ إذا مرُّوا علىٰ جَدَثي يا أرشدَ الله مِنْ غازٍ وقَدْ رَشَدَا[(٢)]

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٢٩.

(٢) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، ج٣، ص٣٧.

السُّنَّة الثانية

استمداد القدرة على مواجهة الأهوال المختلفة من الله ﷻ سواء في مجال التخطيط أوفي مجال البحث عن أدواتٍ مبتكرة، فهو الذي يُنتج السكينة والقرارات المناسبة

ويُبَصِّرُنا بذلك قول ربنا ﷻ إثر ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣]:

فالفضل هنا هو الزيادة علىٰ أصل النعمة، والله ﷻ هو المتفضل علىٰ الناس.. أفلا يستمد منه ذلك الفضل لتُزفَّ للمستضعفين في الأرض البشرىٰ التي يحبونها: نصر من الله وفتح قريب؟.

ويدخل في الفضل المراد هنا:

أولًا: التفضل بهذه المعرفة العلمية العظيمة التي توجه للجاهلين بها ليعلموها ويتعلموا منها، وتوجه للعارفين بها ليزدادوا إيمانًا ويقينًا.

ثانيًا: التفضل بتشريع المقاومة حال التعرض للاعتداء، والجهاد لنصرة العباد ورد اعتداء المعتدين.

ثالثًا: التفضل بتشريع بذل الجهد لإدارة الأدوات المتاحة للخروج من متاهات هذه المحن، والبركة التي تنزل حال السعي للخروج من الفتنة ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

رابعًا: فضل الله ﷻ بتشريع الأحكام التي تدفع النكبات والنقم.

خامسًا: بذل الأسباب الشرعية لتكون عونًا علىٰ مواجهة الحياة، ومنها الدعاء الذي بين النبي ﷺ أنه السنة الوحيدة التي تغالب القدر النازل فقال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر»[١]، وأخذ ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله ﷻ يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر»[٢].

سادسًا: الهداية لفهم الآية والتوفيق للامتثال، فمن رأىٰ هذه الآية المعجزة فلم يفهم ولا امتثل فقد أعرض عن فضل الله ﷻ وكان من جملة الجاهلين الجاحدين.

سابعًا: يدخل في فضل الله ﷻ علىٰ الناس –عند الأستاذ محمد رشيد رضا– سنن الإحياء الحضاري والإماتة العمرانية في المجتمعات، فيدخل في ذلك ما جُعِلَ فِي مَوْتِ الناس مِنَ الْحَيَاةِ، إذ جعل المصائب والعظائم محييةً للهمم والعزائم، كما جعل الهلع والجبن وغيرهما من الأخلاق التي أفسدها الترف والسرف من أسباب ضعف الأمم، وجعل ضعف أمة مغريًا لأمة قوية بالوثبان عليها، والاعتداء علىٰ استقلالها، وجعل الاعتداء منبهًا للقوىٰ الكامنة في المعتدىٰ عليه، وملجئًا له إلىٰ استعمال مواهب الله ﷻ فيما وهبت لأجله حتىٰ تحيا الأمم حياة عزيزة، ويظهر فضل الله تعالىٰ فيها.

فإن الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وإنَّ الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة الملية المحفوظة من عدوان المعتدين، فلا تقصروا في حماية جامعتكم في الملة والدين[٣].

---

(١) الترمذي، ج ٤، ص ٤٤٨، برقم ٢١٣٩، وقال: حسن غريب، وحسنه الألباني.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم، ج ٢، ص ٣٨٠، برقم ٣٣٣٣.

(٣) رضا، محمد، المنار، ج ٢، ص ٣٦٢. بتصرف.

يقول علي رضي الله عنه:

أيُّ يوميَّ من الموتِ أفِرْ؟ يومُ لا يُقْدرُ؟ أوْ يومٌ قُدِرْ؟
يومُ لا يُقْدَرُ لا أحذره ومنَ المقدورِ لا ينجو الحَذَر[1]

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٣، ص ٢١٦.

السُّنَّة الثالثة

إظهار الشكر لقيد الموجود من النعم، وصيد المفقود من الفتوح

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ جده: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣].

والشُّكر-عند الخليل رحمه الله -:«عرفان الإحسان ونشره، وحمد موليه»[(١)]، ويا له من تعريفٍ جامع لأركان الشكر الثلاثة فالشكر: إظهار لحقيقة الإحسان: الإحسان الإلهي للناس؛ إذ خلقهم، وأنزل عليهم الكتاب والحكمة، فالإظهار لهذا الإحسان شكر، والستر له كفر، والشكر بالنسبة للنعم قيدٌ للموجود، وصيد للمفقود، فهو يثبت النعمة الموجودة، ويجلب النعمة المفقودة، ولذا يقال لما يسمن من الدواب بالعلف اليسير الشَّكور، لأنه أظهر شبعه فيما تناول في باطنه، والشَّكِرةُ من الحلوبات التي تصيب حظًا من بقل أو مرعىٰ، فتغزر عليه بعد قلة اللبن، فإذا نزل القوم منزلًا وأصاب نعمهم شيئًا من بقل فدرَّت قيل: أَشْكَرَ، ويقال: شكرته وشكرت له، فمراتب الشكر:

الرضا باليسير؛ لأنه يشعر بتلك النعمة، ولذا يقولون: فرس شكور، إذا كفاه لسمنه العلف القليل. وينشدون قول الأعشىٰ[(٢)]:

ولا بدَّ منْ غزوةٍ في المصيـ فِ رهب تُكِلُّ الوَقاح الشكورَا

والوقاح ذات الحافر الصلب، والشكور التي تقتنع بالأكل اليسير لأنها تكون أسرع.

---

(١) كتاب العين، ج ٥، ص ٢٩٢.

(٢) ينظر: ابن منظور، لسان العرب،ج ١ ص ٤٣٨، يعقوب، إميل بديع، المعجم المفصل في شواهد العربية، ج ٣، ص ١٥٦.

ثم تأتي المرتبة الثانية للشكر بعد الاقتناع باليسير، وهو الأصل الثاني عند ابن فارس: إنه الامتلاء والغزر في الشيء، يقال حلوبة شَكِرَة إذا أصابت حظًّا من مرعىٰ فغزرت، والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب، وهو تصور النعمة، وشكر اللسان، وهو الثناء علىٰ المنعم، وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدرها، ولا يمكن ذلك، ولكن الله ﷻ يقبل اليسير ويجزي بالجزيل الكثير.

فالشكر ظهور أثر النعمة الدنيوية وبهاء النعمة الدينية، والشكر التزين المفتخر بالانتماء للدين الذي يشكل رحمةً للعالمين، وهو بذا سنة بقاء النعمة الحاضرة، واقتناص النعم المستقبلة المنتظرة.

لقد أفَل الشكر الحقيقي هذه الأيام عند كثيرٍ من المؤمنين! وإن جرىٰ لفظ الشكر علىٰ الألسنة أحيانًا فإنما هو - في الغالب - من قبيل العبارات المعتادة المكرورة التي لا يسندها حظٌّ من امتنان في الباطن لله المنعم المتكرم، ولا رصيدٌ وافرٌ من يقين بتفضله وإحسانه سبحانه وتعالىٰ يستوجب امتلاء القلب بحمده وشكره.

أفَل الشكر الحقيقي، واكتفىٰ أصحاب الشكر الصوري بالعبادات الشعائرية، دون حرارة قلب، ولا ظهور عمل في الحياة، فلم يتواصوا بالصبر، ولا تواصوا بالمرحمة، وصار أنين المستضعفين يزداد حدة حتىٰ يتلاشىٰ ويفنىٰ ويموت، فلا يتحرك ضمير، ولا تدمع عين، ولا يرجف جسد.. تهاوت المبادئ تحت مطارق الابتذال للانتماء الديني، وأوهام القدرات السياسية الخارقة.. يا حسرة علىٰ العباد! لم تزد أوهام "الوعي السياسي المنتفخ" المتسيسين وأتباعهم إلا خسارًا للمعارك الطاحنة علىٰ الأرض!.

السُّنَّة الرابعة

إعلام المعتدين المستكبرين بأن الخيارات مفتوحة لمقاومتهم، ومن ذلك استخدام القوة الدافعة في مواجهة القوة الغادرة

ويُبَصِّرُنا بهذا قوله ﷻ بعد ذلك: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٤].

إنك لترىٰ تَنَاسُبًا محكمًا وَارْتِبَاطًا عظيمًا بين هذه الآية وما قبلها، فإن الآية الأولىٰ مبينة لفائدة القتال في الدفاع عن الحق أو الحقيقة، والثانية آمرة به بعد تقرير حكمته وبيان وجه الحاجة إليه، فالارتباط بينهما شديد الأواخي، لا يعتريه التراخي [(١)].

السياق القرآني ينير الأفهام ويوضح المرام:

ومن أوائل من أعمل السياق هنا شيخ المفسرين الطبري ﷺ فهو يرىٰ أن هذه الآية تجرم الفرار عند الزحف، والجبن في المواجهة، فيقول عن قتال المعتدين في بيانٍ جذاب: " ولا تحتموا عن قتالهم عند لقائهم، ولا تجبنوا عن حربهم، فإن بيدي حياتكم وموتكم، ولا يمنعن أحدكم من لقائهم وقتالهم حذر الموت وخوف المنية علىٰ نفسه بقتالهم، فيدعوه ذلك إلىٰ التعريد عنهم والفرار منهم، فتذلوا، ويأتيكم الموت الذي خفتموه في مأمنكم الذي وألتم إليه، كما أتىٰ الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، الذين قصصت عليكم قصتهم، فلم ينجهم فرارهم منه من نزوله

(١) رضا، المنار، ج ٢، ص ٣٦٢.

بهم حين جاءهم أمري، وحل بهم قضائي، ولا ضر المتخلفين وراءهم ما كانوا لم يحذروه، إذ دافعت عنهم مناياهم، وصرفتها عن حوبائهم، فقاتلوا في سبيل الله من أمرتكم بقتاله من أعدائي وأعداء ديني، فإن من حيي منكم فأنا أحييه، ومن قتل منكم فبقضائي كان قتله"[١]، وتتابع المفسرون علىٰ ذكر هذا الاتصال لولا أن أثار طول روايات الطاعون الغبار علىٰ هذا الفهم، ومن آخر من نص علىٰ هذا الاتصال الطاهر بن عاشور ﷺ إذ قال: "وَجُمْلَةُ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ هِيَ الْمَقْصُودُ الْأَوَّلُ، فَإِنَّ مَا قَبْلَهَا تَمْهِيدٌ لَهَا"[٢].

وبذا ترىٰ الطبري والزمخشري وجملة من المفسرين بعدهم يرون هذه الآية أساسًا في فهم الآية السابقة..

وأيم الله لهي أشد وطئًا وأقوم قيلًا في بيان أن ما سبق كان كلامًا عن قومٍ جبنوا عن ملاقاة عدوهم فحدث لهم الموت الحقيقي إما بفتك عدوهم بهم، وإما بالموت المجازي الذي تهيمن فيه حياة الذل، وإما بأمر خارقٍ للعادة من ربهم، وإما بما يشبه الموت كالسكتة القلبية، ثم أحياهم الله حياة جسدية، أو حياة حقيقية بأن عرفوا أسباب النصر والهزيمة، والحياة الكريمة والحياة الذليلة، فأعملوا تلك السنن.

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٢٨٠، وانظر: الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٢٩٠. والتعريد: الفرار وسرعة الذهاب في الهزيمة. يقال: "عرد الرجل عن قوله"، إذا أحجم عنه ونكل وفر، والحوباء: النفس، أو ورع القلب.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٤٨٠.

السُّنَّة الخامسة

وضوح المنهج يقي عثرات الطريق، فيجب تحديد مفهوم القتال في سبيل الله بصورة دقيقة حتى لا يتلاعب بمفهومه الرباني الإنساني الغلاةُ والجفاةُ والطغاة والقساة

إن "تشريع الجهاد في الإسلام أمر استثنائي، أو اضطراري لرد العدوان، وحماية المصالح الإسلامية لقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]"[(١)].

فالله ﷻ أمر بالقتال في سبيله بعد ذكر هؤلاء القوم المنهزمين فقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٤]، والواو هنا تعبر عن عطف الكلام علىٰ شيء سبقه، فالتقدير عند البقاعي رحمه الله: "فلا تفروا من أسباب الموت بل اثبتوا في مواطن البأساء ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾"[(٢)].

انظر إلىٰ نبل الغاية.. تأمل شرف الهدف.. فلتحلق مع عظمة المقصد.. لكن ذلك كله قد ينصب شَرَكًا عظيمًا يسبب المزيد من الآلام والتيه عند عدم الانتباه إلىٰ جهل أبنائه ومكر أعدائه، ولذا لا بد من أن يكون مفهوم (القتال في سبيل الله) واضحًا بينًا؛ فيجب بيان مساحة هذا المفهوم ومعناه في خضم البحث عن صناعة السلام في العالم الذي لا يمكن أن يتم دون وجود تكافؤ القوىٰ مما يحدث توازن الرعب بين

---

(١) الزحيلي، وهبة، العلاقات الدولية في الإسلام، ص ٢٥.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤٠٠.

قواه المختلفة، فيكف كل طرفٍ عن الآخر.

"فالمعاني الشرعية للجهاد تشترك في عنصر أساسي يجمع بينها وهو أن يكون الجهاد في طاعة الله ﷻ وفي سبيل الله أي في حدود الشرع وفي نطاق مقاصده وبعد ذلك تتعدد أنواع الجهاد بتنوع مقاصده ومجالاته"(١).

"إن النظرة الإسلامية نظرة ربانية محيطها "العالم" وموضوعها الإنسان. فليس همه أن يشتري السلم الكاذبة مع دولة من الدول بأن يدع هذه الدولة تقيم لرعاياها أربابًا من دون الله يدَّعون حق الربوبية فيها وتحرمهم العدل القضائي والعدل الاجتماعي"(٢).

فالقتال في الدين الذي أمر الله ﷻ الأنبياء عليهم السلام باتباعه ليس هو الأصل في العلاقات الدولية، ولكن قد توجبه وتقتضيه بعض الظروف، كما عبر بعضهم عن هذه الحقيقة بقوله: "الأمة ينبغي أن تحب السلام، لكنها يجب أن تكون دومًا علىٰ أهبة الاستعداد للقتال"(٣).

.. ولأن الآيات التي نحن بصددها في شأن الأمة الإسرائيلية فإن مما يستوقف الناظر أن التوراة الحالية تميل بشدة إلىٰ جعل القتال أصلًا في علاقة أتباعها بغيرهم، لكنني أحسب أن ذلك من التحريف الطارئ علىٰ كلمات الله ﷻ في التوراة،

أما في الإسلام فالقتال ليس هو الأصل في حل المشكلات، ولا في إقامة العلاقات الدولية، بل هو حلٌّ طارئ يواجه به الظلم، ويقابل به البغي.

---

(١) الريسوني، أحمد، مراجعات ومدافعات، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٣م، ط٢،، ص ٤٠.

(٢) قطب، سيد، السلام العالمي والإسلام، دار الشروق القاهرة، ط١٤، ص ١٥٥.

(٣) ديوانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، ج ٣، ص ١٣٠.

ومن وقتٍ مبكرٍ في مكة ينزل الله ﷻ علىٰ عباده المستضعفين ليخاطبوا المستكبرين بما هو مقرر في فطرة المخلوقين حتىٰ الحيوانات ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٩]، فانظر كيف جمع الله ﷻ لهم بين الانتصار إذا أصابهم البغي، وبين المغفرة إذا ما استثارهم السفهاء حتىٰ حركهم الغضب؛ فإذا هم يتجاوزونه إلىٰ التخلق بالحِلْم اللائق المستوعب لطباع الناس، فقال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورىٰ: ٣٧]، وهذه الآيات من سورة الشورىٰ جديرة بالإفراد ضمن سنن التعامل في مرحلة الاستضعاف.

فهو ليس حبًّا في القتل، بل القتال في سبيل الله ﷻ هو القتال الذي يكون في الطريق الذي شرعه الله ﷻ، وبذا نفهم من هذه العبارة أن الأصل أن القتال ممنوع، إلا أن يكون في طريق شرعه الله ﷻ.

"ليس الجهاد طريقًا لنشر الإسلام بالقوة أو تبليغها بالسيف، وإنما هو وسيلة لرد الاعتداء ودفع الظلم وحماية المستضعفين ورد العدوان عن الدعاة إلىٰ الله ونحو ذلك مما تقتضيه المصلحة بتقدير الحاكم"[(١)].

الأهداف النبيلة للقتال المشروع:

فإذا قرأت القرآن المجيد وجدت التحديد الدقيق للقتال الذي يكون في سبيل الله؛ إذ له خمسة أهداف:

فالهدف الأول: حماية الديار والأبناء، كما قال تعالىٰ ذكره في قصة بني إسرائيل: ﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

"فهؤلاء الرعايا الذين تحكمهم تلك الدولة الظالمة أيًّا كان دينها وأيًّا كان شكلها

(١) وهبة الزحيلي، العلاقات الدولية في الإسلام، ص ٢٦.

هن ناس من البشر، والأمة المسلمة مكلفة أن ترفع عنهم الظلم وتمتعهم بالعدل، ومن ثم ينصرف الجهاد إلىٰ تحقيق الثورة العالمية لا إلىٰ الحكم والسيطرة والغنم، وبهذه الثورة يحقق السلام بكل صنوفه سلام الضمير، وسلام البيت، وسلام المجتمع، ثم سلام الإنسانية في النهاية سلامها في ظلال العدل الشامل الذي يناله الإنسان لمجرد أنه إنسان لأنه من حقه كإنسان﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]،﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وهذه الخطوط تصور طبيعة السلام العالمي في الإسلام"[(١)].

والهدف الثاني: إزالة الفتنة وحماية الكرامة الإنسانية أن تهان، وحماية حق الإنسان في الاختيار، وإنقاذ المستضعفين سواء أكانوا مسلمين أم كفارًا.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: ٧٥]:

ويدخل ضمن معاني الفتنة: التعذيب الذي يؤدي إلىٰ اختيار عقيدة محددة نتيجة للقهر والضغط الشديد، فبعض المفسرين فسروا كلمة (فتنة) بأنه الشرك، وهذا تفسيرٌ بالنتيجة التي تنتج عن التعذيب،

فالتعذيب الموجه للشعوب المستضعفة يجبرهم علىٰ اعتناق عقيدة محددة، وهنا لا بد من الحرب الهجومية الوقائية لإزالة قلاع الظلم، ودكِّ معاقلِ التعذيب والإجرام التي تسوم المستضْعَفين سوء العذاب،

---

(١) سيد قطب، السلام العالمي والإسلام ص ١٥٥.

وبذلك يتحقق أن يكون الدين لله ﷻ، ما معنىٰ ذلك؟ معناه أن يكون الدين بين الإنسان وربه، فلا يُكره أحدٌ علىٰ أن يدخل في هذا الدين أو ذاك، فلا يكره علىٰ الشرك كما لا يكره علىٰ الإيمان، فيختار المرء بينه وبين ربه الدين الذي يعتقده صوابًا، ويُبَصِّرُنا بهذا الهدف قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣٩ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩، ٤٠].

الهدف الثالث: رد الاعتداء، وردع قوىٰ البغي والعدوان، ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج ٣٩]، وذكر الله ﷻ في سورة البقرة ذلك في قوله ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٠]. ولا يجوز الاعتداء عليهم بغير وجه حق، لذلك قال بعدها مباشرة: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

الهدف الرابع: القتال الرادع ضد الأهداف المظنون فيها الاعتداء، وهي التي تسميها الدول المعاصرة اليوم: (الحرب الوقائية، أو حرب الردع)، إلا أن للمعارك العسكرية آدابها العظيمة في المنظور الإسلامي، وبصرنا الله بهذا الهدف في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

الهدف الخامس: الدفاع عن حقوق الإنسان التي عبر عنها بأداء الأمانات إلىٰ أهلها، حيث تنال الأسرة الصغيرة والكبيرة في المجتمع حقوقها، والدفاع عن الحكم بالعدل، "فحيثما كان علىٰ وجه الأرض ظلم فالأمة المسلمة مكلفة أن تكافحه وتزيل أسبابه، لا لتملك الأرض وتستذل الرقاب بل لتحقق كلمة الله في الأرض خالصة من كل غرض وتفرض ربوبية الله وحاكميته وعدله. وهذا هو ما يطلق عليه في الإسلام "الجهاد في سبيل الله"، أي الجهاد لتحقيق ربوبية الله ﷻ للعباد لتكون كلمة الله ﷻ

العليا، لا بإكراه الناس ليكونوا مسلمين، بل بإتاحة الفرصة لهم، ليخلصوا من ربوبية الطواغيت، ويملكوا حرية الاختيار دون تدخل من القوة الطاغية الضالة ويستمتعوا بالعدل المطلق الذي يريده لهم الله ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦] وذلك مفرق الطريق بين الجهاد في سبيل الله ﷻ والجهاد في سبيل الشهوات"[1].

وبصَّرنا بهذا أن الله أمر بأخذ الحذر بعد أن قرر جميع المبادئ الفاضلة في سورة النساء، وبين الخطر الذي يتهدد هذا الرشد في إدارة الأمور الإنسانية عندما ذكر لنا التحاكم إلىٰ الطاغوت، ثم قال بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ – إلىٰ أن قال جل مجده- ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [النساء: ٧١ - ٧٤].

فالإسلام لا يعرف حربًا عسكريةً للغنيمة، ولا للسرقة، ولا للسيطرة علىٰ خيرات الآخرين، ولا لبناء المجد الشخصي، ولا لطموحات الاستعلاء في الأرض، ولا لتمجيد جنس علىٰ جنسٍ.. بل إن من أهم أهداف الحل العسكري –عند تحتمه– تمكين البشر من نيل حقوقهم الفردية، والمادية بعدالة وإنصاف؛ ولذا يجب أن ينصر المسلمون المستضعفين في الأرض، ولو كانوا كفارًا.. إن الحل العسكري إنما يُلجأ إليه لتمكين البشرية من التمتع بخيرات الاستقامة علىٰ الشريعة الإسلامية.. الشريعة التي تكفل لكل ذي حقٍّ حقَّه، حتىٰ لو كان كافرًا، بل حتىٰ لو لم يكن إنسانًا بأن كان حيوانًا أو بيئة.. فمن أراد من المبطئين كفارةً عن أفعاله المخذلة، فكفارته الانضمام لمن يبذلون نفوسهم فدىً للأبناء والديار والمستضعفين في الأرض، وليحترس من الطعن علىٰ من قدم حياته دفاعًا عن الحق أمام الظلم والعدوان (والأيدي القذرة ذات القفازات النظيفة).

(١) سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، ص ١٥٣.

وضوح المنهج
يقي عثرات الطريق

الهدف الأول

حماية الديار والأبناء:

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: 246].

الهدف الثاني

إزالة الفتنة وحماية الكرامة الإنسانية أن تهان، وحماية حق الإنسان في الاختيار، وإنقاذ المستضعفين سواء أكانوا مسلمين أم كفارًا:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾ [النساء: 75].

الهدف الثالث

رد الاعتداء، وردع قوى البغي والعدوان:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ [البقرة: 190]

الهدف الرابع

القتال الرادع ضد الأهداف المظنون فيها الاعتداء (الحرب الوقائية):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [التوبة: 123]

الهدف الخامس

الدفاع عن حقوق الإنسان، وذلك مفرق الطريق بين الجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى والجهاد في سبيل الشهوات:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: 76] .

وختم الله ﷻ الآية فقال مخاطبًا لنا: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤] ليبين الرقابة الإلهية علىٰ الأفكار والتصورات ووضع الخطط والأعمال والحركات، فلا ينبغي أن تعتذروا أمام قومكم بأنكم قد بذلتم وسعكم في التفكير والتدبير، فلم تجدوا بدًّا من الفرار والانسحاب.. لا تقولوا ما باليد حيلة.. لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ، لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَعَدْنَا هَاهُنَا، "فهذه الألفاظ في هذا المقام مفتاح الجبن، وعلل الخوف والحزن، فهي عند أهلها تعلات وأعذار، وعند الله تعالىٰ ذنوب وأوزار، وما كان منها حقًّا في نفسه فهو من الحق الذي أريد به الباطل، وأن نعلم أنه عليم بما يأتيه مرضىٰ القلوب وضعفاء الإيمان من الحيل والمراوغة، والفرار من الاستعداد والمدافعة، فإذا علمنا هذا وحاسبنا به أنفسنا، عرفنا أن كلًا من المعتذر بلسانه والمتعلل بفعاله مخادع لربه ولنفسه وقومه... وقد أنذرنا الله تعالىٰ أن نكون مثلهم بتذكيرنا بأنه سميع عليم، لا يخادع ولا يخفىٰ عليه شيء. ونقول: إن هذا التذكير كان بالأمر بالعلم لا بمجرد القول أو التسليم، فمن علم علمًا صحيحًا أن الله سميع لما يقول عليم بما يفعل، حاسب نفسه وناقشها، ومن حاسب نفسه وناقشها تجلىٰ له كل آن من تقصيرها ما يحمله علىٰ التشمير لتدارك ما فات، والاستعداد لما هو آت، فمن تراه مشمرًا فاعلم أنه عالم، ومن تراه مقصرًا فاعلم بأنه مغرور آثم "[1].

(١) محمد رشيد رضا، المنار، ج ٢، ص ٣٦٢.

السُّنَّة السادسة

الاقتصاد الخدمي التعاوني القائم على الاقتصاد الإنتاجي أحد أهم أسس النجاح للخروج من حالة الاستضعاف والدعم المساعد (اللوجستي) يقيم أسس الخروج من الاستضعاف

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فجاءت هذه الآية مباشرة بعدما سبق لتثبيت المبدأ السابق في بث روح الحياة في الجبناء ليدفعوا عن أنفسهم بأيديهم، ولذا قال الشوكاني ﷺ مبينًا التناسب بين الآيات: "وقوله : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ لما أمر سبحانه بالقتال، والجهاد أمر بالإنفاق في ذلك"(١)، وقال البقاعي مبينًا التناسب بين الآيات: "ولما كانت النفقة التي هي من أعظم مقاصد السورة، أوثق دعائم الجهاد، وأقوىٰ مصدِّقٍ للإيمان، ومحقِّقٍ لمبايعة الملك الديان كرر الحث عليها علىٰ وجه أبلغ تشويقًا مما مضىٰ فقال علىٰ هيئة الممتحن للصادق ممن أمره وحذره وأنذره: ﴿مَّن ذَا ﴾منكم يا من كتب عليهم القتال والخروج عن الأنفس والأموال ﴿يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ "(٢).

مفهوم القرض الحسن:

القرض تسميةٌ مدهشةٌ للبذل الشخصي والمالي، فهو يدل بذاته علىٰ المضمون

---

(١) الشوكاني، ج ١، ص ٣٠٠.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤٠٢.

الذي ينبغي أن يقدمه المرء ليستحق الاتصاف به؛ وأول ما يفجؤك فيه أمران متقابلان:

الأول: أنه يكشف لك عن مقدار المعاناة التي ينبغي أن يصبر صاحبها عليها لينال مرتبة المقرض ربَّه عزَّ جارُه؛ إذ معنىٰ القرض القطع. يقال: قرضت الشيء بالمقراض.. لكأنك في مجاهدة نفسك تقطع الشيء من جسدك لتبذله لربك.

الثاني: يقابل ذلك الفوز الخاص الذي يجده المقرض مما لا يلمسه في عبادة أخرىٰ بسهولة، إذ تسمية الشيء قرضًا يدل علىٰ تأكيد عودته لصاحبه.. كيف لا والمقترض هو رب العالمين؟ ولكنه سيعود أضعافًا مضاعفة لا يعلم مقدارها إلا المقترض.. كيف لا؟ إن المقترض هو الله ﷻ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

كما أن القراض والمقارضة تعني المتاجرة والاستثمار، وكأن المقرِض قد قطع من ماله طائفةً وأعطاها مقارضه ليتجر فيها مع ضمان الفوز، وتأكيد الربح المضاعف.

وأصل القرض اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء، يقال : أقرض فلان فلانًا. أي: أعطاه ما يتجازاه. قال الشاعر:

وَإذا جوزِيتَ قرضًا فاجزْه...

وقال الزجاج رحمه الله: القرض في اللغة : البلاء الحسن، والبلاء السيء.

قال أمية :

كلُّ امرىء سَوفَ يُجْزَي قَرْضَه أو سيئًا ومدينًا مِثْل مَا دَانَا

وقال آخر :

فجازَىٰ القُرُوض بِأمثَالها فبالخَيْر خيرًا وبِالشر شرًّا[1]

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ٣٠٠.

فالْإِقْرَاضُ: فِعْلُ الْقَرْضِ، وَالْقَرْضُ: السَّلَفُ، وَهُوَ بَذْلُ شَيْءٍ لِيُرَدَّ مِثْلُهُ، وأَنْشَدَ الصَّاغَانِيُّ لِلَبِيدٍ، رَضِيَ الله عَنْه:

وَإِذا جُوزِيتَ قَرْضًا فاجْزِهِ إِنَّما يَجْزِي الفَتَىٰ لَيْسَ الجَمَلْ[١]

ومَعْنَاهُ إِذا أُسدِيَ إليكَ معروفٌ فكافِئْ عَلَيْهِ، فمعنىٰ قَوْله ﷻ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ البلاءُ الحَسَنُ. تقولُ العربُ: لكَ عندِي قَرْضٌ حسنٌ، وقَرْضٌ سيِّئٌ، فهُوَ فِي الْآيَة اسمٌ لكُلِّ مَا يُلْتَمَسُ عَلَيْهِ الجَزاءُ، وَقَالَ الأَخْفَشُ: قَوْله تَعَالَىٰ ﴿يُقْرِضُ﴾أَي يفعلُ فعلًا حَسَنًا فِي اتِّباعِ أَمرِ اللهِ ﷻ وطاعَتِه، والعربُ تقولُ لكلِّ من فعلَ إِلَيْه خيرًا: قَدْ أَحْسَنْتَ قَرْضِي، وَقَدْ أَقْرَضْتَني قَرْضًا حسنًا[٢].

ويدخل في إقراض اللَّه ﷻ: كلُّ عملٍ يطلب المرء به ثوابه، والمراد بالقرض الحسن في هذا السياق: إما المجاهدة في نفسها، وإما النفقة في سبيل اللَّه فتضاعف أَضْعافًا كَثِيرَةً قيل: الواحد بسبعمائة [٣]، لكنه اشتهر عرفًا في النفقة المالية، وأنت ترىٰ الله ﷻ يسمِّيٰ الإنفاق قرضًا؛ **لسببين مدهشين:**

أما الأول: فيوضح طبيعة النفس الإنسانية؛ إذ القرض أخذ لشيء من المال من صاحبه، ولكن النفوس مجبولة علىٰ حب المال، بل هي لحبه لشديدة، فصوَّر الله ﷻ قرض المال مع حبه بقطع شيءٍ من الجسد؛ إذ القرض يعني الجزّ من الشيء والقطع منه، والتعبير بذلك كافٍ في مجاهدة النفس ومقاومة أهوائها، والشعور بشدة النزع عند أخذ المال منها.

وأما السبب الثاني: في تسمية القرض قرضًا، لأن النفقة المالية التي يقوم بها

(١) العامري، لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد، ص ٩١.

(٢) ابن فارس، مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٧١، مرتضى الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ١٩، ص ١٧.

(٣) الزمخشري، الكشاف، ج ١، ص ٢٩٠.

المؤمن علىٰ مجتمعه إنما هي نقصٌ مؤقتٌ من ماله يوشك أن يسترده أضعافًا كثيرة، ووصف الله هذا القرض بالحسن.. لماذا؟

لأجل أن يشعر المرء فيه بلذة أدائه، ويتقن في ذلك الأداء، فيخلو من الشوائب المؤذية،كما قَالَ النَّابِغَةُ:

عليَّ لِعَمْرٍو نِعْمةٌ، بَعْدَ نِعْمة لوالِدِه، لَيْسَتْ بذاتِ عَقارِبِ[1]

القرض الحسن دعامة من دعائم الخروج من الاستضعاف، ومن أهم صوره:

يجدر بنا هنا أن نذكر بعضًا من صور الإقراض الحسن:

١) الإنفاق علىٰ التعليم والتطوير في كافة المجالات الحيوية.

٢) الإنفاق علىٰ الإعلام الهادف لمواجهة قوىٰ الكفر والنفاق.

٣) الإنفاق علىٰ المجاهدين والمرابطين.

٤) الإنفاق علىٰ أسر المرابطين والشهداء.

٥)الإنفاق علىٰ المؤسسات التعليمية والتربوية والفكرية.

وحتىٰ يستحق صفة الحسن يجب أن تتوفر فيه أربعُ صفاتٍ:

أولاها: أن يكون حلالًا، وثانيها: أن لا يُتْبِعَ ذلك الإنفاق منًّا ولا أذىٰ، وثالثها: أن يفعله علىٰ نية التقرب إلىٰ الله تعالىٰ، لا رياء وسمعة، ولا مباهاة ولا مفاخرة، ورابعها: أن يحاول المنافسة ليوصله إلىٰ أعلىٰ درجات الإحسان، ويدخل ضمن ذلك أن يتحرىٰ به الأوجه النافعة المؤثرة في إقامة أمن الأمة، وإخراجها من أزماتها، كأن يبني لها الدور العلمية، حيث خلت منها، ويبني المساجد حيث قلت

(١) العسكري، الصناعتين، ص ٤٥٣.

لا حيث كثرت، ويبحث كيفية استيعاب الموهوبين، واستغلال الطاقات المختلفة، ويعين الأيتام ويقوم علىٰ المساكين، ويحمي المستضعفين، ويسترد حقوق المخدوعين.. "والمال الذىٰ يكفي لإذهاب العَيْلَة، واستئصال الحرمان، وإشاعة فضل الله ﷻ علىٰ عباده، يجب إخراجه- مهما عظم- من ثروات الأغنياء، ولو تجاوزت تجاوزا بعيدًا مقادير الزكاة المفروضة ؛ لأن حفظ الحياة حق إسلامي أصيل. - ومقادير الزكاة ليست إلا الحدَّ الأدنىٰ لما يجب إنفاقه. - وقد ورد عن النبىٰ ﷺ " إن في المال حقًا غير الزكاة "[(١)].

فسيروا في الأرض فانظروا كيف هلكت الأمم، وضاعت الدول بسبب الشح الذي سيطر علىٰ أغنيائها.. ظنوا أن أموالهم التي جمعوها مانعتهم من غزو عدوهم، "ومن هنا انتشر الفقر انتشارًا ذريعًا في الشرق الإسلامي، وسخر الدين ورجاله، لحمل الناس علىٰ قبوله واستساغته، وفسرت نصوص الدين المتصلة بهذا المعنىٰ، تفسيرًا سقيمًا، نسي الناس معه حقوقهم وحياتهم، وجهلوا دنياهم وأخراهم، وحسبوا الفقر في الدنيا، سبيلًا إلىٰ الغنىٰ في الآخرة، ونحن لا ننكر أن هناك آثارًا دينية، تحمد الفقر وتنوه بشأنه. ولكن ما دلالة هذا وما معناه؟ هل إذا قال شاعر:

جزىٰ الله الشدائد كل خير عَرَفْتُ بها عَدُوىٰ من صديقي

قلنا : إن الشدائد خير.. وألفنا مصلحة أو وزارة، نسميها وزارة الشدائد لتذيق الناس لباس الجوع والخوف؟!!"[(٢)]. وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا عن مثل هذه الآيات المُزلزِلة لقلوبهم، فلم يلتفتوا لربط الإنفاق بالقضايا الكبرىٰ في

(١) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص ١١٣. والحديث الذي ذكره رواه الترمذي ٦٦٠، وقال: «هذا حديث إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعف»، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي، ص ٧٠، ٧١.

(٢) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ص ١١٤.

بناء الدول، وإخراج الأمم من حالات التبعية والضعف، فكانت النتيجة أن ملك أعداؤهم كل أموالهم، وأورث الله العاملين بسنن النصر أرضهم وديارهم وأموالهم، وما زلت أنظر إلىٰ الحالة اليمنية المعاصرة باعتبارها أنموذجًا واضحًا لذلك، ففي وقتٍ تحاسد العاملون في مجال العمل الإسلامي.. ترىٰ ذلك بين جماعةٍ وجماعةٍ ثم تراه بين المجموعات المختلفة ضمن الجماعة الواحدة، ثم تراه بين الأفراد ضمن المجموعة الواحدة.. ونكصوا عن اتباع الأسلوب الدعوي، والمنهج القرآني في التعامل مع الآخرين من الخصوم والمؤيدين، وكان عدوهم يفتتح الحصون والقلاع، وهم يكتفون بمرونة التعامل السياسي، ويبحثون كيف يمتلكون الدور والعقارات، حتىٰ اجتاحهم ما اجتاح الأمم الغافلة، وعندها قالوا: ﴿ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ١٤ فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥].

وعد بنا إلىٰ الإحسان في القرض فعلىٰ حَسَب مقدار الإحسان كمًّا وكيفية وموضعًا، وتفننًا يأتي الجزاء من المستقرِض.. تأمل ذلك مجددًا في الآية ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وينسبون لأمية بن أبي الصلت:

كل امرئ سوف يجزىٰ قرضه حسنا أو سيئًا، ومدينًا بالذي دانا[1]

فإن قيل فما الجهات المأمورة بالإقراض؟

الجواب: أربع جهاتٍ:

الجهة الأولىٰ: المجتمع الذي ينبغي أن ينفق الثروة المالية والبشرية في المجالات المختلفة لسد الجوع والمسغبة وإيجاد التكاتف والتعاطف بين أفراده، ومن هذه المجالات: أن يقدم الثروة البشرية اللازمة من أبنائه ليقوموا بمهمة

(١) الأزهري، تهذيب اللغة، ج ٣، ص ١٤٥.

الحراسة الأمنية العامة في مختلف المجالات، وتقديم النفقات اللازمة لهؤلاء المنتدبين للأعمال الأمنية والعسكرية لتتحقق حماية المجتمع وإنقاذه، فإنهم فرغوا لهذه المهام الجسمية، وواجب المجتمع أن يقوم عليهم علىٰ أمثل الوجوه التي من خلالها ينجزون مهامهم.

الجهة الثانية: القادر علىٰ العمل الأمني والعسكري لحماية المجتمع، فإنه ينبغي لأجل ذلك أن يبذل نفسه وينفق عليها إن استطاع، فتقصير المجموع في إعانته لا يعني سقوط الواجب عليه..

الجهة الثالثة: العاجز عن القيام بالأعمال الأمنية والعسكرية المباشرة، فيجب عليه أن يقوم بدعم المباشرين لتلك الأعمال سواء بالقيام علىٰ احتياجاتهم أم بالقيام علىٰ مكافآتهم التشجيعية أم بالقيام علىٰ أسرهم.

الجهة الرابعة: الدولة بأجهزتها المختلفة فهي منوطة بمحاربة الفقر والعدالة في توزيع السلطة والثروة من خلال برامج وزاراتها وميزانيتها السنوية ومواردها المختلفة.

والبذل هنا -كما ترىٰ- متصل بحفظ الأمن القومي العام من خلال الدعم اللوجستي للأنشطة الأمنية والعسكرية التي يتم بها حفظ المجتمع أو إخراجه من حالات الإذلال والاستبداد، وذلك يقتضي أن يمتد الدعم ليشمل الأنشطة الأمنية المباشرة، وليشمل الأنشطة الاقتصادية التي تسد الثغرات في المجالات الإنسانية والعلمية وسد البطالة، وتدارك الطبقات الفقيرة، وفتح أبواب العمل لها، وعدم إبقاء المال دولة بين الأغنياء فقط.

والآن لاحظ كيف يحثهم ﷻ علىٰ البذل والتنمية المالية، والتعاون علىٰ الاستقلال الاقتصادي من خلال التباذل والنفقة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ

لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فلقد اجتمع في الآية مجموعة من الأساليب التحفيزية التي تستفزُّ النُّفُوسَ، وتثير العزائم، وتحرِّك الْهِمَمَ، وَتَبْسُطُ الْأَكُفَّ بِالْكَرَمِ:

فأتىٰ بأسلوبٍ استفهاميٍّ مثيرٍ محرِّك للتنافس عند السامعين، يظهر منه التهييج والاستفزاز أو التحدي ليندفع السامع نحو المطلوب، كما قَالَ طَرَفَةُ:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتًىٰ خِلْتُ أَنَّنِي عُنِيتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ[1]

والمعنىٰ عند الطبري رحمه الله: "من هذا الذي ينفق في سبيل الله، فيعين مضعِفًا، أو يقوِّي ذا فاقة أراد الجهاد في سبيل الله، ويعطي منهم مُقْتِرًا؟ وذلك هو القرض الحسن الذي يقرض العبد ربه"[2].

وتـراه تعالىٰ جدُّه سمىٰ العطاء والنفقة قرضًا.. ولمن القرض؟ لمن خلق السماوات والأرض وملكهما، زيادة في تحريك القلوب الشحيحة لتبسط أكفها بالعطاء؛ إذ تطمئن إلىٰ ردِّ ما بذلت.

ويتهلل وجهك عندما يصفو لك مفهوم ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن أضفت إليه هنا أن تقرض الله؛ إذ ترىٰ هذه المتضايفات من الكلمات إنما تعني القيام علىٰ المصالح البشرية الحقيقية وحماية المستضعفين بصورةٍ خاصة، ويزيد المعنىٰ تثبيتًا وقوة ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تعدني. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لوجدتني عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تطعمني. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ

(١) البكري، طَرَفَة بن العَبْد، ديوان طرفة بن العبد، ص ٢٤.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٢٨٢.

الْعَالَمِينَ؟. قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»[(١)].

وعد إلىٰ الآية لترىٰ أن الله ﷻ لم يكتفِ بتطمين القلوب بأنه سيرد ما بذل المقرضون حتىٰ بين لهم أنه سيرد ما بذلوه أضعافًا.. ليس ضعفًا ولا ضعفين بل أضعافًا مضاعفة، والمضاعفة مفاعلة من الضِعف، فكلمة أضعافًا يدل علىٰ ثني الشيء بمثله مراتٍ، فلما زاد علىٰ ذلك أن قال: مضاعفة، صارت مرات المضاعفة متكررة، فلم يُحط العقل بمقدار التضعيف، وسلم الأمر للعزيز المتعال متشوقًا للذيذ الارتقاء والوصال، وفي تدبرٍ جميل تشاهد سعة هذه الأضعاف المبهمة، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما نزلت ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي»، فنزلت: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال رسول الله ﷺ: «رب زد أمتي»، فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: ١٠][(٢)].

ويظهر لي أن ترتيب النزول هنا تدبريٌ من ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وليس الحديث مرفوعًا بسبب القدح في حفظ عيسىٰ بن المسيب الراوي عن نافع عن ابن عمر، ويدل علىٰ ذلك أن سورة الزمر مكية، ولكن ذلك لا يلغي جمال الفكرة، وعظمة الوعد الإلهي.

"هذا التعبير بمثابة الهز والزلزال لقلوب المؤمنين، فقلب لا يلين له ويندفع به

(١) مسلم، برقم ٦٧٢١.

(٢) ابن بلبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ج ٧، ص ٦٧، رقم ٤٦٢٧.

إلىٰ البذل قلب لم يمسه الإيمان، ولم تصبه نفحة من نفحات الرحمن قلب خاوٍ من الخير، فائضٌ بالخبث والشر؛ أي لطف من عظيم يداني هذا اللطف من الله تعالىٰ بعباده؟ جبار السماوات والأرض رب كل شيء ومليكه، الغني عن العالمين، الفعال لما يريد، المقلب لقلوب العبيد، يرشد عباده الذين أنعم عليهم بفضل من المال واختصهم بشيء من النعمة إلىٰ مواساة إخوانهم بما فيه سعادة لهم أنفسهم ولمن يعيش معهم، ويهديهم إلىٰ بذل شيء من فضول أموالهم في المصالح العامة التي فيها صلاح حالهم، وحفظ شرفهم واستقلالهم "[1].

هل تعلم سر اختلاف الوعد علىٰ ثواب المنفق في موضعي البقرة وسبأ؟

يحدوك حادي التدبر إلىٰ محاولة معرفة سر اختلاف الوعد هنا عن الوعد في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]..

فتأمل معي لترىٰ أن هذا الوعد في سورة سبأ طمأنة من الله ﷻ بأنه سيخلفهم ما بذلوه دون تضعيف لمقدار المبذول ؛ وذلك لأن تلك الآية في سورة سبأ المكية، والكلام عن النفقة المحضة، أما هذه الآية ففي سورةٍ مدنية بين الله ﷻ فيها سعة فضله بعد أن عاملهم في موضع سورة سبأ بميزان عدله، والكلام هنا عن الأمن القومي للمجتمع كاملًا.. أفلا يناسب أن يكون الجزاء أن ينال المرء أضعافًا مضاعفة عن نفقته بمثل ما حفظ من النفوس التي تمت حراستها بسبب بذله؟

ومن نماذج الأضعاف المضاعفة، ما جاء عن أنس ﷺ أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لفلان نخلة وأنا أقيم حائطي بها، فأْمُرْه أن يعطيني حتىٰ أقيم حائطي بها. فقال له النبي ﷺ: «أعطها إياه بنخلة في الجنة» فأبىٰ، فأتاه أبو الدحداح ﷺ، فقال: بعني نخلتك بحائطي. ففعل فأتىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد ابتعت النخلة

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٩٢.

بحائطي، فاجعلها له فقد أعطيتكها. فقال رسول الله ﷺ: «كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة» قالها مرارًا، والنبي ﷺ يعني أن ما سيعوضه أبو الدحداح في الجنة لا حصر له، قال: فأتىٰ امرأته فقال: يا أم الدحداح! اخرجي من الحائط؛ فإني قد بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربح البيع أو كلمة تشبهها[1]، وفي رواية عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي، وفي حائطه ستمائة نخلةٍ، ثم جاء إلىٰ الحائط، فقال: يا أم الدحداح، وهي في الحائط، فقالت: لبيك. فقال: اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل[2].

والآن ماذا يعني لك أن يذكر الله ﷻ الاقتصاد الخدمي التعاوني مباشرة بعد الحكاية عن قومٍ فروا من مواجهة عدوهم، وقبل ذكر قومٍ يريدون مواجهة عدوهم كما في الآية التالية؟

إنه يؤكد علىٰ وجوب حضور روح التباذل والتعاضد وتماسك الجبهة الداخلية لقوم يخوضون معركة شرسة مع عدو متربص بهم يقصد إإضعافهم، ولأن للمعركة مسلتزماتها من إعداد العدة، ولأن من يباشر منازلة العدو بحاجة لأن يطمئن علىٰ من وراءه من أهل وذرية كانت الحاجة قائمة وماسة للبذل والإنفاق؛ إذ كيف ينبري قوم للمقاومة والمنازلة وهم لا يأمنون علىٰ من خلفوا وراءهم من أهل وذراري.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، ج ٣، ص ١٤٦. برقم ١٢٥٠٤. قال شعيب الأرناؤوط رحمه الله: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٢) سنن سعيد بن منصور، ج ٣، ص ٩٣٤، برقم ٤١٧، وضعفه الألباني إسناده. ينظر: الألباني، تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، ص ٧٦، ٧٧.

إنه يعرض عليك أفنانًا من المفاهيم الوارفة الظلال منها أن تبادر بالتفكير والوعي والحركة والسعي لتحصيل الثروة الاقتصادية وامتلاكها؛ إذ كيف يمكنك أن تحقق مرتبة الإنفاق أو الاقتصاد الخدمي دون أن يكون معك أساس اقتصاد إنتاجي؛ إذ كيف يمكن أن يتم الإنفاق من شخصٍ أو مجتمع ليس عنده اقتصاد إنتاجي،

كل هذا يعني ضرورة البحث عن تثبيت القدم في السوق، والتعاون علىٰ إنجاح المشاريع الشخصية والجماعية الاستثمارية بهدف الحصول علىٰ التأثير اللازم في واقع الحياة، والتعاون بين أفراد المستضعفين يثمر إنجاح المشاريع التي يتردد أصحابها في طرحها خوفًا من الخسارة.

"إن رأس مال أي أمة ناهضة هو جهد بنيها، وكدحهم وراء الرزق، واعتصارهم أسباب الحياة من الصخور. وعلىٰ الدول شق ميادين العمل لكل قادر، واستنفاد الطاقات المختزنة في الأجساد لمصلحة الفرد والجماعة، فإذا توفرت ثمرات العمل عليها بعد ذلك أن تعمل عملها الواسع في تفريج الضوائق، وسد حاجات اليتامىٰ والمساكين والمعوزين. فإذا جفت بعض المنابع، كان علىٰ المنابع الباقية أن تحمل العبء كاملًا، وعلىٰ الدولة أن تستنبط من موارد المال، ما توازن به شئون المجتمع، وتقيم به مصالح الناس والدين لها في كل ذلك ظهير "[1].

أنموذج مدهش للبذل في الطرف المقابل يبين معنىٰ الأخذ بسنن الانتصار في القرض:

فإذا فهمنا من القرض الحسن أنه بذل النفس وبذل المال فإن ذلك يعني الإخلاص الحقيقي في سبيل المهام الشريفة، وأنت ترىٰ أن المسلم الذي كان يتم إرساله في المهمات العظمىٰ التي يتعلق بها عز الأمة، والتعامل مع الدول غالبًا من قبل أبي بكر

(١) محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ج ١، ص ١١٣.

الصديق رضي الله عنه مثلًا والخلفاء من بعده، فكان يطيح بالدول والممالك، ويبقىٰ ولاؤه وإخلاصه وبذله لله ﷻ ؛ إذ أقرض ربه ﷻ نفسه وماله قرضًا حسنًا علىٰ حد قول عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : «ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ»[١]،

فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنىٰ طمعًا في سراب، فيؤثرون شهواتهم، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم، ويجعلون الخيانة جزءًا من حياتهم، وهنا تعلم سر انتصارات الأمم الأخرىٰ.

فما زلت أعجب من إخلاص جواسيس بريطانيا لبلدهم إلىٰ اليوم.. يُرسَلون في مهامٍ لخدمة بلدهم مع أنهم قد لا يؤمنون بالآخرة، فيؤدون مهامهم بإخلاصٍ منقطع النظير، واضرب لهم مثلًا قصة الجاسوس المحتال (توماس إدوارد لورنس) (١٦ أغسطس ١٨٨٨ – ١٩ مايو ١٩٣٥م) المشهور بلورانس العرب[٢] الجاسوس الذي كان يقرب من أن يكون ملكًا للعرب دون تاج[٣]، وفي قصته ترىٰ كيف جمع كل مواهبه للوصول إلىٰ نقطة واحدة هي خدمة السياسة العامة لبلده وهو لما يكمل الثلاثين، وذلك علىٰ الرغم من الأكاذيب الهائلة التي تمتعت بها تلك السياسة، فاستطاع أن يقوم مقام جيوشٍ بأكملها، واستحق أن يقول عنه (ونستون تشرشل): "لن يظهر له مثيلٌ مهما كانت الحاجة ماسّةً له"، وعلىٰ الرغم من المنافسة الشديدة بينه وبين القائد

---

(١) البخاري، رقم (٧٥٥).

(٢) توماس إدوارد لورنس (١٨٨٨_١٩٣٥): ضابط بريطاني اشتهر بدوره في مساعدة القوات العربية خلال الثورة العربية (المزعومة!!) عام ١٩١٦م ضد الدولة العثمانية عن طريق انخراطه في حياة العرب وعُرف وقتها بلورنس العرب، انظر: شاكر نصّار، لورنس والعرب، المطبعة الأمير كانية، بيروت، ١٩٣٠م، ط١، ج ١، ص ٣.

(٣) وذهب بعضهم إلى أن بعض المؤرخين يضخمون دوره، ويبالغون في قدراته كما في كتاب: سلام ما بعده سلام لدافيد فرومكين ص١٣، ولكن أثره كان واضحًا حتى لو لم يكن بهذه الضخامة، وربما يذكرك هذا بشاب يشبهه، ويحاول أن يتقمص شخصيته إضافة إلى شخصية هنري كيسنجر في وقت واحد.

البريطاني "فيكري" الذي كان يرافق الأمير فيصل بن حسين، إلا أنَّ كلا الرجلين كان ينافس لتحقيق هدفٍ واحدٍ هو خدمة بريطانيا، وأثمر هذا التنافس مزيدًا من الاختراق البريطاني للواقع الإسلامي من خلال جعل العرب رمحًا في خاصرة مجموع الأمة.. لقد كان المفتاح الذي اعتمده (لورانس) و(فيكري) هو المفتاح الذي يعتمده شياطين اللاعبين بالسياسات الدولية إلىٰ اليوم: التحكم بالرؤوس، فقد وجد كلا الرجلين أن فيصل بن حسين هو أفضل شخصية مؤهلة لقيادة جموع العرب ليقاتلوا إخوانهم الأتراك، ومن خلال هذا الاختراق يتمكن البريطانيون من احتلال فلسطين، وتنفيذ الوعد المشؤوم.. وانظر هنا إلىٰ الفرق الشاسع:

هما يعملان بل يتحاسدان من أجل بريطانيا، فما الذي كان يفكر به الآخرون الذين ينتسبون للمسلمين؟

لقد لبس (لورانس) الملابس العربية، وكثيرًا ما كان يمشي حافي القدمين.. كثيرًا ما كان يمشي المسافات الهائلة راجلًا.. ينتقل بين الحجاز والأردن والقاهرة.. يقابل قادة العرب والقادة البريطانيين.. أتقن اللهجة الحلبية وزعم أنه شركسي في بعض الأحيان، ومع كل ذلك كان مخلصًا في سبيل التاج البريطاني.. لم يكن علىٰ لقاء دائم بالعرش البريطاني لإظهار إخلاصه، بل كان يسري الأمر في دمه، ولقد التقىٰ بالقائد البريطاني (اللنبي) فأفهمه أن أهم خدمة يمكن أن يقوم بها: العمل علىٰ ضرورة إشعال الثورة العربية بالشكل الذي يسمح بتأليب الشعوب، لتجني بريطانيا ثمار هذه الثورة بأقل تكاليف[١].

وإن تعجب فعجبٌ قدرته الفذة حتىٰ استطاع أن يكون مستشارًا دائمًا للقيادة العربية لا تستغني عنه في جميع الخطط الحربية، والاستشارات الإدارية، بل استطاع

(١) انظر: شاكر نصّار، لورنس والعرب، ج١، ص ٣.

أن يكون وسيطًا بين القيادات العربية المتنازعة؟ توقف! ماذا تسمع؟ ألا ترىٰ أن التاريخ يكرر نفسه هذه الأيام؟

كتب (لورانس) تجربته في كتابه الشهير "أعمدة الحكمة السبعة" بأسلوبٍ أدبي مؤثر.

إنك لترىٰ في قصته سنن الانتصار المدهشة التي اتبعها هذا الجاسوس البريطاني لتحقيق أهدافه التي ربما كانت شخصية ولكنها تخدم بصورةٍ مذهلة السياسة العامة لبلده، وترىٰ في قصته كلَّ سنن الفشل عند من جعلهم الله ﷻ أمناء علىٰ الإسلام فخانوه؛ حيث تجد التنازع والطبيعة الجشعة للزعماء العرب الذين يكتفون بشهواتهم الأنانية، ويعاملون شعوبهم باحتقار، ويستنفدون أوقاتهم في سرقة الثروات العامة لبلدانهم، وبذل ما يمكنهم بذله لأعدائهم.

لقد ألف (لورانس)كتابه (أعمدة الحكمة السبعة)؛ ليخبر العالم أن التعصب المسيحي يعمل في نفسه عمله؛ إذ استقىٰ عنوان الكتاب من سفر الأمثال:

٩ : ١ الحكمة بنت بيتها نحتت أعمدتها السبعة[١].

فلنعد إلىٰ الآية الآن لترىٰ أن الله ﷻ يجرئنا علىٰ خوض غمار تجربة القرض الحسن ببذل النفس والمال، وذلك عندما ختم لنا الآية بذكر سنة كونية تتفاعل مع الحركة البشرية، وهي:

(١) أعمدة الحكمة السبعة (Seven Pillars of Wisdom): كتاب صدر في عام ١٩٢٢م، وضع فيه لورنس العرب خلاصة تجربته السياسة في إدارة أنظمة دول الشرق الأوسط بعد سقوط الدولة العثمانية، وساهم في قيام "الثورة العربية الكبرى". ويكيبيديا /https://ar.wikipedia.org/wiki.

السُّنَّة الكونية الاجتماعية السَّابعة

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ فيجري الله ﷻ أمره وقضاءه من قبض وبسط ويظهره في تصرفات خلقه وكسب عباده:

إذ تبين هذه الصفة ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة: ٢٤٥] تحكمه ﷻ بالعطاء الذي يقسمه في الكون، وأصل القبض والبسط يعود لحركة اليد، فضم الأصابع علىٰ راحة الكف قبض، وإرسالها بسط، وتفرع عن ذلك المعاني الدالة علىٰ حركة الجمع والتقسيم، فقبضُ السلعة جمعٌ وضمٌ لها لتكون في ملك المرء، ومن ذلك قول الله جل ذكره ﴿فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقبض اليدين عن العطاء هو البخل والشح، ويزداد الوصف بالبخل عندما يكون لقبض اليد صفة زائدة كأن يضمها المرء إلىٰ جسده، أو يغلها في عنقه، وبسطهما إنفاق وتقسيم، ومن ذلك قوله تعالىٰ جده: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وهذه الصورة المتحركة للقبض والبسط يجعلك تسترسل مع المعنىٰ هنا لترىٰ فيه: أن الله ﷻ يقبض الرزق ويبسطه فلِمَ الخوف من الإنفاق، والذي بيده التحكم بالرزق هو الذي يستقرضك لمصلحة بني جنسك؟

«وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ هذا عام في كل شيء، فهو القابض الباسط، والقبض: التقتير، والبسط: التوسيع، وفيه وعيد بأن من بخل من البسط يوشك أن يبدل بالقبض، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي: هو يجازيكم بما قدمتم عند

الرجوع إليه، وإذا أنفقتم مما وسع به عليكم أحسن إليكم، وإن بخلتم عاقبكم«[١].

وترىٰ في التعبير بالقبض والبسط أيضًا الإرادة الكونية حيث يوفق الله جل ثناؤه قومًا للإنفاق والبذل؛ إن هم جاهدوا أنفسهم، وبحثوا عن صفاء قلوبهم، ويحرم الله أقوامًا بناءً علىٰ تثاقلهم في حركة العطاء، فيكره انبعاثهم ويقول لهم: اقعدوا مع القاعدين.

وترىٰ فيه أيضًا: أن الله ﷻ يقبض المبذولات ليبسط الثواب والمكافآت علىٰ قدر ما تم قبضه، فانظر ما الذي ستضعه ليقبضه ربك ﷻ، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[٢].

وعندما تدرك هذه المعاني الفياضة للقبض والبسط تهدأ النفوس القلقة من الفقر، الخائفة من النقص والخُسر؛ فإن الله هو الذي يقبض الرزق، وهو الذي يبسطه، قد قال عن نفسه ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، ومن أعظم الرزق الذي يقبضه ويبسطه التوفيق للإنفاق علىٰ الاحتياجات المختلفة للأمة..

يا له من قبضٍ في النفس والرزق والحياة عندما ينصرف المتردد أو المتثاقل عن الإنفاق.. ويا له من بسطٍ في العمر والحياة والرزق عندما يبادر المسارع إلىٰ الخيرات في الإنفاق

(١) الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ٣٠٠.

(٢) البخاري، برقم ١٤٤٢.

.. ترىٰ المرء يعيش ستين عامًا لكنه يعمل ما يساوي مئات الأعوام بسبب مدرسةٍ بناها، وعلمٍ نشره، أو أسهم في نشره، وتلاوة ساعد في بثها، ومؤسساتٍ تحفظ علىٰ المجتمع كيانه أو تخرجه من معاناته.. وبذا قال أحمد بن عطاء الله السكندري ﷺ: "رب عُمرٍ اتسعت آماده وقلت أمداده، ورب عُمرٍ قليلةٌ آماده كثيرةٌ أمداده. فمن بورك له في عمره أدرك في يسيرٍ من الزمن من منن الله تعالىٰ ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ولا تلحقه الإشارة"[١].

وقَالَ : «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»[٢].

وقد يتساءل بعضهم عن فائدة ذكر القبض والبسط بعد ذكر الوعد الحسن للمنفق؟

---

(١) ابن عبّاد الرُّندي، الحكم العطائية، ج ١، ص ٨٧، ٣٠٢.

(٢) مسلم، برقم ٦٧٣٧.

يبين الطبري ﵀ أثر هذه الجملة في تقوية النفوس علىٰ اتباع السنن التي تحقق الكفاية الأمنية، فيقول: «وإنما أراد تعالىٰ ذكره بقيله ذلك، حث عباده المؤمنين- الذين قد بسط عليهم من فضله، فوسع عليهم من رزقه- علىٰ تقوية ذوي الإقتار منهم بماله، ومعونته بالإنفاق عليه وحمولته علىٰ النهوض لقتال عدوه من المشركين في سبيله، فقال تعالىٰ ذكره: من يقدم لنفسه ذخرًا عندي بإعطائه ضعفاء المؤمنين وأهل الحاجة منهم ما يستعين به علىٰ القتال في سبيلي، فأضاعف له من ثوابي أضعافًا كثيرة مما أعطاه وقواه به؟ فإني -أيها الموسع- الذي قبضت الرزق عمن ندبتك إلىٰ معونته وإعطائه، لأبتليه بالصبر علىٰ ما ابتليته به، والذي بسطت عليك لأمتحنك بعملك فيما بسطت عليك، فأنظر كيف طاعتك إياي فيه، فأجازي كل واحد منكما علىٰ قدر طاعتكما لي فيما ابتليتكما فيه وامتحنتكما به، من غنىٰ وفاقة، وسعة وضيق، عند رجوعكما إليَّ في آخرتكما، ومصيركما إلي في معادكما»[1].

وقوله ﷻ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يجعلنا نفكر في طبيعة الرجوع إليه جل جلاله، لنشعر بأنه رجوعان:

رجوعٌ إلىٰ شرعه تعالىٰ ذكره؛ حيث يتم تنظيم الحياة علىٰ وفق أمره، ورجوعٌ إلىٰ سننه في الكون حيث يتم بناء الأمم، واستنهاضها، ورفعتها، وإخراجها من أزماتها، وبرجوعهم إلىٰ الله ﷻ يختصر الباحثون عن الحلول للواقع الإنساني المسافات الزمنية، فيجدون في شرع ربهم ﷻ سعادة أنفسهم لو كانوا يعقلون.

ورجوعٌ إليه يوم القيامة لنجد أن الإنفاق غير ضائع، بل سنجده كاملا موفرًا مضاعفًا.

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٢٨٩.

وهـذا الختام يدل علىٰ أن معنىٰ القبض والبسط حثٌّ علىٰ الحركة البذلية الاختيارية بأن ينفق المرء متوكلًا علىٰ الذي يقبض ويبسط ﷻ، ويتضمن وعدًا ووعيدًا بالمجازاة القادمة علىٰ العمل السابق، فإن لم يدفعه أمنه الشخصي والقومي للقرض الحسن، فليعدَّ لنفسه ما تقدم عليه غدًا يوم يُرَدُّ الناس إلىٰ الله مولاهم الحق ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَـٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وانظر إلىٰ مسارعة الصحابة رضي الله عنهم في الاستجابة لربهم، ومد العالم بما يخفف عنه أزماته، ويرفع معاناته، فعن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران: ٩٢] أو ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

قال أبو طلحة وكان له حائط فقال يا رسول الله حائطي لله ولو استطعت أن أسره لم أعلنه فقال:« اجعله في قرابتك أو أقربيك»[(١)].

(١) الترمذي، ج ٥، ص ٢٢٤، برقم ٢٩٩٧، وقال: "هذا حديث حسن صحيح" وصححه الألباني.

القسم الثاني

صناعة الفلك

السُّنن الإجرائية للخروج من حالة الاستضعاف والنجاح في المعارك الحضارية

[البقرة: ٢٤٦-٢٥٢]

آيات هذا القسم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦-٢٥٢].

المناسبة والاتصال:

القسم الأول والقسم الثاني مترابطان.. بل ترىٰ إحكام نسيج ترابطهما؛ إذ يحدثانك عن قصتين– إن لم يكونا قصة واحدة –، والقصتان توضحان الاستراتيجيةَ الأساسيةَ في التعامل مع الواقع المعادي المفروض.

لقد شاهدنا أَصْحَابَ الْقِصَّةِ الْأَوْلَىٰ وقد هربوا من المواجهة مع تحتمها، ففقدوا اسْتِقْلَالهمْ، وحاز العدو ديارهم، وسيطر علىٰ أبنائهم وثرواتهم، ثم ماتوا في هربهم، ومن خلالهم ذكر الله ﷻ السنن الأساسية للخروج من حالة الاستضعاف، حيث هيأ الله ﷻ لنا من خلال قصتهم الأرضيةَ الحقيقيةَ التي يمكن أن يثبت عليها الباحثون عن حلولٍ حقيقية للخروج من الاستضعاف، بإعمال السنتين الأساسيتين:

١ـ سُنَّة اتخاذ القرار بالمواجهة للأزمات وعدم الهروب منها.

٢ـ وسُنَّة إعداد الدعم الأساسي (اللوجستي) الذي يعني الاستعداد للإمداد بالمال والرجال.

هاتان السُّنَّتان تمثلان الموجز العظيم الذي تكتنزه القصة. إن حققنا هاتين السنتين رأينا انبعاث الحياة في الأجساد الميتة والأفكار الخاملة.

كان ذلك موجز القصة الماضية.. آن الأوان الآن لصناعة الفلك الذي يمكنه الجري في موجٍ كالجبال.. موج الحصار العالمي والاضطهاد الدولي المنهج.

وصناعة الفلك تظهر في السنن التي تنبئنا بها القصة الثانية؛ فلئن كانت القصة الأولىٰ تُشَنِّعُ حال الذين استسلموا، وعدوا أنفسهم من الضعفاء، واتخذوا قرار الانسحاب التكتيكي في ظنهم بينما هو انسحاب مهين لم يكن لهم فيه من باعث سوىٰ حذر الموت، فوقعوا فيه، فإن هذه القصة تبصرنا بكيفية البناء التنظيمي لترسم صراط الخروج من الضعف، وتبرز الصدق أمام زيف الادعاء..

تستخلص في هذه القصة الرؤية السديدة لسنن الانتصار، وكذلك تستخلص سنن الانكسار عند تحتم المواجهة.

ويمكن تقسيم معالم النهوض الحضاري لهذه السنن العملية إلىٰ المشاهد الآتية:

المَشْهد الأول (بداية النور)
بعثُ المَلأ وفقهُ التغيير

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ
قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ
قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا
مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

[البقرة: ٢٤٦]

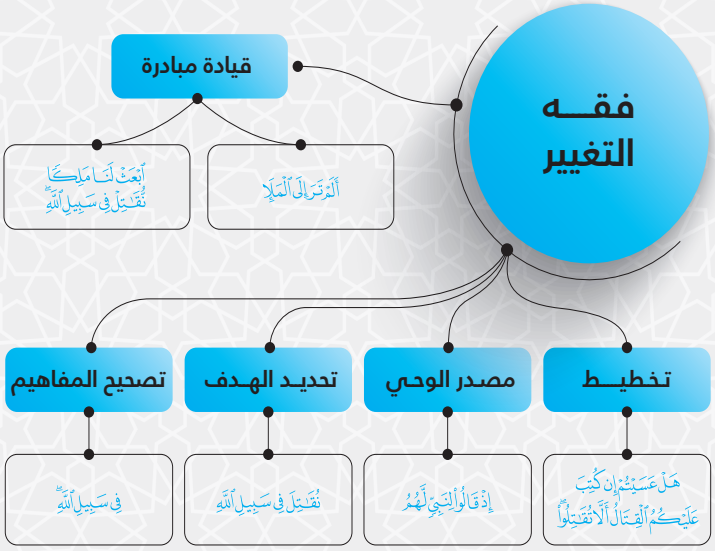

السُّنَّة الأُولى

لا بد من اجتماع (الملأ)، للبحث في الحلول الممكنة الصادقة للإنقاذ

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: ٢٤٦]:

فالملأ هم الذين يتولون قيادة الجموع وفق منطق الحكمة الشجاعة لا التهور الأحمق، ولا الأناة الجبانة، وعنهم تسري الأحاسيس والمشاعر إلىٰ الرأي العام، فإن امتلأت نفوسهم بالعزة والرغبة في الاستقلال، والهم المصمم علىٰ النهضة من الكبوة انتقل ذلك للجماهير، ولا يلام الجماهير لومًا كبيرًا عندما تكون قيادتهم المجتمعية وراء أطماعها وشهواتها الذاتية الضيقة.

وهنا قد تتساءل: فما فائدة تكرار ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعد أن ذكرت في قصة الذين خرجوا من ديارهم؟

والجواب: يحرك ربنا ﷻ أبصارنا إلىٰ رؤية منظرٍ ينبغي عدم إهماله، فيقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾فكرر هذا التعبير لما يفيده من نقل المشهد كأنه يحدث أمامك، كما أن في التكرير زيادة في التحذير والتنبيه للغافلين عن سنن الله ﷻ في استحقاق التوفيق الإلهي، أو استنزال النصر وحدوث التغيير الإيجابي.

إنه ينقل لك الآن منظر الإسرائيليين وقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، وظلوا في خوفهم وشقائهم، ولما تطاول عليهم الأمد، قامت نخبة قيادية منهم بالبحث عن

مخرج من هذه الحالة البائسة التي يعيشونها، فأجمعت هذه النخبة أمرها وشركاءها، فدرسوا واقعهم المرير، ورأوا أنهم يعيشون في مرحلة الجبن والخوف من مواجهة المصائب المتتابعة.

إن كلمة الملأ لها دلالتها في التعبير عن هذه النخبة لتمثل بداية التغيير الحقيقي، فالـملَأُ هم صفوة الـمجتمع الباحثون عن إنقاذه وحمايته،

إنهم الأشراف من الناس، وهو اسم الجماعة كالقوم والرهط والجيش، وجمعه أملاء، قال الشاعر:

وَقَالَ لَهَا الْأَمْلَاءُ مِنْ كُلِّ مَعْشَرٍ وَخَيْرُ أَقَاوِيلِ الرِّجَالِ سَدِيدُهَا[1]

وأصلها من الملء، حيث تعمر الكأس بما يجتمع في جوانبها دون أن يبقىٰ فيها فراغٌ، فالملأ الذين يملئون العيون رواءً، ويعمرون القلوب بما يحتاج إليه، وهم -كما يقول الطبري رحمه الله: "وجوه بني إسرائيل وأشرافهم ورؤسائهم"[2].

وذكر أنهم ﴿مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِن بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ لأمور متعددة تبصرها في ثنايا الكلمات منها: استشناع واستقباح التخلف عن المكرمات من أولاد الصالحين، وممن رأوا الآيات كبني إسرائيل، أو نقلوها نقلًا متواترًا كأمة النبي الأمين ﷺ، فما بالهم في حالك الظلمات، ومنها احتياجنا أن نعرف بعض الجوانب المضيئة في التاريخ الإسرائيلي بعد أن ذكر الله ﷻ امتلاء تاريخهم بالاستخفاف بالميثاق المأخوذ عليهم، وبقتلهم الأنبياء عليهم السلام وكفرهم بآيات الله ﷻ.. وهنا يريك صورة مقابلة، فانظر لنفسك يا من تنتمي لأمة خاتم الأنبياء ﷺ: هل تلقي السمع وأنت

(١) البيت من الطويل، وهو من شواهد العين ولم يهتد لقائله. ينظر: الفراهيدي، كتاب العين، ج ٨، ص ٣٤٦، ٥٠١.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٢٩١.

شهيد، أم تسير مع من هم في سكرتهم يعمهون؟

فالذي يصنع التاريخَ هم (الملأ)..

عندما ترجع إلىٰ مصطلح "الملأ" في القرآن المجيد تجده يعبر عن: الذين يملؤون العين بوجه من وجوه التأثير التي تميزوا بها، فهم القيادات المحدودة العدد، الوافرة الهم، القوية التأثير، القادرة علىٰ صنع التغيير، المتحكمة بشكلٍ ما في رأي صناع القرار، والتأثير في المصير، وتجد الملأ يؤثرون علىٰ أحد الجهتين: الحكام، والشعوب، أو عليهما معًا، وقد يكون التغيير الذي يحدثونه في الناحية الإيجابية، وقد يكون ذلك في الناحية السلبية.

هنا تعلم أن من يريد إصلاح الاعوجاج الذي يملأ الأرض لا بد أن يعمل علىٰ إيجاد "الملأ".

يخطئ من يصرخ في وجوه الشعوب – فقط- ساخطًا عليها ممالأتها للنظم المجرمة.. يخطئ أكثر من يزعم أن زيادة الفتنة، وكثرة الظلم ستؤدي إلىٰ استيقاظ للشعوب النائمة.. إن كثرة الظلم لن توقظ المظلومين.. بل ستؤدي إلا إلىٰ مزيدٍ من كوارث التجهيل والعجز والتفنن في اختراع أنواعٍ جديدةٍ من الظلم..

هنا لا بد أن يقوم الملأ الصالحون بحمل الراية، وقيادة الشعوب المقهورة المظلومة نحو تغيير حقيقي يتسم بالحكمة المنقذة.. الحكمة التي تُعَرِّفُ صاحبها متىٰ يتقدم، ومتىٰ يتأخر.. تعلم صاحبها متىٰ يقول: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾.. الحكمة التي تجعله يردد مع محمد محمود الزبيري رحمه الله:

سجلْ مكانك في التاريخِ يا قلمُ فها هنا تُبعثُ الأجيالُ والأممُ
هنا البراكين هبتْ من مضاجعها تطغىٰ وتكتسحُ الطاغي وتلتهمُ
شعبٌ تفلَّتَ من أغلال قاهره حرًّا فاجفل عنه الظُلْمُ والظُلَمُ

نبا عن السجن ثم ارتد يهدمه كي لا تكبل فيه بعده قدمُ
إن القيود التي كانت علىٰ قدمي صارت سهامًا من السجّان تنتقمُ
إن الأنين الذي كنا نردده سرًّا غدا صيحة تصغي لها الأممُ
والحق يبدأُ في آهاتِ مكتئبٍ وينتهي بزئيرٍ ملؤه النقمُ
جودوا بأنفسكمْ للحق واتحدوا في حزبه، وثقوا بالله واعتصموا
لم يبق للظالمين اليوم من وَزَرٍ إلاّ أنوفٌ ذليلاتٌ ستنحطمُ
والشعب لو كان حيًا ما استخف به فرد ولا عاث فيه الظالم النهمُ
إن الغزاة وإن كانوا جبابرة لهم قلوب من الأطفال تنهزمُ[1]

لكن الملأ الذين يعول عليهم أخذ زمام المبادرة لبعثة التغيير هم الذين يلجؤون إلىٰ الحكمة التي تعلمهم متىٰ ينسحبون من المواجهة، ومتىٰ يلجؤون إلىٰ استعمال القوة الناعمة التي ترىٰ فيها الليونة تغلب الخشونة.

وهنا نرىٰ "الملأ" يظهرون باعتبارهم القوة التأثيرية الأولىٰ التي قادت النائمين من المظلومين إلىٰ ساحات التمكين في قصة التحرر الإسرائيلية الإسلامية حيث قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ليس الحل أن ينتظر الملأ أغلبية الشعب لتنحاز إليه، أو تسل سيفها معه.. النجاح الإسلاميُّ الإسرائيليُّ مع طالوت ﷺ قدَّم لنا درسًا واضحًا.. إنه يخبرنا عن قادة التغيير الحقيقيين (الملأ): فهم النخبة الصابرة الصامدة الشجاعة المضحية القادرة علىٰ اتخاذ قرار المواجهة في وقته المناسب دون هيبةٍ مع وجود هامشٍ للمناورة والمغامرة.. لم يكن هؤلاء المنارون المغامرون إلا ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا بين

(١) محمد محمود الزبيري، الأعمال الشعرية الكاملة، ص ٢٩٦.

الآلاف المؤلفة التي تخلفت عنهم من بني إسرائيل.. لكنهم صنعوا المجد، وأعادوا كتابة التاريخ.

وقوله جلَّ مجده: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ يبصرنا بمفاهيم متعددة ومدهشة:

فهذه الكلمات الثلاث تبصرنا من جهةٍ بأن هؤلاء الملأ استطاعوا التحرر من أسر فكرة المعجزات؛ إذ كانوا في عهد موسىٰ عليه السلام يعتمدون علىٰ المعجزات في كل مراحلهم المفصلية التغييرية حتىٰ قالوا لموسىٰ عليه السلام دون حياء: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، أما هنا فإنهم في الواقع التاريخي بعد موسىٰ عليه السلام، وهذا المعنىٰ الأول الذي يبصرك به هذا التعبير ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ لكن المعنىٰ الآخر يبصرك به تحركهم هذا التحرك المحمود للبحث عن وسائل الإنقاذ لأمتهم، وهذا يدل علىٰ تغير تلك النفسية التي تعتمد علىٰ المعجزة في بناء حياتها بدلًا من أن تعتمد علىٰ الأسباب والسنن التي وضعها الله تعالىٰ ذكره في الكون.

ولكن قول الله جل جلاله ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ يبين لنا من جهةٍ أخرىٰ أنهم يعلمون أنهم علىٰ الحق فهم قوم موسىٰ عليه السلام الذين لاحت لهم المعجزات واشتهرت عندهم الآيات البينات، ويعلمون أنهم إن وفوا بعهد الله جل جلاله وَفَّىٰ الله عز وجل لهم بوعده، ولكنني لا يظهر لي الاقتصار علىٰ ما قرره الحرالي رحمه الله هنا من أن هذه الكلمات تدل علىٰ أن الأمة يختل نظامها بعد نبيها بما يصحبها من نوره زمن وجوده معهم؛ واستشهد عليه بقول أنس رضي الله عنه : «ما نفضنا أيدينا من تراب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتىٰ أنكرنا قلوبنا»[1]؛ إذ هذا المفهوم صحيحٌ بصورةٍ عامة، فإن أزمنة تواجد الرسل الكرام عليهم الصلاة

(١) أحمد، ج ٢١، ص ٣٣٠، برقم ١٣٣١٢، وصححه الألباني، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده قوي على شرط مسلم.

والسلام، ليست كما يليها، حيث يخفت الضياء ويضمحل الهدىٰ، إلا في المدة التي تكون بعد النبوة، فإن ميراث النبي، وصحبه المقربون يحافظون علىٰ حياة الرشد، ولكن الهدىٰ يضمحل شيئًا فشيئًا، وتنقض عرىٰ الإسلام عروة عروة، ويأتي من يجدد للأمة دينها، فيعود لها روحها ويتوهج ضياؤها من جديد.

المراجعة الصادقة أول خطوة في طريق استعادة النجاح:

فعندما تنظر في الحالة الإسرائيلية تجد معنىٰ زائدًا علىٰ ذلك الحد وهو أن أكبر داء إسرائيلي عدم إعمال مفهوم السمع والطاعة، وهو المفهوم الذي انبثق عن الالتزام بالميثاق المأخوذ عليهم، وذلك كان زمن موسىٰ عليه السلام، فلا تجد لهذه الكلمات من الدلالات المرشدة أكثر من أن ترىٰ أنهم راجعوا فقه سنن الخروج من الاستضعاف والنهوض ودرسوا مسيرة الإخفاق الحافلة في حياتهم وخاصة تعنتهم وعبثهم زمن موسىٰ عليه السلام.. راجعوا تاريخهم، ثم أقبل الجيل الجديد مع (يوشع) يشوع بن نون، ثم عودة الانحراف والانجراف بعد ذلك.. فوجدوا بالمراجعة والتمحيص أنه لا بد من صدق مع الله ﷻ، وأن يدخلوا علىٰ أعدائهم الباب كما نصحهم من قبل أولو الألباب.

السُّنَّة الثانية

استحضار روح المبادرة والمغامرة، فلا بد من تقديم المقترحات الأولية للخروج من دائرة الحصار المغلقة

وأهم مقترح: البحث عن الحاكم العادل، والقائد الجريء الباسل الذي يساوي أمة، ويقود الجموع لتحقيق الإنجازات وصنع الانتصارات.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦]:

لقد جاء (الملأ) نبيهم، ليتبادلوا الرأيَ حول أنسب السبل للخروج من حالة الاستضعاف المهينة التي حاصرتهم فناءوا بها، وضاقوا بمهانتها وأوزارها، ولكن روح المبادرة كانت معهم؛ إذ جاءوا وقد أعدوا عدتهم لطرح مقترحاتٍ أولية يمكنها أن تسهم في وضع لبنة للخروج من واقعهم المخزي، فأخبروه بمقترحين ضروريين ليمثلا التطبيق الإجرائي لبداية رحلة الانطلاق للخروج من الاستضعاف:

تضمن المقترح الأول أن يرشح لهم قيادةً سياسيةً عسكريةً بشريةً يمكنها أن تخرجهم مما هم فيه، وربما حاولوا اختيار القيادة من بينهم لكنهم لم يستطيعوا الوصول إلىٰ اتفاق؛ إما لحرص بعضهم علىٰ ترشيح نفسه رغبة في الصيت والمجد، وإما لخوف بعضهم من تصدر من لا يستحق أمام هذه المخاطر الهائلة، فتكون العاقبة زيادة اجتياحهم، واستئصال قوتهم، ولاحظ التعبير عن إيجاد القيادة السياسية العسكرية: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكٗا﴾، فلم يقل: اختر لنا مع أن هذا كان مرادهم، لكنك ترىٰ - وعَظَمة ربِّك - الإعجاز بينًا في كلمة البعث؛ إذ إنها تصورهم وقد وصلوا

إلىٰ حالةٍ بائسة من الانحطاط حتىٰ احتاجوا إلىٰ مرحلة إحياء حقيقية، وذلك يتم بأن يُبعَثَ لهم من بينهم ملكٌ يشعرون معه بعودة الحياة إلىٰ نفوسهم.

إنها القيادة التي تجعل من الركب المتهالك حيًا علىٰ الطريق، يتنشق العالم منه النسيم العليل وجميل الرحيق:

وألف ثعلبٍ يقودها أسد خيرٌ من ألف أسدٍ إن لم تقد

وكم تخذل الجموع المؤمنة المضحية حينما يقودها المنهزمون ويتبوأ سدة إدارتها الضعفاء، كما قال البردوني رحمه الله:

تَنْسَىٰ الرؤُوسُ العوالي نارَ نخوَتِهَا إذَا امْتَطَاهَا إلىٰ أسيادِهِ الذَّنَبُ

وهنا تدرك سر الاختيار النبوي لخالدٍ رضي الله عنه مثلًا ليشيد بصفاته القيادية في مؤتة؛ ويجعل التكتيك الحربي الذي قام به فتحًا، فعلىٰ الرغم من أن ظاهرَه الانسحابُ أو الانهزام، فإنه كان تكتيكًا مدهشًا للمحافظة علىٰ الجيش، والتحيز إلىٰ فئة، في انتظار فرصة قادمة.

وانظر للوصف النبوي لما حدث علىٰ الهواء مباشرة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رضي الله عنه ، قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفرٌ فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرةٍ ففتح عليه وما يسرني، -أو قال- ما يسرهم أنهم عندنا»، وقال: وإن عينيه لتذرفان[1].

وقد كان تأمير خالد رضي الله عنه مسألة ضرورية انتبه لها المسلمون وسط المعركة المستعرة، تبين أهمية وجود قيادة، ولكن ليس أي قيادة إنها القيادة المتميزة المؤهلة، فعن أبي اليَسَر كعب بن عمروٍ الأنصاري رضي الله عنه قال: أنا دفعت الراية إلىٰ عبد الله بن

(١) البخاري، برقم ٣٠٦٣.

رواحة، وأصيب، فدفعتها إلىٰ ثابت بن أقرم الأنصاري ﷺ، فدفعها إلىٰ خالد بن الوليد ﷺ، فقال: لم تدفعها إليَّ؟ قال: أنت أعلم بالقتال مني[١].

وما زلنا نناجي الله ﷻ أن يبعث لنا مثل هذا الجيل الذي يعرف بعضه قدرات الآخر، فيخفض جناحه لصاحبه من غير استكبار أو أثرة.. وها هو عمر أبو ريشة ﷺ يناجي خالدًا ﷺ :

يا مسجَّىٰ في قُبة الخلد يا خالدُ هل من تلفتٍ لبياني؟
لا رعاني الصَّبا إذا عصف البغي وألفىٰ فمي ضريحَ لساني!!
أقسم المجدُ أن أقطّع أوتاري عليه بأكرم الألحانِ
أنا من أمة أفاقت علىٰ العزّ وأغفت مغموسةً في الهوانِ
عرشُها الرثُّ من حراب المغيرين وأعلامها من الأكفانِ
والأماني التي استماتت عليها واجماتٌ.. تكلمي يا أماني
لا تقلْ ذلَّت الرجولة يا خالد واستسلمت إلىٰ الأحزانِ
حمحمات الخيول في ركبكِ الظافر ما زلنَ نشوةَ الآذانِ
كم طوت هذه المرابعُ أفلاذ قلوب "بدرية" الخفقانِ
قم تلفّت ترَ الجنود، كما كانوا، منار الإباء والعنفوانِ
ما تخلوا عن الجهاد ولكن قادَهم، كلُّ خائن وجبانِ![٢]

(١) الطبراني، المعجم الأوسط، ج ٢، ص ١٧٩،برقم ١٦٤٥، والرواية وإن كان في إسنادها نظر إلا أن حال الصحابة ﷺ يدل عليها.

(٢) عمر أبو ريشة، ديوان، ج ١، ص ٥٤٨.

السُّنَّة الثالثة

تحديد الهدف الشريف الذي تبذل النفوس والأوقات والجهود لتحقيقه

وهذا التحديد ينبغي أن يجعله واضحًا لكل ذي عين حتىٰ لا يتم تشويهه وإرعاب العالم منه.

ويُبَصِّرُنا بهذه السنة الشريفة قوله ﷻ: ﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] .

هنا يظهر المقترح الثاني حيث ينبه المسلمون الإسرائيليون علىٰ المقترح الأول، بل طلبوا الأول لأجله؛ إذ حددوا الهدف الواضح من وجود هذه القيادة السياسية العسكرية: ﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ فقد كان الأمر عندهم في غاية الوضوح أن يفتخروا بأن الذي يكون في سبيل الله ﷻ إنما هو الذي يهدف إلىٰ إحقاق الحق، وإقامة العدل، وتحرير المستضعفين، ونشر الأمن في العالمين، فلم يجدوا عبارة أفضل من العبارة الدينية مع بحثهم عن قيادة سياسية، فقالوا: ﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ﴾ قد طالَ تاريخُ المهازِلْ
هي قومةٌ كانت لهم بعثًا يُبدّد كلّ باطِلْ
أفلا تكونُ لأمّتي لتسود في كلّ المحافل
فالحقّ يبقىٰ كامنًا حتىٰ يجِيْ فعلٌ وفاعِلْ[1]

"وهذا الوضوح وهذا الحسم هو نصف الطريق إلىٰ النصر. فلا بد للمؤمن أن يتضح في حسه أنه علىٰ الحق، وأن عدوه علىٰ الباطل، ولا بد أن يتجرد في حسه

(١) أبيات للأستاذ الشاعر محمد المثيل.

الهدف.. في سبيل اللّه ﷻ.. فلا يغشيه الغبش الذي لا يدري معه إلىٰ أين يسير"[١].

وفي سفر صموئيل الأول في الإصحاح الثامن ذكروا أن ابني صموئيل كانا قاضيين علىٰ الإسرائيليين ومالا إلىٰ الرشوة والفساد، فجاء الإسرائيليون إليه يطلبون ملكًا، وفي هذا السفر لا تجد جمال القصة القرآنية كما لا تجد ظهور الفئة القيادية، وإنما تجد الصلف الإسرائيلي المعتاد ففيه:

٥ وقالوا له: «هوذا أنت قد شخت، وابناك لم يسيرا في طريقك. فالآن اجعل لنا ملكًا يقضي لنا كسائر الشعوب».

٦ فساء الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا: «أعطنا ملكًا يقضي لنا». وصلىٰ صموئيل إلىٰ الرب.

٧ فقال الرب لصموئيل: «اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك، لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتىٰ لا أملك عليهم.

٨ حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلىٰ هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهةً أخرىٰ، هكذا هم عاملون بك أيضًا.

٩ فالآن اسمع لصوتهم. ولكن أشهدن عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم»[٢].

ويظهر من حوارهم مع نبيهم حسب الكتاب الإسرائيلي أنه هددهم بأن الملك الذي سيتم اختياره سيستعبدهم.. بينما ترىٰ العرض القرآني يدل علىٰ مدح هذا الملك واختياره من الله ﷻ ليصحح المسيرة الإسرائيلية.

(١) سيد قطب، ج ١، ص ٢٦٦.

(٢) فكري، القس أنطونيوس، فكري، سفر صموئيل الأول، مشروع الكنوز القبطية، ص ٤٥.

السُّنَّة الرابعة

تعظيم كلام الأنبياء عليهم السلام، والبحث عن السبل المختلفة لفهمه وتطبيقه

ويُبَصِّرُنا بهذا إبهام اسم النبي في قوله جل ذكره: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيّ لَّهُمُ﴾ :

لاحظ أن القرآن المجيد لم يسمِّ النبي الذي يكلمونه، واكتفىٰ بوصفه بالنبوة، فلم يسمه باسمه: "شمويل" كما تسميه العرب، وهو في الكتاب المقدس الإسرائيلي "صموئيل"..

جاء في الكتاب المقدس في سفر صموئيل الأول الإصحاح الأول:

٢٠ وكان في مدار السنة أن حنة حبلت وولدت ابنًا ودعت اسمه صموئيل قائلةً: «لأني من الرب سألته»[١].

قيل لأن الله ﷻ سمع دعاءها؛ إذ مكثت دهـرًا لا يولد لها، ولما فطمته شكرت الله ﷻ عليه، وأخرج عَبد بن حُمَيد عن أبي عبيدة قال : كان في بني إسرائيل رجل له ضرتان وكانت إحداهما تلد والأخرىٰ لا تلد، فاشتد علىٰ التي لا تلد فتطهرت فخرجت إلىٰ المسجد لتدعو الله ﷻ، فلقيها حكم علىٰ بني إسرائيل – وحكماؤهم الذين يدبرون أمورهم – فقال : أين تذهبين قالت: حاجة لي إلىٰ ربي، قال : اللهم اقض لها حاجتها، فعلقت بغلام وهو الشُّمُول، فلما ولدت جعلته محررًا[٢].

---

(١) فكري، سفر صموئيل الأول، ص ١٧.

(٢) السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج ٣، ص ١٤٠.

وفي الإصحاح الثاني:

١ فصلت حنة وقالت: «فرح قلبي بالرب. ارتفع قرني بالرب. اتسع فمي علىٰ أعدائي، لأني قد ابتهجت بخلاصك»[١].

القصص القرآني أحداث تحرك الحياة، وليس مجرد متعة حكايات:

وقد نما هذا النبي - حسب هذا السفر - فصار كاهنًا، وظهرت نبوته عندما دعاه الله ﷻ لذلك كما في الإصحاح الثالث، وعلىٰ الرغم من كرامة هذا النبي إلا أن الله ﷻلم يذكر اسمه حتىٰ لا يكون التركيز علىٰ الاسم والرواية التاريخية، وإن القلب ليعتصره الألم عندما ترىٰ من ينتسب إلىٰ النور القرآني معرضًا عن المقاصد العليا من القصص القرآني، ولا يستهويه في هذه القصص إلا البحث عن تفصيلاتٍ يتلقفها من القصص الإسرائيلي الذي لا ينفع صدقه، ويغرق في الأوهام والخيالات كذبه، وتجر أساطيره المرء بعيدًا عن المقاصد التي سيقت من أجلها القصص[٢]..

فانظر معي، وسل نفسك: لِـمَ لـمْ يذكر الله ﷻ اسم هذا النبي المكرم عليه السلام؟

لقد شاء الله ﷻ للبشرية الأنفع الأرفق الأرفع، فأخفىٰ اسم النبي؛ ليتم التركيز علىٰ المفاهيم الضخمة المنبثقة من وصفه بالنبوة:

والوصف بالنبوة مع طلب الملأ يشيران إلىٰ أن بني إسرائيل كفوا عن تمردهم علىٰ أنبيائهم عليهم السلام، فعلىٰ الرغم من أن هذا النبي ليس من أنبيائهم العظماء المشهورين إلا أنهم أبدوا استعدادًا مبدئيًا ليرضخوا لقوله إن هو أخبرهم عن الله عزَّ جارُه بتحديد ملكٍ ليكون قائدًا عسكريًا.. هذا موقفٌ مختلفٌ عن ردهم لأعظم أنبيائهم عليهم السلام عندما

(١) فكري، سفر صموئيل الأول ص ١٩

(٢) راجع كتابي: الأساس في أصول التفسير الطبعة الثالثة عند الكلام عن مقاصد القرآن الكريم.

أمرهم أن يذبحوا بقرة، فلووا أشداقهم وقالوا معرضين عن قوله: أتتخذنا هزؤًا..

فاسأل أمة محمد ﷺ عن سر السكوت الرسمي للطعن في السنة والتقصير في وضعها الموضع التوجيهي والإعلامي والتعليمي اللائق.. بل قل لهم: أليس السكوت الرسمي أشبه بالتأييد الضمني عند مقارنة فظاعة ما تقترفه الأنظمة ضد أدنىٰ لمس للذوات الحاكمة.. فلماذا؟

ستظل هذه الغمة جاثمة علىٰ الصدور ما اختلف الليل والنهار ما لم ينبر لها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، حملوا الرسالة وأدوا الأمانة، وتخلصوا من هوىٰ النفوس وعبادة الفلوس.

السُّنَّة الخامسة

حِسبان النتائج المتوقعة من الخطوات التغييرية المصيرية

إذ قد يكون الواقعُ المؤلمُ خيرًا من واقعٍ أكثر إيلامًا

ربَّ يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

وقد تكون المفاسد الواقعة المختلطة بمصالح محدودة خيرًا من تغيير يفضي إلىٰ مفاسد أكثر شمولًا، ومصالح أقل وجودًا.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، ويدخل في ذلك سنة أخرىٰ هي الاستيثاق من صدق العزيمة، والاستعداد للنهوض بالتبعة الثقيلة،

يعنىٰ هل الأمر كما أتوقعه أنكم لا تقاتلون؟

وهذا السؤال جمع فيه بين ثلاث جهاتٍ:

الأولىٰ: جهةٌ تُذَكِّرُهم بالتاريخ السابق لهم مع موسىٰ عليه السلام، ومع الأنبياء الذين عصوهم.

والثانية: جهة مصارحتهم بخطورة اتخاذ قرارٍ مثل قرار مقاتلة العدو، مع توقعه أن يقع الخِذلان بدليل الماضي الذي يشير إلىٰ جبنهم، وكذبهم، ومجادلتهم، وكأنه يقول لهم: إن كنتم ستفعلون ما درجتم عليه مع الأنبياء السابقين من الانسحاب ساعة الصفر، فلا داعيَ لما طلبتم؛ إذ الواقع القائم خير من الالتحام غير المتكافئ، وقد يترتب علىٰ الالتحام لفت أنظار العدو، واستفزازه في وكره، وتحريك همته للقضاء

علىٰ البقية الباقية، وربما زيادة الانتقام من الأبناء الأسارىٰ، والديار المحتل.

والثالثة: جهة يظهر فيها التحضيض لإثبات دعواهم، والتحريض علىٰ أن يكونوا أصحاب كلمةٍ نافذة، وليس مجرد تلاعبٍ لفظي، وذلك ليأنفوا من أن يحدث منهم عند المواجهة ما تخوف منه وصارحهم به، وتأمل في التعبير ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ فبناه للمفعول صيانةً لاسم الفاعل عن مخالفةٍ يتوقع تقصيرهم بها[١].

والقراءتان الواردتان[٢] في قوله ﷻ: ﴿عَسَيْتُمْ﴾ تنبئان عن مشهدين:

فقراءة نافع بكسر السين تدل علىٰ أن بعضهم يترك القتال عن ضعف وانكسار؛ إذ يرىٰ في نفسه أنه أضعف من القدرة علىٰ المواجهة، فيفزعه ذلك، ويختار الانسحاب، وأما قراءة الجمهور بفتح السين فتدل علىٰ أن بعضهم يترك القتال عن قوةٍ؛ إذ آتاه الله ﷻ الإمكانات اللازمة، والقدرة علىٰ المواجهة لكنه يختار العناد، والخِذلان.. كذا مال البقاعي ﷺ نقلًا عن الحرالي ﷺ، ولم يرتض قول جمهور المفسرين بأن الفرق بينهما لغوي أدئي محض (لهجي)، والتفريق الذي ذكره البقاعي ﷺ لا يوجد ما يدل عليه –فيما أعلم– إلا أن يرىٰ أن الكسرة انكسار، والفتح ارتفاع.. وهذا التعليل عليل؛ إذ لا يأوي إلىٰ ركنٍ وثيق من العلم ما عدا اللمحات التفسيرية الإشارية.

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤١٠.

(٢) انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج ٢، ص ٢٣٠.

السُّنَّة السادسة

تحديد المعنى الصحيح لمصطلح (في سبيل الله) حتى لا يصبح عبئًا، ولا مصدر إرعاب لأصحابه وللعالم، ولا يستغل للعبث الشخصي ليصبح مصدر إجرام

وقد حدد الملأ بصورةٍ واضحة أحد المعالم التي توضح معنىٰ هذا المصطلح القرآني الرفيع بأنه القتال إخلاصًا لله ﷻ لأجل حماية الديار والعيال فقال الله جل ذكره: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦]:

فطريق الخلاص من حالة الاستضعاف يبدأ بانتفاضة العقيدة في القلوب، ويقظة الإيمان في النفوس. فالقتال من أجل إنقاذ الأبرياء، أو للحماية من الجرائم الواقعة، أو للحماية الرادعة، وعبر عن الذين يجب إنقاذهم بالأبناء مع دخول غيرهم من المستضعفين من الرجال والنساء؛ ليبين جل ذكره أن الإنقاذ من الظلم مطلوبٌ في ذاته بغض النظر عن دين المستضعف، فحاله مثل حال الأبناء الأبرياء الذين لم يرتكبوا إثمًا، ولم يحتقبوا فسقًا.

ويكون معنىٰ قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ﴾ وما منعنا ألا نفعل.. ما الذي يمنعنا ألا نقاتل في سبيل الله ﷻ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فإن قوله تعالىٰ جده: ﴿وَمَا لَنَآ﴾ بمعنىٰ: ما منعنا كما قال ربنا جل ذكره: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [سورة الأعراف: ١٢]، ثم قال في سورة أخرىٰ في نظيره: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: ٣٢]، فوضع ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ موضع ﴿مَا لَكَ﴾، لاتفاق معنييهما، وإن اختلفت ألفاظهما[1]، وكأنهم

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٣٠١.

يشعرون بالعار، ويستنكرون أن يخطر في بالهم النكوص عن القتال عند ساعة الصفر؛ لأنه لم يبق لهم شيء يحافظون عليه، ويقرب الكسائي ﷺ هذا المفهوم من كلمات الآية، فيقول في معناها: أي شيء يمنعنا أن نقاتل وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، أي ففقدنا كل شيء، فصار الموت أحب إلينا من مثل هذه الحياة، وبنوا الفعل ﴿أُخْرِجْنَا﴾ للمجهول؛ لأنهم يركزون علىٰ مجرد الإخراج بغض النظر عن فاعله، فهو جريمةٌ تستحق أن تُقاوَم، حتىٰ لو كان فاعل الإخراج بعض الخونة من قومهم، وذكروا الديار أولًا؛ لأنها في قيمتها كالأبدان؛ إذ هي مكان تربية الأبناء، وتنمية الكرامة، ورعاية الأسر أصولًا وفروعًا.

وقد تتساءل هنا: كيف كان هذا الإخراج؟

والجواب: الإخراج من ديارهم وأبنائهم له صورتان تحتملهما الآية:

الصورة الأولىٰ: أن يكون المراد أن العدو غلب علىٰ ديارهم وأسر أبناءهم، وخرج الذين استطاعوا الهرب متحيزين إلىٰ مكانٍ آمن حتىٰ ينظروا كيف يصنعون.

الصورة الثانية: أن يكون المراد أن العدو هزمهم في دارهم، وقهرهم، واستاق من أبنائهم وذويهم جملة من الأسارىٰ ثم تركهم في ديارٍ خربة، ونفوس ذاوية، وعقول محبطة.

انظر إلىٰ هذا الحُسن العظيم في عرض القصة، وتأمل التركيز!.. الغرض من القصة أنهم وقعوا فريسة مرحلة الاستضعاف..

ليس الغرض التفكه التاريخي ببيان سبب إخراجهم من ديارهم وأبنائهم؛ إذ إن المراد بيان سنن النصر الإجرائية التي اتبعوها للخروج من هذه المرحلة المؤلمة، وتوسيعها لتشمل أحداثًا أخرىٰ قد يشوش علىٰ الهدف الأصلي من إيرادها.. لعل

هذا ما يجعل عند المرء إعراضًا عما يورده بعض المفسرين هنا من تفصيلٍ غير متيقنةٍ أحداثه مثل الذي يرويه محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه من قصة إخراجهم من ديارهم وأبنائهم، حيث ذكر حديثًا طويلًا[١] في خلافة الأنبياء علىٰ بني إسرائيل نبيًا إثر نبي، وتغير بني إسرائيل؛ إذ صاروا فارهين ممكنين في الأرض، حتىٰ عبدوا الأوثان، فسلط الله عليهم عدوًا من سوىٰ أنفسهم، فاستباح ما في أيديهم وأسر نساءهم وأبناءهم، وبقيت بقيةٌ هربت من لقاء عدوهم، يتمردون علىٰ أنبيائهم حتىٰ قامت هذه النخبة التي علمت ألا ملجأ من الله ﷻ إلا بالتوبة إليه، فهبت تذعن أمام نبيها صموئيل عليه السلام.

وفي سفر صموئيل الإصحاح الرابع بيانٌ لمعركة وقعت بين الفلسطينيين والإسرائيليين فاز فيها الفلسطينيون، وأخذ منهم تابوت عهد الرب، وقتل - حسب هذه الرواية - ثلاثون ألف إسرائيلي، ومن أسباب ذلك فسق ابني كاهنهم الأكبر عالي، ومما جاء فيه:

١٠ فحارب الفلسطينيون، وانكسر إسرائيل وهربوا كل واحدٍ إلىٰ خيمته. وكانت الضربة عظيمةً جدًّا، وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل.

١١ وأخذ تابوت الله، ومات ابنا عالي حفني وفينحاس[٢].

ومن أسباب الهزيمة أن إسرائيل مالت إلىٰ عبادة الأصنام بصورةٍ غير متوقعة، وعند قراءتك السفر تشعر باختلاط الخرافات بالواقع عندما تجد أمورًا كثيرة تتناقض مع مقتضيات الإيمان، وتغلب علىٰ الصياغة العنصرية في عبادة الله ﷻ بدلًا من أن تزيلها.

(١)()الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٢٩٦.

(٢) فكري، سفر صموئيل الأول ص ٣٢.

السُّنَّة السابعة

إعداد الخطط البديلة التي تستوعب حدوث انتكاسة متوقعة ممن يزعمون مناصرة المبادئ

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله عزَّ جارُه: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، وهذا يعني أيضًا الحذر من الأدعياء في الابتداء.

وهذه السنة تقتضي أن تعد نفسك لأسوأ الاحتمالات؛ فإن الدعاوىٰ العريضة تمد أذرعتها في بداية الأمر، حتىٰ إذا أزفت الآزفة، وظهرت الحقيقة انسحب كثيرٌ من أصحاب الدعاوىٰ، وهرب من عرفتهم أقوياء في لحن القول كما قال المتنبي:

ذي المَعَالي فلْيَعْلُوَنْ مَن تَعَالىٰ هَكَذا هَكَذا وَإلاّ فَلا لا
شَرَفٌ يَنْطِحُ النّجومَ برَوْقَيْـ ـهِ وَعِزٌّ يُقَلْقِلُ الأجْبَالا
يَنفُضُ الرّوْعُ أيديًا ليسَ تدري أسُيُوفًا حَمَلْنَ أمْ أغْلالا
وَوُجوهًا أخافَها مِنكَ وَجْهٌ تَرَكَتْ حُسْنَهَا لَهُ وَالجَمَالا
وَالعِيانُ الجَليُّ يُحْدِثُ للظّـ ـنّ زَوالًا وَللمُرادِ انْتِقالا
وَإذا ما خَلا الجَبَانُ بأرْضٍ طَلَبَ الطّعْنَ وَحدَهُ وَالنّزالا
أقْسَمُوا لا رَأوْكَ إلاّ بقَلْبٍ طَالَما غَرّتِ العُيُونُ الرّجَالا[1]

وقوله ﷻ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ يبصرنا بأن الأصل في الإسلام السلم والسلام، ولكن القتال كُتب لمواجهة التوحش المحلي والعالمي الذي أحاط بالقوىٰ الصالحة في الأرض، فمن طلب الحرب دون حاجة للمواجهة كان منحرفًا، كما أن

(١) سبيتي، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، ج ٢، ص ١٦٧.

من نكص عنها عند الاحتياج لها كان منحرفًا أيضًا، وكلاهما ظالمٌ لنفسه، ظالمٌ للبشرية التي تئن تحت وطأة الحروب الظالمة التي تُشَنُّ عليها.

إن هاتين الجهتين تمثلان طرفي انحرافٍ في الواقع البشري.

ولقد رأيت النبي ﷺ يكره شن الحروب ولقاء العدو، ولذا قال ﷺ: «

أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[(١)]..

قال الحرالّي رحمه الله: «ففيه إشعار لهذه الأمة بأن لا تطلب الحرب ابتداءً، وإنما تدافع عن منعها من إقامة دينها كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج ٣٩] وكان عليه الصلاة والسلام يردد:

والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

فحق المؤمن أن يأبىٰ الحرب ولا يطلبه؛ فإنه إن طلبه فأوتيه عجز كما عجز هؤلاء حين تولوا إلا قليلًا، فهذه الأقاصيص ليس المراد منها حديثًا عن الماضين وإنما هو إعلام بما يستقبله الآتون: إياك أعني واسمعي يا جارة! فلذلك لا يسمع القرآن من لم يأخذه بجملته خطابًا لهذه الأمة بكل ما قص له من أقاصيص الأولين»[(٢)].

(١)()البخاري، برقم٢٩٦٥.

(٢) البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤٠٧.

السُّنَّة الثامنة

الحذر من الخسارة المبكرة في المعارك الحضارية بظهور الظلم البيني في الأفكار والأفعال

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٤٦]، فالظالمون هم من وضع الشيء في غير موضعه في العمل التنظيمي والإداري، والتعامل البشري.

الظالمون يضعون الأمور في غير مواضعها ليسهموا في جلب الخسارة المبكرة، وهم أصناف:

الصنف الأول: من ظلم نفسه وأمته بتشويه الجهاد، بأن حرَّفه عن أهدافه، وجعله سببًا في قتل الأبرياء بدلًا من أن يجعله سببًا في إنقاذهم، وصارت حقيقة أفعاله القتال للقتل نفسه، فسيطر عليه الغلو، وغلبت أهواؤه المستترة فظن أفعاله تضحية وقربانًا، وأضحىٰ لعبة بيد العمليات القذرة للمخابرات العالمية.

الصنف الثاني: من ظلم نفسه وأمته بترك الجهاد، فلم يدافع عنها، وانساق وراء الأوهام الشيطانية التي تمني الضحية بأن الذئاب يمكن أن يعقدوا معها صلحًا يصل بهم إلىٰ أحلام السلام، فهذا مقابل الصنف الأول من الظالمين.. فإن القتال لإنقاذ الأبناء والديار مدعاة للافتخار، لا للاعتذار.

الصنف الثالث: الكاذبون الذين يزعمون أنهم صُدُقٌ في اللقاء، صُبُرٌ عند منازلة الأعداء ثم ينتكسون في الواقع، فيولون الأدبار، ويحدثون الخلل، ويسببون الخسار.

مَنْ قَالَ لَا فِي حَاجَةٍ مطلوبة فَمَا ظَلَمْ
وَإِنَّمَا الظَّالِمُ مِنْ يَقُولُ لَا بَعْدَ نَعَمْ[١]

ويقول آخر:

إذا قلتَ في شيءٍ (نعمْ) فأتمَّهُ فإنَّ (نعمْ) دينٌ علىٰ الحُرِّ واجبُ
وإلا فقل (لا) تسترح وترح بها لئلا يقول الناس إنك كاذبُ[٢]

الصنف الرابع: الذين يضعون الشيء في غير موضعه، في التنظيم الإداري، فيولون من لا يستحق في مكانٍ، ويحرمون المتأهلين من أداء دورهم المتميز في القيام، وهنا نتذكر الانسجام المدهش الذي كان يميز أصحاب النبي ﷺ، فمكنهم الله عزَّ جارُه من إخضاع الدول الكبرىٰ في زمانهم، واضرب لهم مثلًا ما حدث يوم اليرموك عندما ولىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه القيادة العامة للقوات المسلحة التي التقت مع القوة الرومية التي تمثل القوة العظمىٰ الأولىٰ في الأرض.. لقد بادر أبو عبيدة رضي الله عنه باستشارة خالد رضي الله عنه الذي طُلِب منه تركُ منصبه، فقال خالد رضي الله عنه لأبىٰ عبيدة رضي الله عنه: أرسل إلىٰ أهل كل راية فمرهم أن يطيعوني، فدعا أبو عبيدة رضي الله عنه الضحاك بن قيس رضي الله عنه، فأمره بذلك، فخرج الضحاك رضي الله عنه يسير في الناس ويقول لهم: إن أميركم أبا عبيدة رضي الله عنه يأمركم بطاعة خالد بن الوليد رضي الله عنه فيما أمركم به.

فقال الناس: سمعنا وأطعنا، وقال ذلك أيضا معاذ بن جبل رضي الله عنه لما أنهىٰ إليه الضحاك أمر أبىٰ عبيدة رضي الله عنه، ثم نظر معاذ رضي الله عنه إلىٰ الناس فقال: أما إنكم إن أطعتموه لتطيعن مبارك الأمر، ميمون النقيبة، عظيم الغناء، حسن الحسبة والنية، قال

(١) البيتان لمنصور الفقيه المصري. الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ١٩٨١م، ص ١٠٥.
(٢) البيتان لابن أبي حازم. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١، ص ٢٠٥.

الضحاك: فحدثت خالدًا بذلك، فقال:

رحم الله أخي معاذًا، أما والله إن أحبني إني لأحبه في الله، لقد سبقت له ولأصحابه بسوابق لا ندركها، فهنيئًا ما خصهم الله ﷻ به من ذلك. قال الضحاك: فأخبرت معاذًا رضي الله عنه بما رد عليّ خالد رضي الله عنه، فقال: إني لأرجو أن يكون الله ﷻ قد أعطاه بصيرة علىٰ جهاد المشركين، وشدة عليهم مع بصيرته وحسن نيته في إعزاز دينه أحسن الثواب، وأن يكون من أفضلنا بذلك عملًا، فقال خالد رضي الله عنه، وقد لقيته بذلك: ما شيء علىٰ الله بعزيز[1].

(١) الكلاعي، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، ج ٢، ص ٢٦٨.

المشهد الثاني

إدراك مداخل الإخفاق في الانطلاق.. الحذر من الشهوات التي تجتاح قلوب الصديقين

ترىٰ في الآية الثانية إشاراتٍ نورانية تحدد لك سننًا جديدة لحماية القومة الناشئة حتىٰ لا تصاب بالإحباط، وتركن إلىٰ اليأس، وهذه السنن تتحدث عن عقباتٍ حقيقية لا تنشأ عند العوام، ولا عند الهزالىٰ والكسالىٰ من الطغام، بل تغزو أصحاب القلوب السليمة، والنفوس المستقيمة. وتتمثل في الآتي:

قال تعالى:

قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ

[البقرة: ٢٤٧]

السُّنَّة الأولى

عدم التفاعل الإيجابي مع القومة الصادقة، والتغلب على حالة الإحباط الناشئة عن السلبية التي سببها المرض القلبي

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ **فقد تفاعل نبيهم** ﷺ **مع حماستهم:**

وأخبرهم أن الله ﷻ قد حدد لهم ملكًا يكون لهم قائدًا عسكريًا، وسياسيًا، ومعنىٰ ذلك أنه ناجىٰ ربه، وسأله أن يحقق لهم الهدف الذي طلبوه، فحدد الله ﷻ له هذا الرجل ليكون القائد السياسي والعسكري المنتظر، وعدم التفاعل مع الحماسة التي تنبعث أمام المشاريع تؤدي إلىٰ القنوط، فيرتد أصحابها علىٰ أعقابهم خائبين، وانظر إلىٰ تفاعل النبي ﷺ مع حماسة الشباب.

فقد روىٰ البخاري بسنده عَنْ صَالِحِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ : بَيْنَا أَنَا وَاقِفٌ فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي، فَإِذَا أَنَا بِغُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ، حَدِيثَةٍ أَسْنَانُهُمَا، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ مِنْهُمَا، فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ : يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ، مَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي ؟ قَالَ : أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّىٰ يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ، فَقَالَ لِي مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَىٰ أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، قُلْتُ : أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي، فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا، فَضَرَبَاهُ

حَتَّىٰ قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ : أَيُّكُمَا قَتَلَهُ ؟ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : أَنَا قَتَلْتُهُ، فَقَالَ : هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا، قَالَا : لَا، فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ : كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، سَلَبُهُ لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ وَكَانَا مُعَاذَ بْنَ عَفْرَاءَ وَمُعَاذَ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ رضي الله عنهم [1].

وقد قيل:

وَلَا تَقْطَعْ شبابَ الحَيِّ يَأْسًا فإنَّ اليَأْسَ يَقْتَطِعُ الشَّبَابَا

(١) البخاري، رقم الحديث ٣١٤١.

السُّنَّة الثانية

التنازع على الرئاسة والزعامة من أهم الصفات النفسية المرضية المستترة عند أكثر الملأ

لا بد من الاعتراف بذلك للبحث عن دواء لهذا الداء الذي يدمر الحركات التحررية الصادقة، ويقضي علىٰ القومة الناشئة.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٢٤٧].

أسلوب القرآن يدل علىٰ أن القائلين المعترضين مجموعة منهم وليس جمعيهم، ولكن عدم الإنكار من الآخرين يجعل تصوير الكلام خارجًا مخرج الرأي الموحَّد، فانظر لنفسية الحسد التي لم يجاهدها العقل ولا الجسد.. هم قبل قليل يطلبون من النبي أن يحدد لهم ملكًا يبعثه بين النفسيات التي ألفت الذل، لكنهم ما لبثوا أن اعترضوا لما حدد لهم واحدًا لم يختره من عند نفسه إنما اختاره ربه جل وعز، والتنازع علىٰ الرئاسة من أهم أسباب الفشل المبكر، وغالبًا ما ترىٰ هذا التنازع بين الصالحين لا ينفك عنهم، وكلهم يدعي أنه يريد مصلحة الدعوة، ويغطي علىٰ مصلحته الشخصية بغشاء غليظ لا يبصره من حواليه، فما هو إلا أن يدمرهم هذا المرض القلبي، ويجعل مجدهم أثرًا بعد عين، وأشار الشاطبي رحمه الله إلىٰ أن الجاه وحب الترؤس له شهوته الصارخة؛ إذ كثيرٌ من الناس يدعي أنه القوي الأمين، والحفيظ العليم طالبًا مثوىٰ يوسف عليه السلام في قيادة الجموع، أو مبوأ موسىٰ عليه السلام في حراسة المجموع ليكون هذا الطالب في "مرتبة الإمامة والاقتداء، وللنفس فيها من اللذة ما لا مزيد عليه، ولذلك يعسر خروج حب الرئاسة من القلب إذا انفرد، حتىٰ قال الصوفية: حب الرئاسة آخر

ما يخرج من قلوب الصديقين! فكيف إذا انضاف إليه الهوىٰ من أصل، وانضاف إلىٰ هذين الأمرين دليل في ظنه شرعي علىٰ صحة ما ذهب إليه؟! فيتمكن الهوىٰ من قلبه تمكنًا لا يمكن في العادة الانفكاك عنه، وجرىٰ منه مجرىٰ الكلب من صاحبه"[(١)]، وفي المقابل يأخذ الهوىٰ بنفس صاحبه أخذًا شديدًا حتىٰ يعترض علىٰ تولية الآخرين دونه، فهذا قول بني إسرائيل اعتراضًا علىٰ نبيهم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾.. فعلىٰ من يعترضون؟ إنهم يعترضون علىٰ نبيهم في أمرٍ أبلغهم أنه من الله ﷻ لا من اجتهاد نفسه! أرأيت كيف يأخذ حظ الرئاسة من قلب صاحبه؟

(١) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ص ١٩٧.

السُّنَّة الثالثة

استخدام المقاييس الجاهلية في تولي المناصب الإدارية، وهذا يوجب البحث عن حلول تنظيمية مؤسسية لإيقاف ذلك في حركات القومة الصادقة

فقد حدد هؤلاء المعترضون مقياسين خطيرين في تدمير المشاريع، وهما:

المقياس الجاهلي الأول: شرف النسب، فقالوا: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾:

وإنما عنوا الأحقية بسبب النسب؛ إذ ذكروا المال لاحقًا، وذكر لهم النبي عليه السلام فضله في القوة والعلم، فلم يبق للأحقية معنىٰ هنا إلا النسب، وفي سفر صموئيل الأول الإصحاح التاسع بين نسب طالوت الذي يسمونه شاول، وأنه بنياميني، وبنيامين أصغر أسباط إسرائيل، وأقلهم منزلة بينهم.

ولاحظ أن الله عز وجل أراد أن يعلم الإسرائيليين أن التوريث في القيادة ليس السبيل الأمثل للنجاح في إدارة معارك الحياة لا في مجال الدفاع والتحرير ولا في مجال البناء والتعمير، وتجد في سفر صموئيل ما يدل علىٰ أن ابني صموئيل صارا فاسدين مرتشيين، وأراد الله جل ذكره أن يلفت نظر العالم إلىٰ أن اختيار القيادات المؤهلة من أهم أسباب النجاح في إدارة واقع الحياة، وأن من علامات الهزيمة المبكرة أن ينبعث من يتكلم في العلاقات الدولية، والأحوال السياسية، وهو لا يتقن قراءة القرآن، ولا يدرس تاريخ السنن المتغيرة في هذه الأكوان، إنما حظه الذي أهله للقيادة التوريث أو القرابة أو النسب!.

معايير إدارية لو اعتبرت مستقلة
كانت معايير فساد

قال تعالى:

قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ

[البقرة: ٢٤٧]

النسب والشرف

المال

ظلم

- احتكار الوظيفة
- تعطيل أصحاب الكفاءات
- تدمير المشروع وإفشاله

وقد لاحظ "هرير دكميجيان" – وهو من أوسع الخبراء الأمريكيين اطلاعًا علىٰ مسيرة الحركات الإسلامية – أن "تطور الحركة الأصولية الإسلامية سيتوقف علىٰ نوعية قيادتها السياسية والثقافية. وفي الظروف الحالية، تعاني الحركة بشكل جدي من القصور في قيادتها الفكرية والسياسية والتكتيتية، وقد عبر الأستاذ عمر عبيد حسنة عن ذلك بقوله: "إن هذه التنظيمات – في معظمها إن لم نقل كلها – انتهت إلىٰ لون من القيادات التي ظنت أن القيادة تعني الإشراف الإداري ... وعجزت عن إنتاج قيادات فكرية؛ ذلك أن هذه القيادات.. بطبيعتها الإدارية الرتيبة، تضيق ذرعًا بأي تطوير أو تفكير أو تغيير. وكل الذي يعنيها: الإبقاء والإصرار علىٰ صورة الماضي للمفكرين الرواد الأوائل، علىٰ الرغم من تغير الظروف والأحوال والمشكلات ... وعلىٰ أحسن الأحوال يمكن وصف تلك القيادات بأنها أغلفة لحفظ تاريخ الجماعات. وهذا الاستمرار الرتيب استدعىٰ بطبيعة الحال تقديم الخطباء علىٰ الخبراء.. "[١].

المقياس الجاهلي الثاني: كثرة المال، فقالوا: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾: «وإنما قالوا هذا لقصورهم في معرفة سياسة الأمم ونظام الملك، فإنهم رأوا الملوك المجاورين لهم في بذخة وسعة، فظنوا ذلك من شروط الملك»[٢].

والموافقة علىٰ هذين المقياسين تؤدي إلىٰ إلغاء فكرة العدالة، والبحث عن الكفاءات، وتدوير الوظيفة، وإبقاء الحرارة مشتعلة لخدمة الفكرة الأساسية.

(١) عمر عبيد حسنة، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٩٩٤م، ط٢، ص ٥٣.

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٢، ص ٤٩١.

السُّنَّة الرابعة

التشويش على الحق بعدما تبين

وهذا يقتضي الاستعداد لإيراد الشبه علىٰ الحق، وكثرة الجدل العقيم، وعدم الشعور بالصدمة؛ فإنهم طلبوا شيئًا أول الأمر، فلباهم النبي، وأخبرهم بأمر ربه ﷻ، فقاموا يجادلون في الحق بعدما تبين كأنما حدثهم عن الأوهام لا عن الملك العلام.

المَشْهَد الثالث

نور القيادة المصلحة يغير التاريخ، حيث اختار نبيهم القيادة المؤهلة لمرحلة الإعداد والمواجهة

لما ظهرت علامات الفشل علىٰ الجمع الإسرائيلي، وكاد النور الذي ظهر في البداية أن ينطفئ صبر نبيهم عليه السلام علىٰ صلف بعضهم، وتشويشه، وأخبرهم بالمقياس الحقيقي الذي ينبغي أن يأرزوا إليه، ويتكئوا عليه في اختيارهم للرجال؛ إذ المقياس الجاهلي الذي اعتمدوه يوشك أن يفسد عليهم وثبتهم، ويزيد حياتهم فسادًا، فأخبرهم نبيهم بالصفات الحقيقية التي ينبغي اعتمادها في اختيار الرجال. وهذه الصفات هي:

قال تعالى:

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ
وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ

[البقرة: ٢٤٧]

صفات القيادة المصلحة

- الاستعداد الفطري
  إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ
- التفوق العلمي
  (وزاده بسطة في العلم)
- القوة البدنية اللائقة
- الاختيار بالشورى

الصِّفَةُ الأولى
الِاسْتِعْدَادُ الْفِطْرِيُّ

ويُبَصِّرُنا به قوله تعالىٰ ذكره: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فالاصطفاء أخذ صفوة القوم، وخالصهم في الصفاء، والصفوة خالص الشيء، وخلاصته، ويكون الاصطفاء لأسبابٍ لا تخرج عن الاستعدادات البشرية إلا اصطفاء النبوة، فالله ﷻ أخبر أنه استخلصه من بينهم؛ وبذا فإن الصفات التي يتسم بها طالوت صفاتٌ بعضها كسبي وبعضها وهبي، وإنما قال ﴿ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ ليضمنه معنىٰ التفضيل والاختيار،كأنه قال: فضله واختاره عليكم «بِمَا أَوْدَعَ فِيهِ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ الْفِطْرِيِّ لِلْمُلْكِ، وَلَا يُنَافِي هَذَا كَوْنَ اخْتِيَارِهِ كَانَ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ ﷻ»[(١)].

ربما تقول: **لاحظ فإن النبي عليه السلام لم يقل (اصطفاه لكم)، بل ﴿ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾، فهل من فرق بين التعبيرين أم أن الأمرين سيان؟**

والجواب: هنالك فرق واضح تقتضيه دلالة ودقة اختيار التعبير القرآني، والفرق بينهما أن (اصطفاه لكم) يدل علىٰ الاختيار المحض الذي لا مكان فيه لرأي البشر، كما قال جل جلاله في موضع آخر: ﴿ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، أما ﴿ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ فيدل علىٰ أن الاختيار الإلهي جاء بسبب أمرٍ مشتركٍ فاقهم المختار فيه، وهذا الأمر المشترك يدل علىٰ إمكانية اختيار غيره إن حصل مانع يمنع من قيامه بمهام القيادة، وبذا ترسخ قواعد الإدارة والقيادة التداولية بمعايير الكفاءة.

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٧٨.

الصِّفَةُ الثانية

التفوق العلـمي الَّذِي يَكُونُ بِهِ التفوق في الميدان السياسي وإحكام التَّدْبِيرِ، وكمال الرأي

ويُبَصِّرُنا به قوله جل جلاله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

والبسطة: السعة والامتداد والانتشار والوفرة، فبين لهم نبيهم عليه السلام أن الله عز وجل زاد هذا الرجل بسطة أي امتدادًا وعمقًا في العلم، الذي يشمل النظر الديني، والنظر الدنيوي المناسب للدفاع والتحرير، والبناء والتعمير؛ وذلك ليستطيع النظر بصورة أكثر كمالًا عندما يريد تقويم الأحداث، كما سيتيح له هذا إدارة المعارك الحيوية بهيئة أكثر فعالية، والأهم أن ذلك يكسبه قدرة؛ ليكون أكثر عدالة في اختيار المسؤولين التنفيذيين والمشرفين، والقادة الميدانيين في المعركة مع جالوت وقومه، وفي حفظ المصالح والمكاسب والإنجازات التي تتحقق، كما أن بسطة العلم تؤدي إلىٰ الاختيار الموفق غالبًا عند اختلاف أهل الشورىٰ في القضايا المبحوثة.

فإذا كانت الزيادة في العلم من متطلبات القيادة، فبأي حق صارت كثيرٌ من القيادات المعاصرة قياداتٍ، وهي لا تملك الحد الأدنىٰ من التأهيل العلمي، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن بعض الأسباب المباشرة لتكون أمته مأكولة من الأمم في سنواتها المستقبلية العجفاء، فقال: «إنها ستأتي علىٰ الناس سنون خداعة يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة. قيل: وما الرويبضة؟ قال: السفيه يتكلم في أمر العامة»[1].

(١) أحمد، ج ٢، ص ٢٩١، برقم الحديث: ٧٨٩٩، وقال شعيب الأرناؤوط رحمه الله: حسن، وهذا إسناد ضعيف؛ لضعف عبد الملك بن قدامة، وجهالة إسحاق بن بكر بن أبي الفرات.

الصِّفَةُ الثالثة

التفوق الجسدي؛ ليكون محل القدوة في الميدان العسكري

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فوجود الحيوية والنشاط الذي هو ضد الخمول والهزال أمر ضروري، وما عرف عن أحد من كبار المصلحين وأهل التأثير ورواد الإصلاح والنهوض أنه كان يحمل فيروس الكسل، ولا ميكروب الخمول، الذي يؤثر علىٰ القوة العقلية والنفسية؛ لأن الجسد الهزيل المريض لا يمكن أن يوصل شحنة الحياة إلىٰ النفس توصيلًا صحيحًا، تقوم عليه بمهمتها ودورها فضلًا عن أن يوصلها إلىٰ العقل ولهذا قال حفني ناصف ﷺ:

ومتىٰ استقامَ الجسمُ أمكَنَ بعدَهُ حفظُ النهىٰ وصيانةُ الأفهامِ[١]

وقال الآخر:

إن الجسومَ إذا تكونُ نشيطةً تقوىٰ بفضلِ نشاطِها الأحلامُ[٢]

فالقوة الجسدية من متطلبات القيادة في الأعمال الميدانية والعسكرية؛ إذ صاحبها يثير الحماسة في نفوس جنوده، ويقدم القدوة اللازمة ليتنافس الناس علىٰ تقليده، ولكن الحاجة إلىٰ بَسْطَةِ الْجِسْمِ تختلف حسب نوع المسؤولية؛ إذ قد لا تكون الحاجة إليها ماسة إن كانت المسؤولية استشارية، أو علمية، أو تخطيطية؛ ولذا قدم العلم علىٰ القوة، فهو أساس إدارة القوة، كما قال المتنبي ﷺ:

---

(١) أحمد قبش، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ص ٦٧.

(٢) القرني، أحمد بن علي، الإبداع العلمي: دراسة تأصيلية تكشف أسس التفوق في المجال العلم، ومقوماته ووسائل تحصيله،، ص٣١.

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا همَا اجْتَمَعَا لنَفْسٍ حُرّةٍ بَلَغَتْ مِنَ العَلْياءِ كلّ مكانِ
وَلَرُبّما طَعَنَ الفَتىٰ أقْرَانَهُ بالرّأيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الأقرانِ
لَوْلا العُقولُ لكانَ أدنَىٰ ضَيغَمٍ أدنَىٰ إلىٰ شَرَفٍ مِنَ الإنْسَانِ
إنّ السّيُوفَ معَ الذينَ قُلُوبُهُمْ كقُلُوبهنّ إذا التَقَىٰ الجَمعانِ
تَلْقَىٰ الحُسامَ علىٰ جَرَاءَةِ حدّهِ مثلَ الجَبانِ بكَفّ كلّ جَبَانِ[1]

ولفظ (الزيادة) هنا يعبر بها عن وجود مقاربين له، لكنه كان أكثرهم تأهلًا.

وفي سفر صموئيل الأول في الإصحاح التاسع ٢ ذكر شَاوُلُ وتفوقه الجسدي، وأنه شَابٌّ وَحَسَنٌ، وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحْسَنَ مِنْهُ. مِنْ كَتِفِهِ فَمَا فَوْقُ كَانَ أَطْوَلَ مِنْ كُلِّ الشَّعْبِ[2].

وقد زعموا أن الاسم العربي له طالوت يدل علىٰ أنه كان زائدًا في طوله علىٰ بقية شعبه، ولعل (طالوت) لقب اشتهر به؛ لطوله، واسمه شاول، وأبان الله ﷻ إحدىٰ الصفات القيادية التي ميزته بهذا اللقب.

ومما يتراءىٰ لنا بالتبصر في قوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أن الله بمحض جوده، وكمال رعايته لأحوال عباده يصطنع علىٰ عينه من يقوم بأمانة دينه، والانتصار له؛ فيؤهله ويربيه وينميه؛ ليقود ركب النهوض ويسير براية الحق بما امتن عليه ربه من قوة العقل واستحكام الفطنة، ووفرة الهمة والقوة المعنوية والجسدية.

(١) المتنبي، ديوان المتنبي، ص ٤١٤، ٤١٨.

(٢) فكري، سفر صموئيل الأول، الإصحاح التاسع ص ٤٧.

الصِّفَةُ الرابعة

اجتياز الاختبار بين الأقران؛ ليدل على التَوْفِيق الإلهي

سواء أكان هذا الاختبار حقيقيًّا، أو حل محله ما يشبهه، وهو الذي وقع هنا؛ إذ لم يذكر لنا أن هناك اختبارًا قد وقع بل اختيارًا إلهيًّا، ويُبَصِّرُنا به قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فلم يعد من داعٍ للاضطراب والاختلاف والشقاق، بل يجب التركيز علىٰ الأهداف الموضوعة لهذا المنصب.

﴿يُؤۡتِي﴾ : الإيتاء كلمة مميزة يظهر عندي أنها تعبر عن نوعٍ خاصٍّ من الإعطاء، وليس عن كل إعطاء، فتعني: الإعطاء القائم علىٰ أن يهيئ المعطِي للمعطَىٰ له ما يليق به؛ ليقدر علىٰ تناول المعطَىٰ أو القيام بحقوقه، ولم يذكر أن المال يؤهل صاحبه للقيادة؛ لأن الذي يتصف بهذه الصفات يسهل عليه جلب المال، وتدبيره، ولذا ختم الله جل ثناؤه الآية بقوله:﴿ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ فهو واسعٌ أي ذو سعة فيما يملكه، موسِّعٌ فيما ينفقه، يمنح الهبات والقدرات والفضل المناسب لمن يعلم أنه يستحقه، وهاتان الصفتان تفتحان الأفق أمام السامعين ليشعروا بأنه بعد بذل الأسباب سيفتح الله ﷻ للمؤمنين بالغيب من كل شيء سببًا لينالوا من سعة فضله الثروات اللازمة لإقامة الأمة وتنشئتها الحضارية، فهو العليم بحاجاتها المختلفة، والعليم بطرق جلب القوىٰ الاقتصادية المختلفة.

ولعلك ترىٰ هنا تناسبًا بين ما ذكره المعترضون علىٰ تولية طالوت القيادة من قلة ماله، وبين الآية السابقة التي أمر الله ﷻ فيها بالقرض الحسن ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ

ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥]؛ إذ المال ليس مؤهلًا للقيادة، ولكن القائد ينبغي أن يفكر في كيفية إدارة الإمكانات المالية المتوفرة عند قومه، ولا بد أن يبادر الجميع عند ذلك لتبادل القروض ليتم الاستثمار، ويقل العجز، ويبارك في التبادل التجاري الذي يكون مبدؤه القرض، وينسب إلىٰ أرسطاطاليس أن «المَال تجلبه الرَّعِيَّةُ»، والآية أقوىٰ وأقوم، فإن القرض الحسن يظهر أنفع ما يكون إذا استخدمه المقترض في التنمية الاستثمارية، ويتلوه في المرتبة القرض الاستهلاكي.

وهذه الجملة تقتضي أيضًا أنه بعد الاختيار ينبغي التسليم، والرضا، وعدم المشاقة وكثرة التشويش والجدل، والتوفيق الإلهي قد يأتي ابتداءً ولكنه غالبًا ما يأتي بناء علىٰ سعيٍ سابقٍ في الأمور الممكنة كما قال الملك الحق جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وليس إسناد الإيتاء إلىٰ المشيئة يعني أن تظن أن الأمور تقع جزافًا.. كلا بل أخبرنا الله جل في علاه أن المشيئة الإلهية تتم علىٰ وفق الحكمة، فهو يقول عزَّ جارُه: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٖ﴾ [الرعد: ٨] «أي: بنظام وتقدير موافق للحكمة، ليس فيه جزاف، ولا خلل »[(١)]، ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾ وفق حكمةٍ بالغة، وترىٰ في تداول الأيام أن ممن يحوز الملك، الصالحون في ذاتهم وعلاقاتهم مع ربهم، وعلاقاتهم مع الوجود حولهم، ومن صلاحهم الاستفادة من الأسباب المادية للوصول إلىٰ وراثة الأرض، كما قال ربنا جل ذكره: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء٢١: ١٠٥]

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٧٩.

فاقرن بين هذه الآية وبين قوله عزَّ جارُه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج ٤٠، ٤١]، ومثل علىٰ أحقية الصالحين بأرض الله يستعمرونها ويمكنون فيها تجد أن الله تعالىٰ جده يبين أن العاقبة للمتقين فيقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] «فالمتقون في هذا المقام – مقام استعمار الأرض والسيادة في الممالك – هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد وضعف الأمم، وهي الظلم في الحكام، والجهل وفساد الأخلاق في الدولة والأمة، وما يتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل، والصالحون في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم بحسب استعدادها الاجتماعي»[(١)].

إنك لتشعر بالوجع عندما تسمع من يستدل بمشيئة الله ﷻ علىٰ القبول بهزائمنا، وانتكاساتنا.. تكلمه بحرقة فيقول لك ببرود: إنها إرادة الله.. أفق! وفقك الله ﷻ.. أفق؛ فإنك تسعىٰ جاهدًا لرزقٍ لأولادك، فما بالك تترك السعي فيما فيه شرفك؟ ولقد أعجبني مثلٌ يتناقله بعضهم عن رجلٍ لم يصل الفجر، لكنه جاء وقت دوامه، فسأله صاحبه أصليت الفجر؟ قال: لا! ادع لي. فقال له: سأفعل، وارجع إلىٰ بيتك الساعة. قال له: لماذا؟ قال: لأني سأدعو لك بأن تصلي وأن يرزقك الله ﷻ إن كان الدعاء يكفيك عن الدوام.. ألا ترىٰ أن الله ﷻ أمر عباده بترك البيع للمحافظة علىٰ سببٍ شرعي من أسباب العز الفردي والجماعي، وهو حضور صلاة الجمعة ثم قال بعد ذلك: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٧٩.

كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠].

فجعل من أسباب الفلاح: أن ينتشر الناس بعد الصلاة، وأن يبتغوا من فضل الله ﷻ رزقًا وتجارة وعملًا وعلاقات أسريةً وتجارية وإنسانية، علىٰ أن يصطحبوا السبب الشرعي الذي يمكن الذي يمكنهم أن يؤدوه أثناء تجارتهم وانتشارهم في الأرض، وهو ذكر الله.

هذا هو الإسلام: انتشار في الأرض لتغيير الحياة إلىٰ الأحسن، وذكرٌ لله لا يفارق الإنسان سواء أكان في صَلاته أم في صِلاته أم في تجارته.

الصِّفَةُ الخامسة

أن يكون اختياره للقيادة بطريق شرعي

وأعظم السبل التي تمنح الشرعية الحقيقية للاختيار القيادي: الشورىٰ، فهي السبيل الذي يبين قوة الاختيار بالاصطفاء العام.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]:

وهنا ينبغي أن نميز بين الاصطفاء الإلهي وبين الاختيار البشري:

ففي حال وجود الاصطفاء الإلهي بسبب إخبار نبي، فإن المؤمنين يقولون سمعنا وأطعنا، وقد أظهر الله جل جلاله علامة لبني إسرائيل؛ ليبين الاختيار الإلهي لطالوت، لعلمه بنفسيتهم المعاندة الصلفة، فقد وصفهم موسىٰ عليه السلام، كما في التوراة الحالية في سفر التثنية:

٣١: ٢٧ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحري بعد موتي[(١)].

فأظهر لهم آيةً من الآيات الدالة علىٰ حكمة الاختيار، وقال الله جل جلاله عنها: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]، والتابوت ورد ذكر صناعته في سفر الخروج عندما

---

(١) القس أنطونيوس فكري، سفر التثنية، ص ١٢٦.

كلم الله ﷻ موسىٰ عليه السلام في الأربعين ليلة، وذُكِرَ في السفر عجائب في كيفية صنعه.

إلىٰ أن قال:

٢٥: ١٠ فيصنعون تابوتًا من خشب السن، طوله ذراعان ونصف، وعرضه ذراع ونصف، وارتفاعه ذراع ونصف.

٢٥: ١١ وتغشيه بذهب نقي من داخل، ومن خارج تغشيه، وتصنع عليه إكليلًا من ذهب حواليه. **ثم قال:**

٢٥: ٢١ وتجعل الغطاء علىٰ التابوت من فوق، وفي التابوت تضع الشهادة التي أعطيك.

ثم ذكر عجائب لا نملك أمامها تصديقًا ولا تكذيبًا، في صنع مائدة ومسكن، يعني به خيمة الاجتماع، وبين كيف ينصب أبناء هارون عليه السلام ليكونوا كهانًا مقدسين علىٰ وفق تفاصيل فيه طقوس مستغربة.

ويرىٰ الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله أن سبب ذلك –يعني إن كان ثابتًا– « أن بني إسرائيل كانوا – وقد استعبدهم وثنيو المصريين أحقابًا – قد ملكت قلوبهم عظمة تلك الهياكل الوثنية، وما فيها من الزينة والصنعة التي تدهش الناظر، وتشغل الخاطر، فأراد الله تعالىٰ أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه سبحانه وتعالىٰ وتذكِّر به، فالتابوت سمي أولًا تابوت الشهاد؛ أي: شهادة الله سبحانه، ثم تابوت الرب، وتابوت الله، كذلك أضيف إلىٰ الله تعالىٰ كل شيء صنع للعبادة، وهذا مما يدل علىٰ أن تلك الديانة ليست دائمة، فلا غرو إذا نسخ الإسلام كل هذا الزخرف والصنعة من المساجد التي يعبد فيها الله تعالىٰ، حتىٰ لا يشتغل المصلي عن مناجاة الله ﷻ بشيء منها، وما كُلِّفَه ذلك الشعب الذي وصفته كتبه المقدسة بأنه

صلب الرقبة، أو كما تقول العرب (عريض القفا) علىٰ قرب عهده بالوثنية، وإحاطة الشعوب الوثنية به من كل جانب، لا يليق بحال البشر في طور ارتقائهم؛ إذ لا يُرَبَّىٰ الرجلُ العاقلُ بمثل ما يُرَبَّىٰ به الطفل أو اليافع»[١].

وكانت بنو إسرائيل إذا لقوا عدوًا لهم اصطحبوا التابوت معهم يتبركون به، ويستنصرون، فينصرهم الله تعالىٰ مجده، فلما كثرت معاصيهم، ورجع لهم تمردهم المعروف، هزمهم أعداؤهم، وأخذوا التابوت منهم، فانكسرت قلوبهم، ولحكمة تداول الأيام رد الله ﷻ إليهم التابوت علامة علىٰ المجد الذي يخبئه لهم في ظل قيادة طالوت، ومما جاء في سفر صموئيل مما يشير إلىٰ التابوت في الإصحاح الرابع:

٢- «اصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل، واشتبكت الحرب، فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين، وضربوا من الصف فىٰ الحقل نحو أربعة آلاف رجل»..

٣ - «فجاء الشعب إلىٰ المحلة. وقال شيوخ إسرائيل: لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين؟ لنأخذ لأنفسنا من شِيلُوه تابوت عهد الرب، فيدخل فىٰ وسطنا، ويخلصنا من يد أعدائنا»[٢]. فالتابوت كان علامة يستفتحون بها علىٰ الذين كفروا، و(التابوت): فَعْلوت من التَّوب، وهو الرجوع؛ لأنهم يرجعون إليه، أي: علامة ملكه إتيان التابوت الذي أخذ منهم، أي: رجوعه إليكم، وهو صندوق التوراة. و(السكينة): فعيلة مأخوذة من السكون، والوقار، والطمأنينة أي: فيه سبب سكون قلوبكم فيما اختلفتم فيه من أمر طالوت[٣]، ثم إن أمور أعدائهم حسب سفر صموئيل اضطربت، وشعروا بأن ذلك بسبب وجود التابوت بينهم، فبقي التابوت سبعة أشهر عندهم،

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٣٨٤.

(٢) الأرشيدياكون نجيب جرجس، تفسير سفر صموئيل الأول، ص ٥٠.

(٣) الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ٣٠٣.

فأعادوه إلىٰ بني إسرائيل، ولم يجعل السِّفْر ذلك موافقًا لقصة طالوت، بل ذكر قصة طالوت بعد، وها هو القرآن يسد هذا الخلل، ويصحح الفكر الإسرائيلي، فيبين أن عودة التابوت اقترن بإقناع بني إسرائيل بملك طالوت.

كانت بنو إسرائيل يستفتحون بالتابوت علىٰ أعدائهم حتىٰ أضاعوه بعد شيوع فسقهم بلا رجعة، فصاروا يستفتحون بالنبي الخاتم ﷺ علىٰ أعدائهم حتىٰ بعث ﷺ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٨٩].

والآية واضحة الكلمات بين الله ﷻ فيها أن التابوت تحمله الملائكة عند إعادته لبني إسرائيل، وذكر هذا النبي المكرم أنه يوجد في التابوت شيئان:

سكينة من الله ﷻ، وبقية مما ترك آل موسىٰ وآل هارون٣، فأما السكينة فهي من السكون ضد الحركة، ذكر في معناها أقوال رجح الطبري ﷺ، منها ما قاله عطاء بن أبي رباح ﷺ: من الشيء تسكن إليه النفوس من الآيات التي تعرفونها، ونقل عن بعضهم أن السكينة شيء مجسد علىٰ صُورَة مِنْ زَبَرْجَدٍ أَوْ يَاقُوتٍ، لَهَا رَأْسٌ كَرَأْسِ الْهِرِّ، وَذَنَبٌ كَذَنَبِهِ، وزعموا أنها تقاتل معهم، ولا أظننا نحتاج لهذا الوصف الذي لم يثبت عليه دليل، وتكثر في التخرص فيه الأباطيل، وذهب بعضهم إلىٰ أنها ريح تهب من التابوت يفتح الله ﷻ لهم بها، كما أن هذه الأمة تؤيد بريح الصبا فقد قال النَّبِيُّ ﷺ : «نُصِرتُ بِالصَّبَا، وَأُهلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[(١)]، ولعله يكفي أن نعلم أَنَّ السَّكِينَةَ عبارَةٌ عَما يجده المرء من سكون النفس وثباتها المطمئن، وما تجلبه من الشعور بالأمن، كما في قِصَّةِ الغَارِ، حيث قال ربنا جل ثناؤه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال عزَّ جارُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ﴾ [الفتح: ٤]، وحرف ﴿في﴾ إما أن يكون

(١) البخاري، رقم الحديث: ١٠٣٥.

للسببية بالنسبة للسكينة، أي تجدون السكينة بسببه، وإما أن يكون للظرفية، والمراد ما تشعرون به من السكينة، ويحتمل أن الذي يجلب هذه السكينة ملائكة خاصة بها.

وتشعر بهذا عندما تجمع بين حديثين، فقد بوب البخاري رحمه الله: باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، ثم روىٰ عَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ إِذْ جَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الْفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الْفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَىٰ قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّىٰ مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم فَقَالَ: «**اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَىٰ وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّىٰ لَا أَرَاهَا، قَالَ: وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَىٰ مِنْهُمْ**»[(١)]، فذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هنا الملائكة، وذكرها في حديث آخر مسميًّا إياها السكينة، فعن البراء رضي الله عنه يقول: بينما رجل يقرأ سورة الكهف إذ رأىٰ دابته تركض، فنظر؛ فإذا مثل الغمامة أو السحابة، فأتىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «تلك السكينة نزلت مع القرآن، أو نزلت علىٰ القرآن»[(٢)].

وأما (البقية)، هو الشيء الباقي مما خلفه آل موسىٰ وآل هارون، ولعل من ذلك عصا موسىٰ عليه السلام، ورُضاض الألواح أي ما تكسر منها، ويحتمل أنها من بقايا ثياب النبيين العظيمين عليهما السلام، وخاصة أنه ورد في التوراة أن موسىٰ عليه السلام ألبس ثيابًا خاصة لهارون عليه السلام ليكون كاهنًا لبني إسرائيل في خبرٍ طويل لا نصدقه ولا نكذبه، ويجوز

(١) البخاري، رقم الحديث: ٥٠١٨.

(٢) سنن الترمذي، ج٥، ص ١٦١ رقم الحديث: ٢٨٨٥، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني. في صحيح سنن الترمذي، ج ٣، ص ١٥٥.

أن يكونَ المُرَادُ مِنْ ﴿ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ هو مُوسَىٰ وهَارُونَ عليهما السلام أَنفُسَهُمَا، ولفظ(آل) مقحمة؛ لتفخيم شأنهما، كما قال ﷺ لِأَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه: «لقد أوتيَ هذا مزمارًا من مزامير آل داود عليه السلام»[١]، وَأَرَادَ بِهِ دَاوُدَ نَفْسَهُ، وقيل المراد: الأنبياء من بني يعقوب عليهم السلام؛ لأنهما من ذرية يعقوب عليه السلام، فسائر قرابته ومن تناسل منه آل لهما[٢]، ويحتمل أنه آل موسىٰ وآل هارون توارثوا بعض آثار موسىٰ وهارون عليهما السلام ووضعوها في التابوت نفسه.

والظاهر أن التابوت كان يحوي التوراة مكتوبة؛ إذ لم يؤثر عن الأحبار أنهم كانوا يحفظونها عن ظهر قلب.

وفي سفر التثنية:

٣١: ٢٤ فعندما كمل موسىٰ كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلىٰ تمامها.

٣١: ٢٥ أمر موسىٰ اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلًا:

٣١: ٢٦ خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم؛ ليكون هناك شاهدًا عليكم.

٣١: ٢٧ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصُّلبة، هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم، قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحريَّ بعد موتي؟![٣].

وقوله تعالىٰ ذكره:﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾، ثم قال: ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

---

(١) أحمد، ج ٥، ص ٣٥٩، رقم الحديث: ٢٣٠٨٣، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، ج ٢، ص ٩١١.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ٣٠٤.

(٣) فكري، القس أنطونيوس، سفر التثنية، ص ١٢٦.

يظهر منه أن التابوت يأتيهم من غير آتٍ به يرونه، لكنه لا يتحرك بنفسه بل تحمله الملائكة التي لا ترونها أنتم.. هذا الذي يظهر من الجمع بين الجملتين، فنزلت الملائكة بالتابوت نهارًا ينظرون إليه عِيانًا، حتىٰ وضعوه بين أظهرهم، فقوله ﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ لا ينبغي أن يؤول بأنه تحمله الأثوار أو الدواب كما مال إليه بعضهم؛ واستدل عليه بقوله تعالىٰ ذكره: ﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]؛ إذ فرقٌ بين المقامين، وإن كان يظل محتملًا إلا أنه لا حاجة للتأويل إذا استبان السبيل كما مال إليه الطبري رحمه الله، فلما وصل التابوت أقروا بملك طالوت، لكن بعضهم ظل علىٰ العناد والحسد، فخرجوا غير راضين، واستمروا ساخطين.

ويلفت البقاعي رحمه الله النظر إلىٰ أن معجزة التابوت ليس بأعجب من تكريم الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ بجعل أصحابه مثل السفينة الحاملة[١]، حيث يروي سفينة أن رسول الله ﷺ سماه سفينة، وبين قصة ذلك فقال: خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه فثقل عليهم متاعهم، فقال لي:« ابسط كساءك» فبسطته، فجعلوا فيه متاعهم، ثم حملوه عليَّ، فقال لي رسول الله ﷺ:« احمل فإنما أنت سفينة»، فلو حملت يومئذٍ وقر بعيرٍ أو بعيرين أو ثلاثةً أو أربعةً أو خمسةً أو ستةً أو سبعةً ما ثقل عليَّ الا أن يجفوا[٢].

وآل الأمر بالتابوت والتوراة إلىٰ الإحراق بعد غزو البابليين لبني إسرائيل.

وعودة التابوت كانت آية للإسرائيليين ليُقِرُّوا بملك طالوت عليه السلام، أوَ لا ترىٰ أن هذه التفاصيل الواردة في هذه القصة آية مبهرة لبني إسرائيل علىٰ نبوة نبينا محمد ﷺ، وهو النبيُّ الأميُّ الذي لم يلْقَ كتابيًّا لقاء صحيحًا طويلاً واضحًا قبل نبوته؟

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤٢٢.

(٢) أحمد، ج ٥، ص ٢٢١، رقم الحديث: ٢١٩٧٨، وحسن إسناده الأرناؤوط، وصححه الألباني. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، ج ٦، ص ١١١٤-١١١٦.

وعودًا علىٰ بدء وتلخيصًا لما سبق فإن الصفات المؤهلة للقيادة هي:

الصفة الأولىٰ: الِاسْتِعْدَادُ الْفِطْرِيُّ.

الصفة الثانية: التفوق العلمي الَّذِي يَكُونُ بِهِ التفوق في الميدان السياسي، وإحكام التَّدْبِيرُ، وكمال الرأي.

الثالثة: التفوق الجسدي؛ ليكون محل القدوة في الميدان العسكري.

الرابعة: اجتياز الاختبار بين الأقران؛ ليدل علىٰ التَوْفِيق الإلهي.

الخامسة: أن يكون اختياره للقيادة بطريق شرعي.

وهذه الصفات القيادية الخمس، تدركها الفطرة الصافية الصادقة، وقد عبر عنها لقيط بن يعمر الإيادي، وهو يرسل برقيات الإنذار لقومه خوفًا من اجتياح كسرىٰ لهم، فقال[١]:

وَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا
لاَ مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ ... وَلاَ إِذَا عَضَّ مَكرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
لاَ يَطْعَمُ النَّومَ إِلاَّ رَيْثَ يَبْعَثُهُ ... هَمٌّ يَكَادُ أَذَاهُ يَحْطِمُ الضِّلَعَا
مُسَهَّدَ النَّوْمِ تَعْنِيهِ أُمُورُكُمُ ... يَؤُمُّ مِنْهَا إِلَىٰ الْأَعْدَاءِ مُطَّلِعَا
مَا زَالَ يَحْلُبُ دَرَّ الدَّهْرِ أَشْطُرَهُ ... يَكُونُ مُتَّبِعًا يَوْمًا وَمُتَّبَعَا
وَلَيْسَ يَشْغَلُهُ مَالٌ يُثَمِّرُهُ ... عَنْكُمْ وَلاَ وَلَدٌ يَبْغِي لَهُ الرِّفَعَا
حَتَّىٰ اسْتَمَرَّتْ عَلَىٰ شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ ... مُسْتَحْكِمَ السِّنِّ لاَ قَمْحًا وَلاَ ضَرَعَا[٢]

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ١٩٦.

(٢) القمح: الشيخ، والضرع: الضعيف.

ويبقىٰ أن تتساءل هاهنا: فما فائدة مثل هذه القصة لنا، وقد ختمت النبوة بسيدنا محمد ﷺ؟

والجواب: لعل الفائدة الكبرىٰ من هذه القصة تظهر في تجريم التحدث بالاصطفاء الإلهي الخاص؛ إذ يمكن الاختيار مِن بينِ مَن لهم الاصطفاء الإلهي العام أي من أوتوا مؤهلاتٍ أساسيةً تتمثل في التفوق العلمي والتفوق الجسدي، واجتياز الاختبار بين الأقران المنافسين، ولئن كان طالوت قد تم اختياره من الله ﷻ الذي يؤتي ملكه من يشاء، فإنه يحل محل ذلك عند أمةٍ أنزلت عليها سورة الشورىٰ في وقتٍ مبكرٍ بأن تُجرَىٰ المنافسات اللازمة لاختيار الأكفأ بين الأقران، فيجتبي العقلاء آليةً للاختيار؛ بناء علىٰ المؤهلات السابقة الممكنة بعد انقطاع الوحي، ويضاف إلىٰ التفوق العلمي والجسدي مراعاة المقاييس الأخرىٰ المذكورة في اختيار القيادات حسب متطلبات كل منصب، ومنها ما ذكره يوسف عليه السلام في قوله: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]، ومنها ما ذكرته المرأة التي أسهمت في اختيار موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص ٢٦]، فذكر يوسف عليه السلام لملك مصر صفتين بشريتين، يمكن التنافس فيها، ولم يجعل من صفات التأهل للمنصب الوزاري أنه نبي.

أهم الصفات التي يجب أن توجد في قيادات المناصب الكبيرة:

عند الجمع بين هذه الصفات في سورة البقرة ويوسف والقصص، يمكن تلخيص أهم الصفات التي يجب أن نجعلها مجالًا لتنافس من يتأهل بها في الآتي:

الصِّفَةُ الأولىٰ: التفوق العلمي:

حيث نجد التعبير بهذه الكلمات: (عليم- بسطة العلم)، وليس مجرد النبوغ العلمي، وذلك يعني: القدرة علىٰ الرأي والتدبير لا لأنه ذو علمٍ، فكم من عالمٍ

هو بحرٌ متلاطم الأمواج في حفظه وعلمه، لكنه ضعيف في رأيه وتدبيره وإدارته للأحداث الجسام.. ستقول: فمن أين بصرتنا الآية بأن العليم يجب أن يكون ذا تدبير مع أنك تنفي التلازم؟

أقول: ألمحه دون تصريحٍ واضحٍ من قوله تعالىٰ ذكره: ﴿بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ مع قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ فإن مقتضىٰ الاصطفاء للقيادة أن يكون ذا تدبير، وإلا فإن علم سليمان لم يمنع الهدهد من أن يخبره بما لم يصل إليه من أمر سبأ، وهو الهدهد.

الصِّفَةُ الثانية: القوة البدنية اللازمة (قوي- بسطة الجسم).

وهذه الصفة يُحتاج إليها حسب المنصب الميداني؛ فإن صاحب التفوق العلمي قد يتبوأ المنصب الذي لا يُحتاج فيه إلىٰ العمل الميداني.

الصِّفَةُ الثالثة: القدرة علىٰ الحفظ المهني (حفيظ) والإدارة الراشدة للثروات.

وذلك يدل علىٰ الاستيعاب التام لمتطلبات المهمة، والقدرة علىٰ التحكم بالصادر والوارد.

الصِّفَةُ الرابعة: الأمانة في توزيع الثروات، والتصرف في الممتلكات، وإسناد المهمات.

وهذه الصفات لا يُحتاج فيها للاصطفاء الإلهي الخاص، بل من حازها فهو ممن اصطفاه الله اصطفاء عامًا، فتأمل معي: هل يمكن أن ينجح قائد بلا أمانة ولا حفظ ولا بسطة علم وجسد؟! فيخضع للاختبارات اللازمة ليظهر تقدمه علىٰ منافسيه، وبذا تحل هذه الآلية محل النص الإلهي علىٰ قائدٍ بعينه، وبين يدينا مَعْلَمان يبينان لنا كيفية اختيار القيادات في زمنٍ يخلو عن النبوات أي بعد زمن خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام:

أما المَعْلم الأول: فهي أن الله جل جلاله قصَّ في صدر السورة حالهم مع موسىٰ عليه السلام، وقصَّ في خواتيمها حالهم من بعد موسىٰ عليه السلام لتعتبر هذه الأمة من ذلك حالها مع نبيها ﷺ وبعده[١]، والنبي ﷺ يرسل الإعلان من بعيدٍ لأمته يخبرهم كيف يتعاملون مع الأحداث المستجدة في ظل عدم وجود نبوة، كما كان الأمر في بني إسرائيل، فيقول ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء عليهم السلام، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون» قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله عز وجل سائلهم عما استرعاهم[٢]، وعلىٰ اختلاف أهل العلم في الطريقة الشرعية التي بها يكون الوالي واليًا، والقائد قائدًا، إلا أنهم متفقون علىٰ شروطٍ أساسية ترجع في مجملها إلىٰ الشروط الأربعة السابقة، ثم هناك من يزيد ويفصل، وعلىٰ اختلافهم في تفاصيل كثيرة، إلا أنهم يلتقون علىٰ أن الشورىٰ خير سبيلٍ يسلكه الناس لاختيار القائد الذي يسوس الناس علىٰ وفق الإدارة الراشدة،

وهنا يأتي المعلم الثاني: إذ جاءت بيعة أبي بكرٍ رضي الله عنه عنه قائمةً علىٰ شورىٰ حقيقيةٍ.. لقد كان النبي ﷺ يستطيع أن يَنُصَّ نصًّا صريحًا لتوليته، لكنه لم يفعل، وعلم أن أمته ستُهدىٰ إلىٰ الشورىٰ، فقال مقالته السامقة في مَرَضِهِ لعائشة رضي الله عنها: «ادعي لي أبا بكر، أباك، وأخاك، حتىٰ أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنىٰ متمن ويقول قائل: أنا أولىٰ، ويأبىٰ الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[٣]. ثم ترك الكتاب اعتمادًا علىٰ أن الله عز وجل سيلهم المؤمنين لتكون نتيجة شوراهم أبو بكر رضي الله عنه، وكذلك كان.

(١) البقاعي، نظم الدرر، ج ٣، ص ٤٠٩.

(٢) البخاري، رقم ٣٤٥٥.

(٣) مسلم، رقم الحديث: ٦٣٣٢.

المَشْهَدُ الرابع
المعركة الشاملة في الوقت المناسب:
اصطفاء الجنود، والاستعداد الذكي للمواجهة الحتمية

قال تعالى:

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

[البقرة: ٢٤٩ - ٢٥٠]

السُّنَّة الأولى

جمع المستعدين للبذل والتضحية، والتحشيد الكمي للأتباع خطوة أولية ضرورية، وتحويل الحماسة الجماهيرية إلى عمل نظامي (جندية) عماده الطاعة المبصرة

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾: فسماهم جنودًا، وهذا يدل علىٰ بدء العمل المنظم، والاستعداد للمواجهة القادمة، فلم يقل: فلما فصل طالوت بهم، أو بقومه، بل قال: ﴿بِٱلْجُنُودِ﴾، والجنود: جمع جند بالضم وهو العسكر المجنَّد، أي المقسم فرقًا قوية، وأصله الأرض الغليظة ذات الحجارة ثم قيل لكل مجتمع قوي جند[١]، وفصل بهم أي قطع بهم متجاوزًا المكان الذي هربوا إليه، أو كانوا فيه آمنين من هجمات عدوهم، و﴿فَصَلَ﴾ معناه: خرج بهم، فَصَلْتُ الشيء، فانفصل أي: قطعته، فانقطع، وأصله مُتَعَدٍّ، يقال فصل نفسه، ثم استعمل استعمال اللازم كانفصل[٢]، فبدأ بالخطوات الجادة للمواجهة الصادقة. كما أننا نستشف من ﴿فَصَلَ﴾ معنىٰ التمايز الذي تتطلبه المراحل المفصلية في حياة المجتمعات، فلا بد من إشهار فسطاط المناصرين للحق وقضيته لينحازوا عن فسطاط المستكينين الأذلاء والمرجفين الجبناء، وينبغي التفريق بين المراحل المفصلية والمراحل التي تحتاج إلىٰ المخالطة الحذرة، والتعايش المؤثر علىٰ الجهات الأخرىٰ.

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٤٨٦.

(٢) الشوكاني، فتح القدير، ج ١، ص ٣٠٤.

السُّنَّة الثانية

التحشيد الكمي مقدمة للاصطفاء النوعي

فيجب إجراء الاختبارات الميدانية لمعرفة مدىٰ صدقية المتابعة، والثبات، والطاعة، وقوة الإرادة أمام الإغراءات المختلفة أو الترهيب المنتظر، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الفصل يعني الانتقال من مرحلة التحشيد في المقام الرخيِّ الآمن إلىٰ مرحلة أكثر دقة وحرجٍ في سبيل المواجهة القادمة، ولأن المعركة مع الباطل لا بد أن تقع، والمواجهة ستكون مع عدوٍ كثير العدد، قوي العُدَد، فلا بد من التأكد من صدق الشعارات، وتوثيق الادعاءات بالاختبارات الواقعية؛ لتظهر قوة اليقين في نصرة الديار والبنين، والمخاطرة، وتحمل المتاعب، ومجاهدة الأهواء والإقبال علىٰ الطاعة الحقيقية، وهذا الاختبار له ما يبرره؛ فإن الطبيعة الإنسانية متقلبة، والخوف من مواجهة العدو متأصل غالب، فكيف إذا كان في الإسرائيليين؟

وهنا سببان خاصان قويان يوجبان ضرورة الاستيثاق من هؤلاء المظهرين استعدادهم لخوض المعركة:

أما الأول: فترددهم في التسليم لطالوت بالملك وقيادة الجيش، وهذا التردد ليس الإسرائيليون بدعًا فيه أو منفردين به؛ فإنك تجده في كثيرٍ من الأعمال المؤسسية

التي يجتمع فيها الأقران المتقاربون في الكفاءة، وهو مما يحتاج إلىٰ طويل تأمل وفحص، فوعزة ربي لقد كان التنافس غير الحميد، والحسد الذي أكل المنجزات حبَّ الحصيد بين أقران العمل الإسلامي من أهم أسباب الضلال الذي أحاط بالمسلمين حتىٰ جعلهم كعصف مأكول بين الأمم، ولقد كان هذا الاختبار في مكانه لتنقية الجيش من الذين يكثرون البلبلة، ويفسرون كل أمرٍ يصدر من القيادة العليا بتفسيرٍ سلبي، أو يظهرون رؤيتهم المدمرة للأحداث التي تواجههم، فيوضعون خلال الجيش يبغونهم الفتنة.

وأما الثاني: فهو أنه «مُقْدِمٌ علىٰ معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه جيش أمة غالبة، فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به أمام القوة الظاهرة الغالبة. هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة. الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي علىٰ الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها، فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.. فلا بد للقائد المختار إذن أن يبلو إرادة جيشه، وصموده وصبره: صموده أولًا للرغبات والشهوات، وصبره ثانيًا علىٰ الحرمان والمتاعب»[1].

فاختبرهم طالوت باختبارٍ واضحٍ يظهر مدىٰ الصدق واليقين القلبي من جهة، ويظهر مدىٰ القدرة علىٰ الانضباط في الجيش، والقدرة علىٰ الالتزام بطاعة القائد، فوجه لهم التعليمات الآتية التي تبين من سيكمل المسيرة من غيره، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ﴾، ومعنىٰ ﴿مُبۡتَلِيكُم﴾ مختبركم علىٰ هيئة البلاء، فهو اختبارٌ حقيقيٌ تصحبه شدة، والأصل أن يبحث أصحاب التغيير عن اختباراتٍ حقيقية تظهر معادن الرجال.

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٦٨.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي فَقَدَ الانتماءَ الصادقَ إليَّ، وبقاؤه معي سيكون وبالًا علىٰ الجيش؛ لأنه لن يلتزم بالطاعة، ولن ينتظم فيما يسند إليه من مهام، وذكر نفسه ولم يأت بما يدل علىٰ المجموع؛ لأن قائد الجيش له خصوصية واضحة في ضرورة الوضوح في طاعته، وأي خلل يعتري هذه الطاعة قد يسبب الهزيمة، إلا أن تكون المبررات قوية ظاهرة.

وقد وضح ذلك في أُحد وضوحًا مدهشًا، فعن البراءِ بنِ عَازِبٍ ﷺ يُحَدِّثُ قَالَ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ علىٰ الرَّجَّالة يوم أحد- وكانوا خمسين رجلًا- عبد الله بن جبير ﷺ، فقال: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم، هذا حتىٰ أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمنا القوم وأَوْطَأْنَاهُم، فلا تبرحوا حتىٰ أرسل إليكم»، فهزموهم، قال: فأنا والله رأيت النساء يشتددن، قد بدت خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رافعاتٍ ثيابهن، فقال أصحاب عبد الله بن جبير ﷺ: الغنيمةَ أَيْ قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير ﷺ: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة، فلما أتوهم صرفت وجوههم، فأقبلوا منهزمين... [1]، فهذا الاجتهاد في غير مكانه، والخلل في الطاعة أدىٰ إلىٰ الانكسار في أُحد، وكان طالوت حازمًا في بيان من ينتمي للجيش ومن لا ينتمي.

﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أي أثبت انتماءه للجيش وقدرته علىٰ الانضباط والطاعة، وإيمانه بالغيب.

ومعنىٰ ﴿لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أَيْ لَمْ يَذُقْهُ، وَهُوَ مِنَ الطَّعْمِ، وَهُوَ يَقَعُ عَلَىٰ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، ولكنك ترىٰ أنه اختار ما يدل علىٰ الطعم لا علىٰ الشرب هنا بينما

(١) البخاري، رقم الحديث ٣٠٣٩.

اختار فيما سبق ما يدل علىٰ الشرب لا علىٰ الطعم، ورأىٰ الرازي« أن الإنسان إذا عطش جدًّا، ثم شرب الماء وأراد وصف ذلك الماء بالطِّيب واللذة قال: إن هذا الماء كأنه الجُلَّاب(ماء الورد)، وكأنه عسل فيصفه بالطُّعوم اللذيذة، فقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ معناه أنه وإن بلغ به العطش إلىٰ حيث يكون ذلك الماء في فمه كالموصوف بهذه الطعوم الطيبة، فإنه يجب عليه الاحتراز عنه، وأن لا يشربه ومن جعل الماء في فمه وتمضمض به ثم أخرجه من الفم، فإنه يصدق عليه أنه ذاقه وطعمه، ولا يصدق عليه أنه شربه، فلو قال: ومن لم يشربه فإنه مني كان المنع مقصورًا علىٰ الشرب، أمَّا لما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾كان المنع حاصلًا في الشرب وفي المضمضة، ومعلوم أن هذا التكليَف أشقُّ، وأن الممنوع من شرب الماء إذا تمضمض به وجد نوع خفة وراحة» [(١)].

﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فمنعهم طالوت من الشرب أحوج ما يكونون إليه، ليظهر الصادق من الكاذب، ولكنه أباح لهم أن يأخذوا غرفة واحدة، فقوله ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ﴾ استثناء من قوله ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾، ولكنه قدّم ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾؛ للعناية، ولوضوح المقصود من السياق.

وفي كلمة ﴿ غُرْفَةًۢ ﴾ قراءتان[(٢)]:

القراءة الأولىٰ: قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر ﴿غَرْفَةًۢ﴾ بالفتح؛ ليدل ذلك علىٰ مصدر الغَرف، والمراد فعل الغَرْف، فكأنك تشاهد وقوعه، كما تدل علىٰ أنها مرة واحدة، فلا يجوز أن يشربوا أكثر من مرة، وإلا فشلوا في الاختبار، والأصل أن مصدر (اغترف) (اغترافة)، فأما ﴿غَرْفَةًۢ﴾ فهي مصدر: (غرفت)، ولعله

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥١٠.

(٢) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج ٢، ص ٢٣٠.

وضع هذا المصدر بدلًا عن الأصلي ليحتمل القراءتين، ويظهر من ذلك معنيان.

القراءة الثانية: قرأ الكوفيون، وابن عامر، ويعقوب ﴿غُرْفَةٌ﴾ بالضم؛ ليدل علىٰ كمية الماء المغروف قليلًا أو كثيرًا، ومثله الأُكْلة والأَكْلة، يقال: فلان يأكل في النهار أَكْلة واحدة، وما أكلت عندهم إلا أُكْلة بالضم أي شيئًا قليلًا كاللقمة، ونحوه: الخُطوة والخَطوة بالضم مقدار ما بين القدمين، والخَطوة أن يخطو مرة واحدة[١].

والاكتفاء بالغرفة فقط يكشف الكثير:

إنه يقيس مدىٰ الإيمان بالغيب، فإن الله ﷻ يجعل فيها بركة، فتكفي الإنسان، حيث يبارك القليل المقترن بالصدق، ويكشف مدىٰ قدرة المرء علىٰ الصبر والتحمل؛ إذ الغرفة الواحدة تجلب الشهوة لمثلها غالبًا، والصبر علىٰ ترك الثانية بعد تذوق الأولىٰ اقتحام لعقبة النفس الطُّلَعة التي تنزع إلىٰ شر غاية، وقد قال الحسن البصري رحمه الله:« حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور، واقْدَعوا هذه النفوس فإنها طُلَعة[٢]، وإنها تنازع إلىٰ شر غاية، وإنكم إن تقاربوها لم تبق لكم من أعمالكم شيئًا، فتصبروا وتشددوا؛ فإنما هي ليال تعد، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعىٰ أحدكم، فيجيب ولا يلتفت، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم، إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم، وإنما صبر علىٰ هذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته»[٣].

وبذا يتفتق الاختبار عن تقسيم هؤلاء الجنود إلىٰ ثلاث فئات:

الفئة الأولىٰ: ينتمي إليها الذي عبَّ من النهر، فمصيره الإبعاد؛ «وكان من الخير

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥١١.

(٢) الطُّلَعة، بضم الطاء وفتح اللام: الكثيرة التطلع إلى الشيء، أي أنها كثيرة الميل إلى هواها تشتهيه حتى تهلك صاحبها. ابن منظور، "طلع" لسان العرب، ج٨، ص٢٣٧.

(٣) ابن الجوزي، القُصَّاص والمذكِّرين، ص ٢٥٦.

ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف؛ لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم، ولكن بالقلب الصامد، والإرادة الجازمة، والإيمان الثابت المستقيم علىٰ الطريق.

ودلت هذه التجربة علىٰ أن النية الكامنة وحدها لا تكفي ولا بد من التجربة العملية، ومواجهة واقع الطريق إلىٰ المعركة قبل الدخول فيها، ودلت كذلك علىٰ صلابة عود القائد المختار الذي لم يهزه تخلف الأكثرية من جنده عند التجربة الأولىٰ.. بل مضىٰ في طريقه»[(١)].

إن بقاء هذا الصنف في الوسط سيكون عامل تدمير، وهكذا كل من ينتسب إلىٰ أمة، ولا ينضبط بنظامها، ولا يعمل علىٰ تحقيق أهدافها، وانظر للتحالفات المعاصرة، وتأمل أيها تزيد المتحالفين قوة، وأيها تؤدي إلىٰ تدمير المتحالفين تدميرًا لو لم يكونوا فيه معًا لسهل عليهم الانتصار، فكم من تحالفٍ لم يزد أصحابه إلا خسارًا، وأكسب عدوه قوةً واستكبارًا.

الفئة الثانية: ينتمي إليها الذي اغترف غرفةً واحدة، فبورك له فيها، وصار له محله المعتبر في الجيش.

الفئة الثالثة: ينتمي إليها الذي تميز فلم يشرب حتىٰ غرفة من النهر، وهؤلاء هم الذين يُعتمد عليهم في الأماكن الحساسة، وهم عماد الجيش في ساعة الصفر.

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٦٨.

السُّنَّة الثالثة

الثبات والفشل في الاختبارات الميدانية تعزيز لقوة الجيش وصلابته، وإحكام بنائه وتماسكه، والاستيعاب النفسي للنتائج المتوقعة المؤلمة من الاختبارات الميدانية حتى لا تؤثر على النفس أو تجلب اليأس أو تحبط اليقين الصادق

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فـ«العدد القليل من أهل العزائم يفعل ما لا يفعل الكثير من ذوي المآثم» كما يقول محمد رشيد رضا رحمه الله[١]:

فَتَمَيَّزَ أصحاب الاستقامة الذين يلتزمون بالطاعة من الفوضويين، واستبان من يؤمن بالغيب ممن في قلبه شك، وظهر من عنده الاستعداد علىٰ الانتظام، ممن طاعته مجرد كلام.

«ومما يدل علىٰ هذه القاعدة من القرآن المجيد قوله تعالىٰ في سورة الرعد: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٤٨٧.

فهو يفيد أن سيول الحوادث، ونيران التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه، وتُبْقي إِبْلِيزَ[١] الحق النافع الذي ينمو فيه وَإِبْرِيزَ المصلحة التي يتحلىٰ بها الإنسان»[٢].

(١) **الإبليز**: هو الطين الذي يأتي به النيل في فيضانه، وعليه تزرع الغلال وغيرها، وهو هنا خاص أريد به العام. انظر: المقريزي، أحمد بن علي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ٣، ص ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج ٢، ص ٤٩٧، ٤٩٨.

السُّنَّة الرابعة

الحذر الشديد من الثقة العمياء في النفس أو في سائر المؤمنين ثقةً تؤدي إلى التبرؤ من الطبيعة الإنسانية، وتحدث عيوبًا قاتلة في المسيرة الناجحة

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾[البقرة: ٢٤٩]، بعد أن تميز الذين قالوا: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ثم استقاموا علىٰ ذلك بأن رضوا بطالوت ملكًا، ونجحوا في اختبار النهر وعبروا معه، ويظهر أن الباقين رجعوا بخزي الفشل.

وفي الطريق إلىٰ مكان الالتحام أو أمام ساحة المعركة تقابل الجيشان، ولاحظ المسلمون الإسرائيليون أن جيش جالوت أقوىٰ عددًا وعتادًا.. ربما عرفوا ذلك عندما تقابل الصفان، والتقىٰ الجمعان، وربما عرفوا ذلك من خلال كتائب الاستطلاع التي قاموا بإرسالها لرصد العدو ومعرفة تحركاته، والعلم بدقائق تفاصيله، وربما كان ذلك عبر الشائعات التي تروج عن قوة العدو خارجيًّا وداخليًّا، وربما كان المصدر خبرتهم السابقة التي حازوها؛ نظرًا للمعارك الخاسرة التي خاضوها من قبل، ولعل الذي يرجح أن مصدر المعلومات هو الطلائع التي أرسلوها أنه قال بعد: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، فهذا الحوار قبل البروز يحكي لنا انقسام الجيش المؤمن إلىٰ فريقين:

الفريق الأول قال: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ والطاقة: مصدر بمعنىٰ الإطاقة، يقال: (أطقتُ الشيء إطاقة وطاقة)، ومثلها: (أطاع إطاعة) والاسم الطاعة،

وَفِي الْمَثَلِ: أَسَاءَ سَمعًا فَأَسَاءَ جَابَةً[١]، أَي جَوَابًا، والمراد لا نطيق أي لا نملك طاقة لمواجهة جالوت وجنوده؛ إما لكثرة عدد العدو، وإما لضخامة العدة التي معهم، وتنوع الأسلحة التي يحملونها، وإما لقوتهم فهم ينتمون إلىٰ العماليق، وإما للحظوظ العالية التي وفرها لهم مكانهم المتميز، وإما لشهرتهم بقوة الحيلة، ودهاء التخطيط، وإما لكل تلك الأسباب.

لقد عنىٰ هذا الفريق من المؤمنين هنا: أن المعركة تتطلب توازن القوىٰ وتكافؤ الفرص في النواحي المادية الصرفة، وهؤلاء من الفريق المؤمن فيما يظهر من سياق الآية، ويبصرك بذلك أن الله – جلَّ مجده – قال: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ﴾ أي قال فريق من الذين آمنوا معه ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

مهلًا: هل يمكن أن يقول مؤمن هذا الكلام عندما يوشك أن يحدث الاشتباك ويتنازل الفرسان والأقران، ويصطك السنان بالسنان في الالتحام؟

نعم! بل هذا متوقعٌ جدًّا، بل يمكن أن يحدث من أكثر الناس قوة وصلابة في المواقف الفاصلة، ولعله من الحسن أن نستحضر هنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ رأىٰ اجتماع المرتدين ومانعي الزكاة علىٰ الصحابة رضي الله عنهم وبقية المسلمين، فرأىٰ ألا طاقة لأهل المدينة بالاصطدام معهم، وأراد أن يشير علىٰ أبي بكر الصديق رضي الله عنه بما قد يشتت الجبهة من حولهم، فقال: فأتيته ولا آلُوه نصحًا، فقالت: يا خليفة رسول الله ﷺ تألَّفِ الناسَ وارفق بهم، فقال: جبار في الجاهلية خوار في الإسلام! فبماذا أتألفهم أبِعُشر[٢] مفتعل أم بشعر مفترىٰ، قبض النبي ﷺ

(١) ينظر: الرازي، مختار الصحاح، ص ١٩٤، وابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، ص ٢٣٣.

(٢) لعل الصواب (أبشعر)، كما في أغلب المراجع. انظر: البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، ج ٢، ص ٤٧٧.

وارتفع الوحي...[١]، وقصة مراجعة عمر لأبي بكر وظهور العزم الصديقي ثابتة في أصلها في الصحيحين[٢].. فما الضير إن قلنا إن قائل هذا القول كان من المؤمنين؟

ولكن بعض المفسرين أبىٰ إلا أن يمنع إعمال ظاهرِ اللفظ، وزعم أن كلَّ الجيش عبرَ معه، وشد عضده علىٰ ذلك بأن استبعد أن يقول المؤمن الصادق ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾حتىٰ زعم بعضهم أنه لا يقول مثل هذه العبارة إلا منافق أو زنديق.. تمهل معي أيدك الله ﷻ! ألا ترىٰ أن هذا ينأىٰ بجهدٍ عن ظاهر اللفظ القرآني؟ وما المانع أن يقول مؤمن مثل ذلك؛ وهو قلقٌ من نتيجة المعركة من جهة، كما هو قلقٌ علىٰ هذه القلة المؤمنة الصابرة، وهم المصطفون الأخيار الذين صدقوا في القول والعمل؟ ما المانع أن يكون دافعه الحساب المادي المجرد غافلًا عن حساب سننية تدخل قدرة الله ﷻ المطلقة وحضورها في نصر الفئة المؤمنة الصادقة؟ فما أكثر ما نقع نحن في مثل ذلك.. ثم تأمل معي كرة أخرىٰ: ألم يجادل بعض أهل بدرٍ ﷺ في ترك القتال، وقد استبانت حتمية المواجهة؟ فخذ إليك وصف الله ﷻ لخيرة أهل الأرض بعد النبيين عليهم السلام؛ إذ يقول عنهم: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

إنك لترىٰ خللًا عظيمًا في تقدير ذواتنا وأنفسنا وإمكاناتنا عندما نصر علىٰ توثيق الصالحين إلىٰ حد أن يتبوءوا في أذهاننا دون شعورٍ منزلة العصمة من أن تصيبهم الآفات البشرية المعتادة.. «ولقد نتج خطأ منهجي عن هذه المشاعر الطيبة، فلم يستطع كثيرون ممن درسوا فتن القرن الأول الهجري أن يفصلوا الحقائق عن

(١) ابن منده، ج ١، ص ٢٠٥. أمالي ابن بشران ص٢٠٤.

(٢) انظر: البخاري، رقم الحديث:٣٢.

المشاعر، بل خلطوا هذه بتلك، فجاءت كتاباتهم مزجًا عجيبًا بين الذات والموضوع.

ولو أن هؤلاء تجنبوا الخوض في تلك الأحداث أصلًا كما يحبذه بعض أهل العلم –أو انتهجوا نهج السيوطي رحمه الله في إغفال الحديث عن بعض الأحداث المؤلمة انسياقًا مع مشاعره، لما كان عليهم من ملام فقد قال السيوطي رحمه الله في مقتل الحسين رضي الله عنه: "وقد وردت في مقتل الحسين رضي الله عنه قصة طويلة لا يحتمل القلب ذكرها"[1]، إنما الخطأ هو الخوض فيها دون التزام بمنهج العدل والإنصاف.

مثل أن نُنَزِّهَهم عن الخوف الطبيعي، أو نُبَرِّئَهم من الزلزلة في المواقف الفاصلة، ولذا فإني لا أميل في مثل هذه الآيات إلا إلىٰ إعمال ظاهرها البيِّن وإيقاعها علىٰ الصالحين؛ إذ اجتاحهم خللٌ نفسيٌ محدود لا يُعصم منه أحد، ومثل ذلك قوله جل ذكره: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وكذلك قوله تعالىٰ مجده: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢، ١٥٣]، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٥٧.

عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

إن المؤمنين الصادقين ليسوا بُرَآءَ من أن يعتريهم الخوف البشري، وقد قال الله جل ثناؤه عن ثالث أعظم رجلٍ ضمن مسيرة الإيمان الصادقة: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴾ [طه: ٦٧].

إن المؤمنين الصادقين ليسوا بُرَآءَ من أن يقعوا في اكتساب ذنبٍ، أو السعي وراء حظوظ النفوس التي يستزلهم الشيطان بها، وقد قال العليم بذات الصدور عن خيرةٍ من أهل الأرض ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

متىٰ نتعامل بالعقلية الإيمانية الواقعية التي ترىٰ عدم عصمة غير النبيين عليهم السلام من الوقوع في العيوب والذنوب، وفي الوقت ذاته تتعامل مع الواقعين في العيوب والذنوب بعقلية الذين يسترون ويُذَكِّرون، ويتواصون بالحق ويتواصون بالصبر.. متىٰ؟

فهؤلاء الذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ يظهر من سياق الآيات أنهم من المؤمنين الفائزين في الاختبار السابق، ولعلهم عند مقالتهم هذه كان بعضهم يغلب عليه النظر في الحسابات المادية المحضة، فرأىٰ ضرورة إعادة التخطيط للمعركة، فقالوا مقالتهم.

وهذا يذكرني بمقالة قالها المغيرة بن شعبة رضي الله عنه حين رأىٰ أن الفرس في نهاوند لم يباغتوا بالهجوم، فنقد قيادة النعمان بن مقرن المزني رضي الله عنه، وقال حِينَ رَأَىٰ كَثْرَتَهُمْ:« لم أر كاليوم فشلا، إن عدونا يتركون أن يتتاموا، فلا يعجلوا أما، والله لو أن الأمر إليَّ لقد أعجلتهم به».

قال: وكان النعمان رضي الله عنه رجلًا بكاء(أي مخبتًا سريع الدمعة من خشية الله عز وجل)، فَقَالَ مصححًا لهم النظر العام لوضع الجيشين، فقال:« قد كان الله جل وعلا يشهدك أمثالها فلا يُخْزيك ولا يُعرِّي موقفك، وإنه والله ما منعني أن أناجزهم، إلا لشيء شهدته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتىٰ تحضر الصلوات، وتهب الأرواح، ويطيب القتال، ثم قال النعمان رضي الله عنه : اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتح يكون فيه عز الإسلام وأهله، وذل الكفر وأهله، ثم اختم لي علىٰ إثر ذلك بالشهادة، ثم قال: أمِّنوا يرحمكم الله عز وجل، فأمَّنَّا، وبكىٰ وبكينا»[1].

وكانت النتيجة كما خطط لها النعمان رضي الله عنه .

(١) ابن بلبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ج ١١، ص ٦٧، ٦٨، رقم الحديث ٤٧٥٦. وقال الأرناؤوط: إسناده قوي.

السُّنَّة الخامسة

التواصي بالحق وبالصبر ينجي من الخسر، ويصحح مقياس النظر إلى الأحداث بمقياس النظر المتوازن الدنيوي الأخروي، ويجمع بين الأسباب المادية والأسباب الغيبية

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فمن أعظم علامات الحياة الحقيقية الفذة عدم سكوت الأطراف التي تملك الرؤية الأكثر صوابًا.. وفي قصة النجاح الإسرائيلية هنا لم يسكت الفريق المؤمن الآخر أمام الفريق المؤمن الأول.. لم يؤثروا الزهد والخمول، ولم يبرروا سكوتهم بأنه إيثار لترك كثرة النقاش والجدال..

ولكن ما الصفة المميزة للفريق المؤمن الثاني؟ أوضحها الله ﷻ بجلاء فقال: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾.. إنهم يستحضرون لقاء الله جل في علاه دائمًا، ولكن لماذا عبر عن هذه الصفة بقوله: ﴿يَظُنُّونَ﴾؟[١] هناك عدة وجوه تكشف سر هذا التعبير أوردها الرازي رحمه الله[٢] وتراها هنا مع تصرفي فيها وفق فهمي للقضية:

الوجه الْأَوَّلُ: وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ رحمه الله: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ ﷻ الْمَوْتُ، فكأن

---

(١) الظَّنُّ شك ويقين إلاَّ أَنه ليس بيقينِ عِيانٍ إنما هو يقينُ تَدَبُّرٍ فأَما يقين العِيَانِ فلا يقال فيه إلاَّ علم وهو يكون اسمًا ومصدرًا، وجمعُ الظَّنِّ الذي هو الاسم ظُنُون. ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ج١٣، ص٢٧٢.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥١٢، ٥١٣.

المعنىٰ: يظنون أنهم لا يبقون بعد المعركة، ولا مانع عندهم في ذلك، بل هم يحبون ذلك، كيف لا وقد قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1]؟ ولما كان نيل الشهادة شرفًا فإنهم لم يجزموا بأنهم سيموتون، بل رجحوا ذلك.

الوجه الثاني: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾أي ملاقو ثواب الله ﷻ بسبب هذه الطاعة، وذلك لأن أحدًا لا يعلم عاقبة أمره، فلا بد أن يكون ظانًّا راجيًا وإن بلغ في الطاعة أبلغ الأمر، إلا من أخبر الله ﷻ بعاقبة أمره.

الوجه الثالث: أن يكون المعنىٰ: قال الذين يظنون أنهم ملاقو طاعة الله ﷻ، أي انطلقوا في مقالتهم في الظن أن الأقرب لطاعة الله ﷻ هو ما قرروه، وذلك لأن الإنسان لا يمكنه أن يكون قاطعًا بأن هذا العمل الذي عمله طاعة؛ لأنه ربما أتىٰ فيه بشيء من الرياء والسمعة، ولا يكون بنية خالصة فحينئذ لا يكون الفعل طاعة، إنما الممكن فيه أن يَظُنَّ أنه أتىٰ به علىٰ نعت الطاعة والإخلاص.

الوجه الرَّابِعُ: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾يعني الذين يظنون أنهم ملاقو وَعْدِ اللَّهِ ﷻ بِالظَّفَرِ خاصة مع وجود التابوت، إلا أن المخبتين لا يجزمون بذلك غالبًا بل يجعلونه ظنًا مرجحين رحمة الله ﷻ مع بقاء القلوب وجلة من عثرة صاحبت المسير، وأوجبت التعسير.

الوجه الخامس: قال كثير من المفسرين: المراد بقوله: ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أنهم يعلمون ويوقنون، إلا أنه أطلق لفظ الظن علىٰ اليقين علىٰ سبيل المجاز لما بين الظن واليقين من المشابهة في تأكد الاعتقاد، وفي النفس من هذا الوجه شيء؛ إذ الأصل حمل اللفظ علىٰ ظاهره، وعندي أن ذكر الظن مهم لا لأنه يحتمل وجود

(١) البخاري، رقم الحديث ٦٥٠٧.

الشك، بل لأنه يبين الطبيعة البشرية في تفاوت اليقين.

لقد صحح الفريق المؤمن الثاني النظر للفريق الأول وثبتوهم، كما ثبتوا أنفسهم بدلًا من أن يسبب الفريق الأول من حيث لا يشعر زلزلة في الجيش، ويغلو في الحسابات الدنيوية للدرجة التي يجعلون أنفسهم الأصل، والفكرة أو المبدأ أو الدين فرعًا.. فيؤثرون السلامة حتىٰ لو ذهبت كل المكاسب السابقة.. فما نفع السلامة إذن؟ وأين الإيمان بالغيب؟ بل أين الإيمان بمنزلة الشهيد لو حدثت الانتكاسة، واجتاح جالوت كل الجيش من المؤمنين؟

لقد صحح هذا الفريق الموفقُ النظرَ، فوازن مقتضيات المعركة ومآلاتها علىٰ أساس الإيمان، والتخطيط، وليس علىٰ أساس تكافؤ القوىٰ فحسب، ويُبَصِّرُنا قول الموفقين: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بأنه يجب أن نحذر في المعارك المصيرية من تسرب النفسية المُبَطئة، وأن نتحصن من الحكم علىٰ الأمور حسب الظواهر، وأن ننتبه إلىٰ حرص الشيطان علىٰ أن ينسينا استحضار الإيمان بالغيب بعد إعداد العدة المستطاعة، فلا ننظر إلىٰ الأحداث علىٰ أساس النصر الدنيوي المحض، وإن لنا في بدر لعبرة؛ إذ لم يعد الله ﷻ عباده بالنصر الدنيوي محضًا، بل قال جل جلاله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧].

كم كانت هذه الفئة القليلة؟ يبين الْبَرَاءُ رضي الله عنه ذلك فيقول: « كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضعة عشر بعِدَّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جاوز معه إلا مؤمن »[(١)].

فاستدرك هؤلاء المباركون الموفقون علىٰ إخوانهم إغفالهم لعاملٍ مؤثر من

(١) البخاري، رقم الحديث ٣٩٥٩.

عوامل الفصل، وذكروهم أن يستحضروا الأسباب الغيبية بجوار الأسباب الدنيوية المادية المشاهدة، واستدركوا عليهم التحليل والموقف، وصححوا لهم الرؤية مع أنه يظهر أن الفريق الآخر القلق إنما كان من المؤمنين الذين أصابتهم غشاوة في التحليل، ووصف الله ﷻ الفريق الموفق بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾فإن استحضرنا لقاء الله ﷻ ضمن الحسابات المختلفة لم نبالِ بالنتيجة بعد القيام بالاستعدادات اللازمة، ثم قالوا لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فموازنة الحظوظ في المعركة إنما تكتمل باستحضار الأساس الإيماني، والتخطيط، وليس الاقتصار علىٰ تكافؤ القوىٰ فحسب.

يقول الصلابي في فقه النصر والتمكين في معرض حديثه عن "الأسباب المعنوية": «ويحتل الإعداد المعنوي المكانة الأولىٰ، حتىٰ إن التمكين ليرتبط بالدرجة الأولىٰ بمدىٰ الأخذ بهذه الأسباب»[(١)].

وخطورة كلام الفريق الأول تتمثل في أنهم يُبْطِئون في الحركة والاندفاع ويُبَطِّئون غيرهم، ويخذلون الجموع، ويدمرون النفسيات، ويوجدون الخلخلة في الحشود، وفي الوقت ذاته يظهرون بمظهر الحكمة، والدهاء السياسي، والحرص علىٰ حقن الدماء، ولكنهم يضعون الأمور دائمًا في غير موضعها، ولا تظنن أنهم من المنافقين؛ إذ هؤلاء مؤمنون نجحوا في اختباراتٍ سابقة.

لكن ذلك يوازنه وجود الفريق الثاني الذي يصحح الخلل الذي يعتري المسيرة المؤيدة، ويحافظ علىٰ الهمة المتقدة.

لقد ذكر الفريق الثاني أصحابهم بما غاب عنهم عند النظر في التخطيط المحض، وفي عصرنا الحاضر كان من أهم عوامل الغلبة الإسرائيلية المعاصرة في ٦٧م أن

(١) الصلابي، فقه النصر والتمكين، ص٢٦٤ص ٢٢٥.

بعض الغافلين من المعسكر الآخر كانوا يغنون، وهم عن ربهم معرضون، فيقولون: ومدفعنا يتحدىٰ القدر، ونسوا الإيمان فقالوا: لا دين إلا السلاح، فلم يحدث نجاح ولا رباح، وقام عدوهم بحصد أرواح خمسة عشر ألفًا خلال ساعات، ثم غنم أضعاف أرضه، فهل عرف الشعب طريقه حقًّا كما كانوا يغنون؟ أو تعمد قادتهم الضالون أن يهدوهم إلىٰ صراط جحيم الهزائم؟!

و"الفئة" هم الجماعة من الناس، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ فَاءَ إِلَىٰ بَعْضٍ فَصَارُوا جَمَاعَةً[1].

(١) ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥١٣، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج ١، ص ٣٨١.

السُّنَّة السادسة

الصبر في جميع الظروف والأحوال عند اتخاذ القرارات، وعند مباشرة تنفيذها بعد الحسم فيها، وعند العمل الميداني المتعلق بها

ومن ذلك الصبر علىٰ تحمل المخاوف، ومواجهة الأمور الهائلة المؤلمة، وبارقة الأسلحة الموجعة.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله عزَّ جارُه: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هذا معلم لا ينبغي إغفاله في درب الكفاح: وهو الصبر إلىٰ آخر نَفَسٍ مهما كانت النتيجة، فإن الله معنا،ولنفرض أننا ابتلينا بالهزيمة، وقد أعددنا الأسباب المادية واعتصمنا بالقوة الغيبية.. كان ماذا؟

لقد أُحيط بصحابة النبي ﷺ في مؤتة فكانوا ثلاثة آلاف، وواجهوا سيولًا من الأعداء قيل بلغت مائتي ألف، فلم يقتل من المسلمين في أقصىٰ الإحصاءات في مصادرنا إلا اثني عشر رجلًا، ولقد صبّر عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الناس مذكرًا بسمت هذه الفئة التي تظن أنها تلاقي الله فقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم لها إياها تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناسَ بعددٍ ولا كثرةٍ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله عز وجل به، فإن يظهرنا الله سبحانه وتعالى به فربما فعل، وإن تكن الأخرىٰ فهي الشهادة وليست بشر المنزلين. فقال الناس: والله لقد صدق ابن رواحة [1] رضي الله عنه، وكان القائد الرابع للجيش خَالِد بن الْوَلِيدِ رضي الله عنه من أعظم الصابرين، فقال عن صبره:« لقد دق

(١) البيهقي، دلائل النبوة، ج ٤، ص ٣٦٠.

في يدي يوم موتة تسعة أسياف، وَصَبَرت في يدي صفيحة لي يمانية»[(١)]..

صبروا ﷺ، وغضوا أبصارهم عن النتيجة المتوقعة أمام تلك السيول الجارفة من القوىٰ المعتدية.

لقد علَّمنا الله جل جلاله أن نوجه أسهم أقوالنا للمناوئين علىٰ وفق هذا النظر عند التنازع مع أقطاب الشر فقال: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]، إنما كان يكفي المؤمنين أن يكونوا قد أعدوا الأسباب المادية، واعتصموا بالله العزيز الغالب وقوته الغيبية، ثم لا يضرهم بعد ذلك النتائج التي ينجلي عنها غبار التدافع، فإما أن يُقتَلوا وإما أن يَغلِبوا ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

فاسمع لميزان التفكير الذي يصححه شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ عندما يذكر أن المصالح الدنيوية إن فاتت فحسبك تحقق المصالح الأخروية، فيقول: «والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلىٰ الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمنًا.

وليس المراد بالشرع: التمييز بين الضارِّ والنافع بالحس، فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم، فإن الحمار والجمل يميزان بين الشعير والتراب، بل التمييز بين

(١) البخاري، رقم الحديث ٤٢٦٦.

الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده، كنفع الإيمان والتوحيد، والعدل والبر والتصدق والإحسان، والأمانة والعفة، وإخلاص العمل لله ﷻ، والتوكل عليه، والتسليم لحكمه، والانقياد لأمره.. وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به، وطاعتهم في كل ما أمروا به، مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته، وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته»[1].

(١) ابن تيمية، النبوات، ج ١، ص ٢٦.

السُّنَّة السابعة
اتخاذ القرار الخطير بالبروز للعدو، والحسم في التقدم والتأخر في هذه الخطوة عبر اجتهاد جماعي صحيح

وهذه الخطوة حاسمة في تحقيق أهم الانتصارات، أو الوقوع تحت وطأة دورة جديدة من التيه والاستضعاف الأكثر وطأة.

ويُبَصِّرُنا بذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾.

كم في القرآن من عجبٍ يبين للناس كيف يحققون النجاحات العظيمة؟.. تأمل كيف استنبطنا هذه السنة الاستراتيجية الخطيرة؟.. لقد بصرنا بها قول ربنا جل ذكره عن المسلمين الإسرائيليين ﴿بَرَزُواْ﴾ صاروا بالبَراز من الأرض، وهو ما ظهر منها واستوىٰ، فأصبحوا ظاهرين مكشوفين أمام عدوهم، فبرزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِصَاحِبِهِ وَقْتَ الْقِتَالِ، لأنهم قد أصبحوا في براز من الأرض، وهي الأرضُ الْفَضَاءُ الَّتِي لَا حِجَابَ يحجب العين فيها عن رؤية ما أمامه مباشرة.

أهمية البروز في اللحظة المناسبة والحسابات الخاطئة للتقهقر:

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ ﴾ البروز خطوة مهمة لمن رأىٰ المواجهة الحتمية، ورأىٰ عدوه يتقدم عسكريًا لكن هذه الخطوة لا تكون عسكريًا لمن يتقدم ثقافيًا وحسب، بل ينبغي أن يكون البروز لمن يتقدم ثقافيًا، وسياسيًا كذلك.

لكن إن رأيت التقدم العسكري له الأولوية، وبإمكانك أن تبرز فأبيت إلا الاستتار مع مراجعة جميع الاحتمالات المتوفرة في المدافعة.. هنا إن تأخرت عن البروز

عسكريًا والظروف شبه مواتية فإنما تحكم علىٰ نفسك بمزيد من الذل وعظيم من التقهقر، وسترىٰ الإنجازات التي حققتها تتلاشىٰ أمام ناظريك.. إن خطوة البروز الثقافي أو العسكري في وقتها المناسب تجبن عنها النفوس تحت مزاعم كثيرة.. هل تظن أن وقتها المناسب عندما يحدث التكافؤ بين الفريقين؟

إقدام واقتحام أم ترقب وإحجام؟ الانسحاب "التكتيكي" في غير موضعه فرارٌ من الزحف، وخسائره مرَوِّعة:

والأمر الأكثر استهجانًا وأسوأ مكانًا هو أن تكون القوة المادية والعسكرية من عَدد وعُدد بيديك ولصالحك ثم تنسحب بكل سذاجة بدعوىٰ المؤامرة وحقن الدماء!! ثم يستمر نزيف الدم لسنوات وخسارة البلاد بأسرها بما في ذلك كل مؤسساتك!!

هذه أحلام يقظة وظل زائل يوشك أن يكشف عن خسائر مروعة، وترىٰ السياق يبين لك أن البروز للبراز هنا لم يكن عن تكافؤ بين الفريقين ولكنه تم بناء علىٰ مجموعة حيثيات **أولها**: إعداد العدة المستطاعة ماديًّا ومعنويًّا.. العدة المستطاعة وليس المتكافئة، وثانيها: عدم التأخر عند الشعور بضرورة التقدم؛ ولو كان التقدم تظهر فيه روح المغامرة؛ إذ إن التأخر لا يكسب سوىٰ المزيد من الخسائر بل قد تكون الخسائر مروعة، **وثالثها**: اصطفاء المصطفين الأخيار من الصابرين ليكونوا أعوانًا في الخطوات الكبيرة، **ورابعها**: العمل الجماعي في إدارة المعركة، وقد يقتضي ذلك تنوع الآراء المربك للخصم، ولا بأس بتنوع الآراء وظهور المعسكر بمظهر المنقسم ما دام هذا التنوع قائمًا في إطارٍ من المحبة والخطوط الحمراء التي لا تجعل التنوع تنازعًا.

نعم! قرار البروز الخطير لا ينبغي أن يتخذ إذا اجتمع أمران أولهما: اليقين أو غلبة الظن الظاهرة بخسارة المعركة، وتحول الخسارة إلىٰ خسارة كاملة للمنجزات المتحققة أثناء فترة الاستضعاف، وثانيهما: صدور مثل هذا القرار عن عمل استشاري

جماعي من أصحاب الخبرات المتعددة بعد أن ذهبت النبوة، وزالت العصمة عن الأفكار الفردية، وهنا يسدد الله ﷻ المجموع بوضوح حجة الفرد الواحد أمام رأي الغالبية، عندما يكون النقاش في إطار حقيقي من الأخوة والتكامل وطلب التوفيق الإلهي، وليس في إطار التعالي والفخر الفردي، وهنا سترىٰ توفيقًا مدهشًا؛ إذ قد ينقلب رأي الفرد ليُتبنىٰ من قبل المجموع مع وضوح حججه العلمية، وظهور آياته الإيمانية في نفس المتكلم.

فإن تم الاتفاق علىٰ عدم البروز فيجب الانسحاب التكتيكي الحقيقي؛ ليحافظ علىٰ المنجزات السابقة قبل أن تجرفها المغامرة جرفًا، لا يعاد له إصلاح إلا بالاستبدال الإلهي لمن تقدم في غير وقته، وتأخر حين كان يجب عليه ألا يكون من المدبرين. والموفق من وفقه الله جل جلاله. وتصور كيف صنع أبو بكر الصديق رضي الله عنه في القرار الخطير الذي اتخذه أمام العواصف المزلزلة التي أحاطت به وبمن معه من المسلمين في المدينة، وراجعه عددٌ من الصحابة رضي الله عنهم في قرار التقدم الذي اتخذه، فلم يمنع النقاش لكنه لم يلن لنتيجة يراها خاطئة حتىٰ استطاع إقناع الآخرين، وقال عمر رضي الله عنه عن ثمرة النقاش: « فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله ﷻ صدر أبي بكر رضي الله عنه ، فعرفت أنه الحق»[1].

(١) البخاري، رقم الحديث ١٤٠٠.

السُّنَّة الثامنة

تحريك المؤثرات الإعلامية التي تحفز الروح المعنوية في الجيش وذلك عبر الدعاء الجامع للعاطفة المردد سرًّا وجهرًا واستحضار الأهداف المرجوة

ولعل الذي يبصرنا بذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فاستمع يوم ينادي المخبتون ربهم ﷻ لترىٰ عجبًا في شدة تبتلهم عبر الاختيار المركز لعباراتهم، ثم أعد الاستماع لترىٰ دعاءهم قد جمع العواطف التي تجيش في نفوسهم، والمشاعر التي تهز أجسادهم، والأهداف التي ترنو لها عيونهم.

فأظهر أصحاب طالوت التفوق المعنوي من خلال التعبئة الإيمانية إلىٰ آخر اللحظات.. تراهم يدعون، وعندما ترىٰ ضمير الجمع في قوله جل ذكره: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ﴾ فإن كل الصور ترد وتصح: فتتصور الدعاء الجماعي بصوتٍ واحدٍ يثير القلوب، ويهز الأرجاء، ويزرع الثقة في الأنحاء، ويعيد الثقة إلىٰ الخائفين، وتتصور الدعاء فرديًّا، وتتصور هذا الدعاء العالي العامر وهو يردده واحدٌ قائدٌ فيردد الجمع الحاشد، وهذا الدعاء في ساعة الصفر وفي أوقات البلاء والابتلاء هو دأب الربانيين الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦، ١٤٧].

عن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلىٰ المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه عز وجل: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه مستقبل القبلة، حتىٰ سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر رضي الله عنه فأخذ رداءه، فألقاه علىٰ منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتُك ربَّك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩][(١)].

(١) مسلم، رقم الحديث: ٤٦٨٧.

السُّنَّة التاسعة

الدعاء بالثلاثية الابتهالية التي تثبت المحارب ساعة (الصفر) أي ساعة التقاء الجيشين

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

فالدعاء وتكراره من أعظم عوامل النصر كما قال قتيبة بن مسلم ﷺ عن أُصبع محمد بن واسع ﷺ التي يدعو بها: «أحب إلي من مائة ألف شاب طرير، وسيف شهير»[(١)]، وقال نور الدين زنكي ﷺ عندما قيل له أن يحول أعطيات المدارس إلىٰ الجند:« لا أترك سهامًا لا تخطئ، وأعطي سهامًا تخطئ وتصيب»[(٢)].

ويُبَصِّرُنا هذا الدعاء الثلاثي بأن المحارب يحتاج إلىٰ ثلاثة أمور عِنْدَ الْمُحَارَبَةِ[(٣)]:

أَوَّلُهَا: أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ صَبُورًا عَلَىٰ مُشَاهَدَةِ الْمَخَاوِفِ وَالْأُمُورِ الْهَائِلَةِ، وَهَذَا هُوَ الرُّكْنُ الْأَعْلَىٰ للمُحَارِبِ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ جَبَانًا لَا يَحصُلُ مِنهُ مَقصُودٌ أَصلًا، فطلبه أبطال المسلمين من بني إسرائيل مع طالوت ﷺ، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾،فبدأوا بأجمل ما يبتدأ به النداء والدعاء: ربنا، ولم يقولوا يا الله، فلم يأتوا بأداة النداء؛ إذ لا داعي ليباعد بينهم وبين ربهم حائل، وتمسكوا بوصف الله ﷻ بالربوبية التي ترىٰ عطاءها متنزلًا في الرحمة والرزق والرأفة والفيوض التربوية الحانية.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٣، ص١٨٢.

(٢) الحموي، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص١٦٣.

(٣) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥١٤.

ثم قالوا: ﴿ أَفْرِغْ ﴾من فَرَغَ يَفْرُغُ، وفَرِغَ يفرَغُ فَراغًا، والفراغ: الخلو مع سَعَة الذَرْع ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص ١٠] أي: خاليًا من الصبر، ومِنْ ذَلِكَ الفَرَاغُ: خِلَافُ الشُّغلِ، والإفراغُ: الصَّبُّ، فكأنهم لما قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾أي: اصبُبْ. وافْتَرَغْتُ: صَبَبْتُ علىٰ نفسي ماء[1]، لقد طلبوا صبرًا ينهمر عليهم انهمار الوابل يغمرهم به الله سبحانه. ولاحظ تنكير الصبر ﴿ صَبْرًا﴾؛ ليدل علىٰ تفخيم الصبر المطلوب صبه علىٰ القلوب.

وَثَانِيهَا: أَنْ يجد في بيئة المعركة مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ والوسائل والظروف وَالِاتِّفَاقَاتِ الْحَسَنَةِ ما يُمَكِّنُهُ أَنْ يَقِفَ وَيَثْبُتَ وَلَا يَصِيرَ مُلْجَأً إِلَىٰ الْفِرَارِ، ويحاول أن يستفيد من ذلك في تثبيت نفسه، وقد طلب هؤلاء الأبطال ذلك، فقالوا: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ فتثبيت الأقدام إما بتثبيت القلب والجسد فلا يحصل لهما الزلزلة، وإما بوجود الأدوات التي تشعر الإنسان بتفوقه علىٰ عدوه، فيثبت جنانه لذلك:

أي هب لنا ما نثبت به من قوّة القلوب وإلقاء الرعب في قلب العدو فيؤدي ذلك إلىٰ خلخلة جيشه واضْطِرَابه، ونحو ذلك من الأسباب.

وَثَالِثُهَا: أن يحقّق الله له النصر عَلَىٰ قُوَّةِ عَدُوِّهِ العددية والمساندة، وقد طلب هؤلاء البواسل ذلك فقالوا: ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وهنا تَزْدَاد قُوَّتُهُ الواقعية وتتعزَّ مكانته في العالم.

وهذه الثلاثية جاءت علىٰ الترتيب المنطقي، فالصبر سببٌ من أسباب ثبات الأقدام، وثبات الأقدام سببٌ من أسباب النصر علىٰ العدو.

(١) انظر: الفراهيدي، كتاب العين، ج ٤، ص ٤٠٨، العين (٤/ ٤٠٨)، وابن فارس،"فرغ " مقاييس اللغة، ج ٤، ص ٤٩٣.

القسم الثالث

حقائق أزلية وسنن ثابتة في الخريطة العالمية

[البقرة ٢٥٠-٢٥٤]

آيات هذا القسم:

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢ ۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥٤].

ويمكن أن يبصرك هذا القسم بالحقائق الآتية:

الحقيقة الأولى

أحداث العالم تقوم على التداول والابتلاء والقوى الخيرة تكسب المعركة باتباع السنن المادية واستمداد المدد الإلهي

وفي الآية اكتفاء عن المحذوف من الكلام، والتقدير: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]، فاستجاب لهم ربهم، فأفرغ عليهم صبرًا، وثبت أقدامهم، ونصرهم علىٰ القوم الكافرين، ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي كسروهم، فقتلوهم أو أسروهم، وأصل الهَزْم في اللغة الكسر، يقال: سقاء منهزم إذا تشقق مع جفاف، وهزمْتُ العظم أو القصبة هَزْمًا، ويقال: سمعت هَزْمة الرعد كأنه صوت فيه تشقق، ويقال للسحاب: هزيم؛ لأنه يتشقق بالمطر، وهَزَم الضرع وهَزْمُه ما يكسر منه[١].

فقوله: ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ تجلي عظم ما حل بجالوت وجنده يومها، إنه الانصداع والانكسار والاندحار والاندثار أمام كتائب الحق، وبذا فتح للفئة المؤمنة أمام جبروت جالوت وجنوده:

فَتْحُ الفُتوحِ تَعَالَىٰ أَنْ يُحيطَ بِهِ ... نَظْمٌ مِن الشعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ
فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لهُ ... وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ[٢]

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥١٥، وينظر: الفراهيدي، مادة "هزم" كتاب العين، ج ٤، ص ١٦، الزَّبيدي، تاج العروس، ج ٣٤، ص ٩٤.

(٢) التبريزي، الخطيب، شرح ديوان أبي تمام، ج ١، ص ٣٥.

الحقيقة الثانية

مع بذل الأسباب اللازمة والممكنة ورفع المعنويات وتعزيز الثقة بموعود الله لا بد من توقع جميع الاحتمالات حتى يتم امتصاص الصدمات في الأحداث المفاجئة غير المتوقعة

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فقوله ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ تدل علىٰ أمرين: علىٰ حتمية النصر من جهة، وعلىٰ احتمال عدم النصر في بعض المراحل من جهةٍ أخرىٰ.

عند ذلك تطمئن النفس مسلمةً نفسها لمن أسلمت له المزن تحمل ماء سجالًا.. تطمئن بعد أن تكون قد قامت بما يجب عليها.. وتعلم أن النتائج بعد السعي الحثيث إن هي إلا أقدار يبلو الله ﷻ بها عباده، وإذا النفس بذاك قد ارتقت إلىٰ حيز النفوس المطمئنة التي ينزل ربنا السكينة عليها ويثيبها فتحًا قريبًا.. اللهم اجعلنا من أهلها.

وتتوالىٰ عليك الأدلةُ تترىٰ تذكرك أن القدرة علىٰ صناعة التغيير، أو تثبيت الحال علىٰ الواقع المفرح أو البائس الكسير لا يكون شيء من ذلك إلا بإذن ﷻ الله، أي بمشيئته وفضله وتوفيقه.. فـ«ليس لهم من الأمر شيء، ولا حول لهم ولا قوة ولكن اللّه ﷻ يختارهم لتنفيذ مشيئته، فيكون منهم ما يريده بإذنه.. وهي حقيقة جديرة بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عبد اللّه ﷻ. اختاره اللّه ﷻ»[1].

فإن كان الانتصار لا يتحقق إلا بإذن الله ﷻ اقترن أمران في خلد المؤمن وشعوره لا ترىٰ فيهما عوجًا ولا أمتًا: الثقة بالنصر بتوفيق الله وفضله، واستيعاب الانكسار لو

---

(١) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج ١، ص ٢٦٩.

حدث؛ إذ قد تقتضي الحكمة أمرًا لا مرد له من الله ﷻ، ولا بد من تهيئة النفس لأسوأ النتائج ليتمكن المرء من امتصاص الصدمات.

حقيقة: التدافع قائم مستمر بين أمة الإسلام ومعسكر الروم وممتد امتداد الحقب والأزمان، وهذا ما تشهد به الآثار النبوية، وحوادث التاريخ وشواهد الواقع المعاش.

ولنذكر رواية تصور مشهد النفسية الرومية التي تدعو للإعجاب لصلابتها وتماسكها، فعَنِ ابْنِ مُحَيْرِيزٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«فارس نَطْحَةٌ، أو نطحتان، ثم لا فارس بعدها أبدًا، والروم ذات القرون، أصحاب بحر وصخر، كلما ذهب قرن خَلَفَه قرن مكانه، هيهات إلىٰ آخر الدهر، هم أصحابكم ما كان في العيش خير»[(١)]، وقد جاء تعليل سر هذا التماسك في أمة الروم في الحديث الذي يرويه الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ رضي الله عنه حينما قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « تقوم الساعة والروم أكثر الناس »، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو بن العاص رضي الله عنه أبصر ما تقول؟ قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال : لئن قلت ذلك، إن فيهم لخصالًا أربعًا : إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرَّة بعد فرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك »[(٢)]، وفي رواية توضح مزيدًا من النفسية الرومية المدهشة: فقال عمرو:« لئن قلت ذلك، إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأجبر الناس عند مصيبة، وخير الناس لمساكينهم وضعفائهم»[(٣)]، والواقع يظهر ذلك لا ريب؛ إذ العدل والخيرية للمساكين

(١) ابن أبي شيبة، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ج٥، ص ٢٩٥، وضعفه الألباني، قال:«إسناد رجاله ثقات إلا أنه مرسل؛ لأن ابن محيريز – واسمه عبد الله – تابعي مات سنة (٩٩هـ)» سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ج٨، ص ٤٦٥، رقم الحديث: ١٩٦٨٨.

(٢) مسلم، رقم الحديث: ٧٣٨٢.

(٣) مسلم، رقم الحديث: ٧٣٨٣.

والضعفاء ليس إلا لمساكينهم وضعفائهم، ففقه بعض سكان العالم ذلك، فذرعوا البحر رغبة في دخول ديارهم، بعد أن دكت جيوشهم أو جيوش عملائهم الديار الأصلية للمهاجرين، فمنهم من وصل، ومنهم من قضىٰ نحبه، وها هم الروم يريدون إغلاق باب الوصول إليهم، حتىٰ يبقوا علىٰ الصفات الأصلية: خيرهم لمسكينهم لا لمسكين دفعته سياساتهم الظالمة أو المتواطئة مع كباش الفساد إلىٰ ديار غير دياره، أو فلك في غير مداره.

الحقيقة الثالثة

العمل الجماعي المتكامل مفتاح النصر الحقيقي

فلا بد من البحث عن الطاقات، والقوىٰ، والقدرات، وتطبيع الحياة علىٰ توزيع الأدوار، وليس علىٰ التنافس، والبروز الشخصي، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾، فعلىٰ الرغم من أن الله ﷻ زاد طالوت بسطة في العلم والجسم، إلا أن الذي تولىٰ الانتصار علىٰ جالوت هو داود عليه السلام.

وهنا تبرز سنة التعاون، والتفرق.. إنها واحدة من أهم سنن النصر والهزيمة، وينسب إلىٰ سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: «إنَّ هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم علىٰ باطلهم وخُذِلتم بتفرقكم عن حقكم»[(١)].

فسنة التعاون والتآزر والتكامل يتم من خلالها النصر حتىٰ لو كان أصحابها من أهل الباطل؛ إذ إن الحق الذي مع الطرف الآخر يقتضي الاجتماع، فكيف آل آمرهم إلىٰ التنازع إلا أن يكونوا تركوا طرفًا من الحق، فأخرجوه مسخًا مشوهًا؟

فمن حيث خرجت فول وجهك شطر العمل الجماعي المتعاون لتقيس من خلاله النتائج المتوقعة من المعارك الحضارية السياسية والعسكرية والثقافية المختلفة، فإن رأيت التعاون ضاربًا أطنابه رأيت النصر مقبلة راياته، وإن رأيت التنازع أو رأيت مقدماته من الحسد والتباغض، تنبأت دون وحيٍ أن الفشل الذريع سيكون مصيرًا محتومًا.

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط١، ج٤، ص١١٤.

قال تعالى:

وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟
رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا
عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ
وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ

[البقرة: ٢٥٠ - ٢٥١]

يتحقق النصر الحقيقي بـ:

فيا بئس المصير.. وليست المسألة متعلقة بالأماني وتفوق الجنس والجنسية، وانظر عدد دول الاتحاد الأوروبي حيث ينتقل رعاياها فيما بينها جميعًا، دون أن يحتاج أحدهم إلىٰ إبراز الهوية، وتأمل في خفوت التفوق العنصري عندهم مقارنة بالجعجعة التي تراها في بلاد العرب.

أسمعت يومًا باقتتال أوروبا؟! ورأيت كم قد أشعلوها حربًا!!
ستون مليونًا وزادت فوقها عشرون!!.. قتلٌ يستفز القلبا
حربان شاملتان.. أُهلك فيهما حرثٌ ونسلٌ واستطالت جَربا
الحقد والإفساد دمَّر أرضهم وأذاق عالَمنا... جميعًا كربا
لم تعرف الدنيا حروبًا مثلها وحشية منها الليالي غضبىٰ
لم يرحموا طفلًا ولا امرأة ولا شيخًا طريحًا أوسعوهم ضربا
قتلًا وتشريدًا وغصبَ ديارهم شربوا دماهم بالمدافع.. شُربا
فاعجبْ إذا شاهدت كيف تآلفوا!! وغدوا علىٰ قلب وأرسوا حبا
بل أسسوا وبنوا لوحدة أرضهم فانظر... يلوح لك اتحاد أوروبا
أمنٌ.. وسِلم.. والأمانة عندهم ..في دارهم للملتجين القُربىٰ
وإذا رأيت إلىٰ سياستهم... فلا تعجب!! إذا ألفيتهم كالحرباء
فهمُ مع الأغراب غربٌ غصةٌ في كل أرض... يُتقنون النهبا
فإذا أتيتَ ديارهم عش مُكرما لكن... توخَّ سمومهم.. لا تَغبَ
وإذا أتوك... فلست غير مطيةٍ تُعطِىٰ الكنوز.. ولا تحوز السَلَبا
ماذا لو أن المسلمين توحدوا؟!! أو بعضهم عجمًا سموا أو عُربا؟!
هذا سؤال... من يجيد جوابه؟ بالفعل صدقًا.. كي ينير الدربا!![1]

(١) قصيدة للأستاذ محمد المثيل بعنوان (من الحرب إلى الحبّ).

وزعموا أن دواد عليه السلام قتله بغير سلاح، وقال: إنِ اللهُ لم ينصرني عليه، لم يغن السلاح! فخرج إليه بالمقلاع، وبمخلاة فيها أحجار، ثم برز له. قال له جالوت: أنت تقاتلني؟ قال داود عليه السلام: نعم! قال: ويلك! ما خرجت إلا كما يخرج إلىٰ الكلب بالمقلاع والحجارة! لأبددن لحمك، ولأطعمنّه اليوم الطير والسباع! فقال له داود عليه السلام: بل أنت عدو الله شر من الكلب! فأخذ داود حجرًا ورماه بالمقلاع، فأصابت بين عينيه حتىٰ نفذ في دماغه، فصرع جالوت وانهزم من معه، واحتز داود عليه السلام رأسه[1].

هكذا يروي الإخباريون.. فهل كان الأمر كذلك؟ لا يوجد عندنا ما يدل علىٰ ذلك، وهل المقلاع إلا سلاح؟ بل هو شر سلاح لمن أجاد استعماله، فهو مسدس فعال شديد الإصابة، ولكن علىٰ الطريقةالداوودية.. لكن بعض القوم يرىٰ أن يأتي بالرواية - إن صحت - في جو خارق للعادة، مع أن سياق الآيات يدل علىٰ النصر المعتاد الذي صحبه نصر الله عز وجل وبركاته كما قال الله سبحانه وتعالى عن أهل بدر: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وقد نقل الطبري رحمه الله ما تنبو عنه النفس أو تتوقف، وحشد فيه أخبارًا كالحة متناقضة يحطم بعضها بعضًا، وهي مملوءة بالطابع الخارق للعادة، وأوشك أن أقول: إنها ملوءة بالطابع الأسطوري الذي يذكرك بقصص الإغريق الخرافية، وقصص السلاف الغريبة[2]،فهذه الروايات مظلمة ينافي أولها آخرها، ومن عجبٍ أن سفر صموئيل دل علىٰ نبوة طالوت، ثم يبدر منه كل هذا الإجرام وكل تلك الخيانات!

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج ٥، ص ٣٥٥.

(٢) الطبري، جامع البيان، ج٥، ص٣٥٥، وما بعدها.

فتنزه عن سماع ذلك اللغو، وانظر وفقك الله ﷻ لتجد السياق القرآني يدل علىٰ التعاون البناء بين القائد العظيم (طالوت) رئيس المجلس الأعلىٰ للقوات المسلحة الإسرائيلية المسلمة، وبين شعبه حتىٰ كان من ثمرة هذا التعاون البناء أن ظهرت المواهب التقية النقية، فبرز منها الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، وبرز منها داود عليه .

الحقيقة الرابعة

تداول السلطة، وتدوير الوظيفة، وتغيير المسؤولين؛ لبث الدماء الجديدة وفق مقاييس الكفاءة والنزاهة

تعد هذه الحقيقة من أهم عوامل الاستمرار في النجاح والمحافظة علىٰ المنجزات، إلا أنْ يوجد اصطفاء إلهي، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١] علىٰ أن يكون التداول حكيمًا قائمًا علىٰ اختيار الأكفاء لا علىٰ مجرد التوريث المحض؛ ولا علىٰ مجرد الرغبة في التغيير، فاختيار القيادة الجديدة بناء علىٰ الصفات المميزة؛ فإن كان ما حدث من تملك داود عليه السلام اصطفاء ربَّانيًّا، فقد سبق أن أمة النبي الخاتم ﷺ لا نبي فيها بعده ﷺ فلم يبق إلا التداول القائم علىٰ الشورىٰ:

وتعال فانظر سببًا من أسباب الانتصارات التي حازتها الإدارة الراشدة لدىٰ الجيل الذي تربىٰ علىٰ عين محمد ﷺ، فقد كانت السمة العامة في العمل الإداري عندهم تدوير الوظيفة بين الكفاءات الصالحة، فعن عبد الملك بن عمير رحمه الله قال: استعمل عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما علىٰ الشام، وعزل خالد بن الوليد رضي الله عنه. فقال خالد بن الوليد رضي الله عنه: بعث عليكم أمين هذه الأمة. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه»، قال أبو عبيدة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خالد رضي الله عنه سيف من سيوف الله عز وجل ونعم فتىٰ العشيرة»[(١)].

---

(١) أحمد، ج ٤، ص ٩٠، رقم الحديث: ١٦٨٦٩، وقال شعيب الأرناؤوط رحمه الله: حديث صحيح لغيره دون قوله: "ونعم فتى العشيرة" فهو حسن لغيره..

قال تعالى:

وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ

[البقرة: ٢٥١]

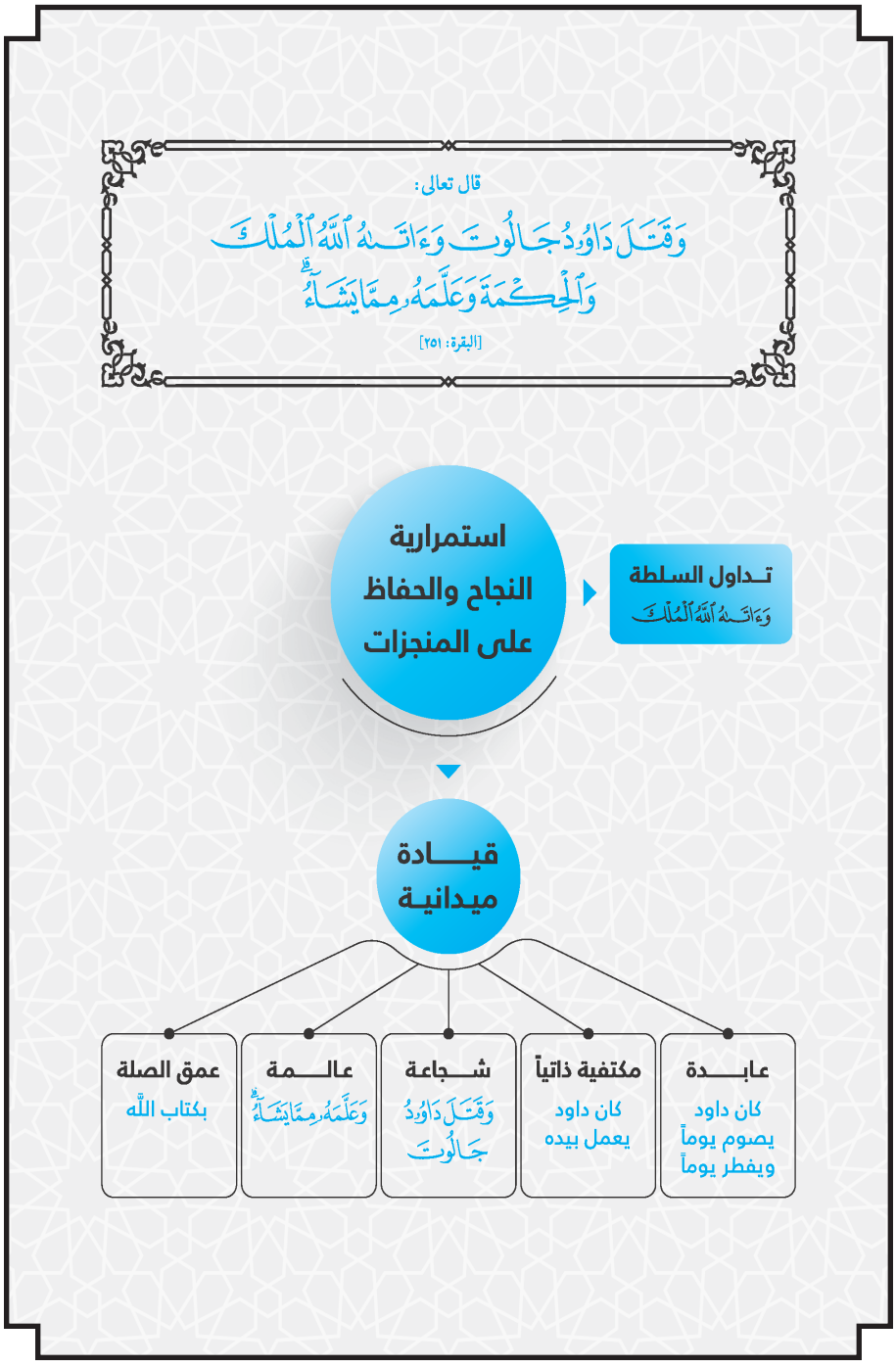

ويبين لنا عمر بن الخطاب ﷺ ضرورة تتبع الصفات في الكفاءات المختارة، فلا يكون التدوير غايةً في ذاته؛ إذ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ: لو عهدت يا أمير المؤمنين؟ قال: لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته، ثم قدمت علىٰ ربي، فقال لي: لم استخلفته علىٰ أمة محمد ﷺ؟ قلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: «لكل أمة أمين، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ﷺ»، ولو أدركت خالد بن الوليد ﷺ ثم وليته، ثم قدمت علىٰ ربي، فقال لي: من استخلفت علىٰ أمة محمد؟ لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: «لخالد سيف من سيوف الله ﷻ سله الله علىٰ المشركين ﷺ»[(١)]. ولا بد أن نشير إلىٰ أن القيادة الأصغر التي تتولىٰ مسؤولياتٍ محددة لا بد أن تكون نافذة الكلمة، مؤتمنة علىٰ ما تحتها، قد مُنِحت السلطات الكاملة، والصلاحيات المناسبة ليتم الثقة بتصرفاتها، وليظهر الإبداع في تنفيذ الأفكار التي تحقق الأهداف المرجوة من تعيينها، فمن صفات القائد الناجح مساعدة الآخرين علىٰ النمو،كما يقول المتخصصون في علوم الإدارة «القادة الحقيقيون لا يسعون للتطور والنمو الذاتي فقط، وعندما يكون جوُّ العمل سليمًا وصحيحًا و خاليًا من الشخصانية والفردية، يتم حينها تبادل الأفكار والمعارف والخبرات بحرِّية مما يؤدي إلىٰ التعاون، ومن خلال هذا التعاون تصبح المنظمة والعاملون فيها، جزءًا متكاملًا لا يتجزأ منتجين فريقًا يتصدىٰ لأقوىٰ المهام والمعيقات»[(٢)].

فلا يتوقع من طالوت الذي اختاره الله ﷻ ليقود الإسرائيليين أن يضيق صدره بالنجاحات التي حققها داود كما تورد الرواية الإسرائيلية، بل علىٰ العكس من ذلك، ولقد شدد النبي ﷺ علىٰ منح التفويض الكامل للصلاحيات لكل قيادةٍ، وأجاز

(١) الشاشي، الهيثم بن كليب، المسند، ج ٢، ص ٩٣، رقم الحديث ٦١٧.

(٢) لهلوب، ناريمان يونس، مهارات القيادة التربوية الحديثة، ص٥٤.

تصرفاتها ما دامت تتخير مما أنزل الله ﷻ، فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَتَلَ رَجُلٌ مِنْ حِمْيَرَ رَجُلًا مِنَ الْعَدُوِّ، فَأَرَادَ سَلَبَهُ، فَمَنَعَهُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ﷺ، وَكَانَ خالدٌ ﷺ وَالِيًا عَلَيْهِمْ- وهذا ضمن الصلاحيات المكفولة لخالد ﷺ باعتباره أميرًا- فَأَتَىٰ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ -أي يشتكي خالدًا ﷺ-، فَقَالَ النبي ﷺ لِخَالِدٍ: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تُعْطِيَهُ سَلَبَهُ؟». قَالَ: اسْتَكْثَرْتُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «ادْفَعْهُ إِلَيْهِ» -وأراد النبي ﷺ تطييب خاطر الحميري، فهو جنديٌّ أبلىٰ بلاء حسنًا- فَمَرَّ خَالِدٌ بِعَوْفٍ الذي اشتكاه إلىٰ رسول الله ﷺ، وعوفٌ ﷺ جنديٌّ آخر ضمن قيادة خالد ﷺ، فلما مر خالدٌ بعوفٍ جَرَّ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ لخالد ﷺ: هَلْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ يقصد أنه هدد قائده خالدًا ﷺ بأن سيشتكيه إلىٰ رسول الله ﷺ، وبذا اتضح أن عوفًا ﷺ جعل الشكوىٰ ليس مجرد شكوىٰ عادية بل صارت تشكيكًا في كفاءة خالد للإمارة، وتشويشًا علىٰ اختياره الفقهي ضمن دائرة صلاحياته، فقد اختار خالدٌ ﷺ أن يمنع الحميري من غنيمته، فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتُغْضِبَ -عندما ظهر أن المراد من الشكوىٰ البعدُ الشخصيُّ، والنيل من شخصية القيادة مع أن الاختيار الذي قامت به ليس إثمًا- فَقَالَ النبي ﷺ مُبَيِّنًا حق خالد ﷺ في استخدام صلاحياته: «: لا تعطه يا خالد، لا تعطه يا خالد، هل أنتم تاركون لي أمرائي ؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعي إبلًا، أو غنمًا، فرعاها، ثم تحين سقيها، فأوردها حوضًا، فشرعت فيه فشربت صَفْوَه، وتركت كَدَرَه، فَصَفْوُهُ لكم، وكَدَرُه عليهم»[1]. والنبي ﷺ يبين أن خالدًا ﷺ اختار أمرًا صحيحًا، وبذل جهده في تأدية الأمانة في إمارته، وإنما شفع النبي ﷺ للحميري، ولم يأمر خالدًا ﷺ أمرًا جازمًا، وكان خالدٌ فقيهًا فأجاز شفاعة النبي ﷺ ولم يفهم ذلك

(١) مسلم، رقم الحديث: ٤٦٦٩.

عوف ﷺ، فلما ظهر أنه لم يفهم أمر النبي ﷺ خالدًا بلزوم حكمه الأول في منع الحميري، وليس هذا الحديث سيفًا بيد الأمراء ليفعلوا ما شاءوا، ولكن ليقوموا بأداء أماناتهم وفق الشرع كما تعلم.

هذه الحقيقة تعني الاستفادة من الطاقات الموجودة ضمن الملأ مهما صغرت إمكانياتهم، أَلَّا يكون القائد متعاليًا في التعامل مع من دونه في المسؤوليات وفق منطق الحسد والتنافس.

إنك لتلمح عجبًا، فوجود النبي وسط بني إسرائيل لم يكن كافيًا لتكوين قيادة تغييرية في واقع الاستضعاف الذي رزحوا تحته وقد أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم، فاحتاجوا لقيادةٍ رديفة، فبعث الله ﷻ لهم طالوت ملكًا.. لقد كان طالوت من أقوىٰ الناس في قدراته المدهشة، ومواهبه المتعددة.. استحضر هذه القدرات، وأخبرني من ذا يمكن أن يضاهيه وقد أخبرهم نبيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧]؟ وعلىٰ الرغم من هذه القدرات العظيمة إلا أن من أعظم عوامل النجاح التي وظفها طالوت: الاستفادة من الطاقات التابعة له.. فلم يقدر لطالوت أن يضع السهم في مركز الحياة النابض عند أعدائهم.. لم يُقدَّر لطالوت أن يضعضع مركز الثقل في جيش جالوت.. بل الذي فعل ذلك هو داود عليه السلام..

متىٰ سيشعر الأشياخ وقادة الحركات العتيدة.. متىٰ سيشعر قادة الدول والجماعات والمؤسسات بأنهم بأمس الحاجة لأن يجمعوا أصحاب الطاقات حولهم حتىٰ لو كانوا أقل منهم علمًا في باب، أو أضعف حكمة في أبواب، أو دونهم قوة في جوانب.. لكنهم سيجدون عندهم ما لم يقف عليه نبي الله سليمان عليه السلام لكن الهدهد آزره به؟

وحاولت الروايات الإسرائيلية المحرفة تشويه هذا النجاح الذي أحرزه طالوت بذكر منافسته لداود ٣.. لقد غرهم في دينهم ما كانوا يفترون، فإنَّ من ديدنهم أن يبنوا أي نجاح علىٰ مقدار الخداع والمكر، والمؤامرات السوداء منذ أن اخترعوا قصة احتيال حواء وآدم عليهما السلام لتناول شجرة معرفة الخير والشر كما زعموا، ثم احتيال يعقوب عليه السلام لسرقة بركة إسحاق عليه السلام من أخيه، وتراهم هنا شوهوا صورة طالوت كما فعلوا في تشويه داود عليه السلام بذكر منافسته لقائد جيشه علىٰ امرأته، وما ذاك إلا اختراع لقصصٍ لا وجود لها بين المصطفين الأخيار، وارجع البصر كرتين في واقع العمل الإسلامي لتجده مزدحمًا بالمنافسات المحمومة غير الشريفة التي يكون حاديها الخوف من الطاقات الفاعلة بدلًا من استيعابها وتفعيلها.

التحاسد داء النخب ومعضلة الرواد:

إن المرء -والله- ليأسىٰ قلبه، ويكاد أن يبخع نفسه لما يرىٰ من دأب ثلةٍ من القيادات العلمية والدعوية عندما يرىٰ الحسد يتمكن منها لا تغيظًا علىٰ قرنائها، فقط بل حتىٰ علىٰ من دونها سنًا ومسؤولية خوفًا من أدنىٰ منافسةٍ تظهر بها عوراتها القيادية.. والحسد جزء من الملكات الإنسانية يخبرنا الله جل ذكره عنه، والحسد جزء من أدواء وأمراض الإنسانية التي لا ينفك عنها إلا الموفقون أو تنفك عنهم، ويكثر النبي ﷺ من نشر البينات التربوية حوله لنعترف بوجوده في أنفسنا، ولنحارب مآلاته الرديئة القذرة، «وإن أي تحول حقيقي لتصحيح هذه المسارات يبدأ من نقطة الإقرار بخطورة مثل هذه المسالك... وأول العلاج المصارحة.. وهي بطبيعة الحال ليست يسيرة»[(١)]، وحسبك أن تعلم أنَّ الحسد منع قيادات من أهل الكتاب أن يتبعوا الحق الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فقال الله عز وجل عن ذلك: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[النساء: ٥٤].

(١) جاسم سلطان، أزمة التنظيمات الإسلامية، ط: ١، ٢٠١٥م، ص ١٦٤.

فالتفت لترىٰ قياداتٍ ممكنة ضمن الأنظمة الحاكمة القائمة في الأمة الإسلامية لا همَّ لها إلا القضاء علىٰ كل منافسٍ محتمل، ولتمدن عينيك لترىٰ الواقع ذاته في قياداتٍ منضوية تحت مظلة العمل الإسلامي، ولقد أفضىٰ الحسد بأقوامٍ أوتوا علمًا جمًا إلىٰ أن يتمنوا أن يكفر غيرهم.. لا لشيء بل حسدًا من عند أنفسهم، فاسمع وافزع لهذا النبأ العاجل الذي يقول الله ﷻ فيه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

ولقد كان من أهم الوصايا النبوية التي تورث الريادة والقيادة الحذر من مدمرات الأعمال الجماعية التي لخصها النبي ﷺ في بيانه المهم الذي قال فيه: «إِيَّاكُم وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، [وَلاَ تَنَافَسُوا وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُم عَلَىٰ بَيْعِ بَعْضٍ]، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا[الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ وَلاَ يَحْقِرُهُ. التَّقْوَىٰ هَا هُنَا». وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَىٰ الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»]» [(١)].

وتحسسوا أي تتحسسوا بإسقاط التاء. قال الخطابي رحمه الله: معناه لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها، قال الله تعالىٰ حاكيًا عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وأصل هذه الكلمة التي بالمهملة من الحاسة إحدىٰ الحواس الخمس، وبالجيم من الجس بمعنىٰ اختبار الشيء باليد، وهي إحدىٰ الحواس فتكون التي بالحاء أعم، وقيل بالجيم البحث عن عوراتهم وبالحاء استماع حديث القوم، وقيل بالجيم البحث عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر وبالحاء البحث عما يدرك بحاسة العين والأذن. ورجح هذا القرطبي رحمه الله، وقيل بالجيم تتبع الشخص لأجل غيره وبالحاء

(١) البخاري، رقم الحديث ٦٠٦٦، مسلم، رقم الحديث: ٦٧٠١، و ٦٧٠٦.

تتبعه لنفسه وهذا اختيار ثعلب ﵀، ويستثنىٰ من النهي عن التجسس ما لو تعين طريقًا إلىٰ انقاذ نفس من الهلاك مثلا كأن يخبر ثقة بأن فلانًا خلا بشخص ليقتله ظلمًا أو بامرأة ليزني بها، فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذرًا من فوات استدراكه نقله النووي ﵀ عن الأحكام السلطانية للماوردي ﵀ واستجاده[١].

صفات القيادة الجديدة التي آلت إليها الأمور بعد طالوت ﵀:

باستقرائنا لصفات القيادة الجديدة المتمثلة في داوود ﵇ تتجلىٰ أمامنا الصفات الريادية الآتية:

الصِّفَةُ الأولىٰ: الربانية وعمق الصلة بالله:

وهي خصلة تجعل من المتصف بها إمام رشد وهدىٰ، يقتدىٰ به حتىٰ يصير الكون بما فيه ومن فيه محرابًا يعبد الله ﷻ فيه ويذكر، قال تعالىٰ عن داود ﵇: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾[الأنبياء: ٧٩].

حتىٰ صار إخباته في سجوده موضع اقتداء، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النبي ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود،... فقرأ النبي ﷺ سجدة، ثم سجد، قال: فقال ابن عباس ﷺ: فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة[٢].

---

(١) النووي، يحيى بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج ٢، ص ٢٦.

(٢) سنن الترمذي، ج٢، ص٤٧٢ رقم الحديث:٥٧٩، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وحسنه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ٦، ص ٤٧٤-٤٧٦.

منظومة التفوق القيادي
عند سيدنا داود عليه السلام
الصفة الأولى:
الربانية وعمق الصلة بالله:
﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: 79].
الصفة الثانية:
عمق الصلة بكتاب الله عز وجل وإدامة تلاوته وتدبره والتفقه فيه: فقد جاء في الأثر: «كان داود النبي عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تَفَتَّقَتِ العذارى»
الصفة الثالثة:
العمل الميداني المؤثر والإنجاز الملموس:
﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251].
الصفة الرابعة:
العبادة المتفردة حتى صارت أحب أنواع العبادة إلى الله تعالى:
عن عَبْد اللهِ بْن عَمْرو قَالَ: قَالَ لي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود عليه السلام، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله عز وجل صلاة داود عليه السلام، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»
الصفة الخامسة:
الشجاعة في المواجهة: مما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم من خصال داود عليه السلام ومناقبه: «وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَى»
الصفة السادسة:
اتصافه بما يجعله أهلًا للاصطفاء الإلهي:
فقد قال الله تعالى جده: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 251].
الصفة السابعة:
الفاعلية القيادية الحقيقية، خاصة في المجال الأمني، وابتكار ما يقيم الحضارة، ويحميها ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: 10، 11]، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: 80].
الصفة الثامنة:
السعي لإقامة الاكتفاء الاقتصادي: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»
الصفة التاسعة:
الارتباط بالحق والرجوع إليه عند خوف الزلل:
ويظهر ذلك في سجوده عليه السلام عند خوف الفتنة، ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾.

الصِّفَةُ الثانية: عمق الصلة بكتاب الله ﷻ وإدامة تلاوته وتدبره والتفقه فيه:

فقد أُثر أنه «كان داود النبي عليه السلام إذا أخذ في قراءة الزبور تَفَتَّقَتِ العذارىٰ»[(١)]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لقد أعطىٰ أبو موسىٰ رضي الله عنه مزامير داود عليه السلام»[(٢)]، فما أحوج رواد البعثة والتجديد في العمل الإسلامي إلىٰ الارتباط الوثيق بكتاب الله ﷻ.

«إننا بحاجة لتنزيل جديد للقرآن، ويعنىٰ به قدحًا لحركة التداول الاجتماعي للقرآن وذلك بأن ينطلق أهل البعثة التجديدية بآياته وحقائقه في المجتمع تبصرًا وتبصيرًا وتدبرًا وتدبيرًا في دعوة تربوية بنائية شاملة»[(٣)].

الصِّفَةُ الثالثة: العمل الميداني المؤثر:

ويُبَصِّرُنا بهذه الصفة قوله تعالىٰ جده: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وبنظرة في صنيع داود عليه السلام لا نجده يكتفي بتحقيق الإنجاز وإسقاط الواجب بل وصل إلىٰ مرحلة الإبداع في تحقيق الهدف.

الصِّفَةُ الرابعة: العبادة المتفردة حتىٰ صارت أحب أنواع العبادة إلىٰ الله ﷻ:

فعن عَبْد اللهِ بْن عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أحب الصيام إلىٰ الله ﷻ صيام داود عليه السلام، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلىٰ الله ﷻ صلاة داود عليه السلام، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[(٤)].

---

(١) أبو عوانة، مسند أبي عوانة، ج ٢، ص ٤٨٢، رقم الحديث ٣٩١٤، وقال ابن كثير: وهذا غريب. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢، ص ١١.

(٢) أحمد، ج ٢، ص ٣٥٤، رقم الحديث: ٨٦٣١، وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٣) فريد الأنصاري، الفطرية، ص ٢٤.

(٤) البخاري، رقم الحديث: ٣٤٢٠.

الصِّفَةُ الخامسة: الشجاعة في المواجهة:

ففي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال النبي ﷺ في عد خصال داود عليه السلام ومناقبه: «وَلَا يَفِرُّ إِذَا لَاقَىٰ»[1].

الصِّفَةُ السادسة: الارتباط بالحق، والرجوع إليه عند خوف الزلل:

ويظهر ذلك في سجوده عليه السلام عند خوف الفتنة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص ٢٤ - ٢٦].

الصِّفَةُ الخامسة: اتصافه بما يجعله أهلًا للاصطفاء الإلهي:

فقد قال الله تعالىٰ جده ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: [البقرة: ٢٥١]، فالمراد من الحكمة النبوة، فترقىٰ داود عليه السلام إلىٰ المراتب العالية: الملك، والحكمة.. وقد تتساءل: فكيف يصنع من يجيء بعد الأنبياء عليهم السلام ولا وحي يسددهم؟

الجواب: يمنحهم الله عز وجل توفيقه وهدايته إذا قاموا بالواجبات المادية واعتصموا بالقوة الإلهية، ومن أعظم الواجبات التي يمنحهم من خلالها التوفيق: تطبيق مبدأ الشورىٰ.

فأهم أسباب النصر والتمكين توفر الصفات السابقة، وبذا يكون للصفات الكسبية أثرٌ في الواقع الفعلي، وإيتاء الحكمة يمكن أن يحمل علىٰ المعنىٰ العام أي وضع الشيء في موضعه، وهذه تتأتىٰ بناء علىٰ الصفات الكسبية السابقة، ثم تكون القسمة الإلهية، ويختص الله سبحانه وتعالى برحمته من يشاء بعد ذلك.

والنُّبُوَّةُ اختيار، لكنه اختيار واصطفاء لمن يصلح له، كَمَا

(١) البخاري، رقم الحديث: ١٩٧٧، ومسلم، رقم الحديث: ٢٧٠٤.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ [الدُّخان: ٣٢، ٣٣] .وَقَالَ:﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الْأَنعَام: ١٢٤].

ولقد كان داود عليه السلام فريدًا في كل صفاته حتىٰ استحق أن يسبغ الله عز وجل عليه نورًا يُظهِر تميزه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « لما خلق الله عز وجل آدم عليه السلام مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلىٰ يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وَبِيصًا من نور، ثم عرضهم علىٰ آدم عليه السلام فقال: أي رب، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأىٰ رجلًا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود عليه السلام فقال: رب كم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب، زده من عمري أربعين سنة، فلما قضي عمر آدم عليه السلام جاءه ملك الموت، فقال: أولم يبق من عمري أربعون سنة؟ قال: أولم تعطها ابنك داود عليه السلام قال: فجحد آدم عليه السلام فجحدت ذريته، ونسي آدم عليه السلام فنسيت ذريته، وخطئ آدم عليه السلام فخطئت ذريته »[(١)].

الصِّفَةُ السادسة: الفاعلية القيادية الحقيقية، خاصة في المجال الأمني، وابتكار ما يقيم الحضارة، ويحميها:

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٥١]:

في المجال العسكري: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، وفي مجال التصنيع الحربي والعام: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ﴾[الأنبياء: ٨٠]، ويدخل في تعليمه: تعليم القدرة الإدارية

(١) سنن الترمذي، ج٥، ص٢٦٧ رقم الحديث:٣٠٧٦، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وحسنه الألباني. انظر: التبريزي، مشكاة المصابيح، ج٢، ص ٤٢.

علىٰ إقامة دولة وضبطها.

وعلىٰ الرغم من نبوته فإن العبد لا يزال يحتاج إلىٰ العلم، وها هو خاتم الأنبياء ﷺ يعلمه ربه ﷻ أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

«إن الإيمان والعبادة أمران عظيمان، ولكنهما في صياغة الحياة جزء من المعادلة؛ فمن أراد الحسنيين: الدنيا والآخرة، فيجب أن يكمل شروط عمل الدنيا وهو شق (وعملوا الصالحات) التي بها تنمو حياة البشر.. فمعادلة القرآن تشير إلىٰ بعد السماء بمثل: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وإلىٰ بعد الأرض: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وهي طريق كبير تفرَّغُ فيها كل المواهب الإنسانية لعمران الحياة والسباق فيها له سننه المعلومة»[(١)].

الصِّفَةُ السابعة: السعي لإقامة الاكتفاء الاقتصادي:

فعَنِ الـمقْدَامِ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قال:« ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [(٢)].

(١) سلطان، أزمة التنظيمات الإسلامية، ص ٣١.

(٢) البخاري، رقم الحديث: ٢٠٧٢.

الحقيقة الخامسة

سنة الدفع كفيلة بإزالة الفساد واستئصاله

المفسد يُصِرُّ علىٰ السعي في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، وأعظم سنن التغيير، وأقوىٰ السنن الحركية لتداول الأيام: سنة الدفع والمدافعة، وهي السنة الوحيدة التي تزيل الفساد عن الأرض.

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالتغيير ليس أمرًا خارجًا عن الطاقة البشرية، بل هو قائم علىٰ الفعل البشري، ولا يكون إلا بأن يوجد أمام المدفوع مدفوع به ودفعٌ له، فلا ينتظر الطرف الآخر نزول معجزة إلهية ليحدث تغيير في موقفه وحياته، ولا يمكن بناء الانتصارات وتحقيق الإنجازات بالمعجزات المحضة، فـ﴿لولا﴾ في الآية حرف امتناع لوجود، أي لولا وجود دفع الله ﷻ الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض.. هذا ما اقتضته الصناعة النحوية.. وهذا التعبير يلقي بظلال وارفة في فهم كيفية حدوث التغيير في الواقع الأرضي؛ إذ يعني أن دفع الله ﷻ الناس بعضهم ببعض موجود وقائم؛ لئلا يحدث الفساد في الأرض، أي امتنع الفساد في الأرض لوجود دفع الله ﷻ الناس بعضهم ببعض، والدفع والدفاع يقتضي وجود طرفين أو أطرافٍ أو قطبين أو أقطابٍ يتنازعون السيطرة علىٰ العالم، فيذهب الله ﷻ الفساد أو يقلله فلا يعم، بسبب هذا التدافع بين هؤلاء الأقطاب، وأصل معنىٰ الدفع الضرب باليد للإقصاء والتنحية[1].

---

(١) ابن عاشور، ج ٢، ص ٥٠٠.

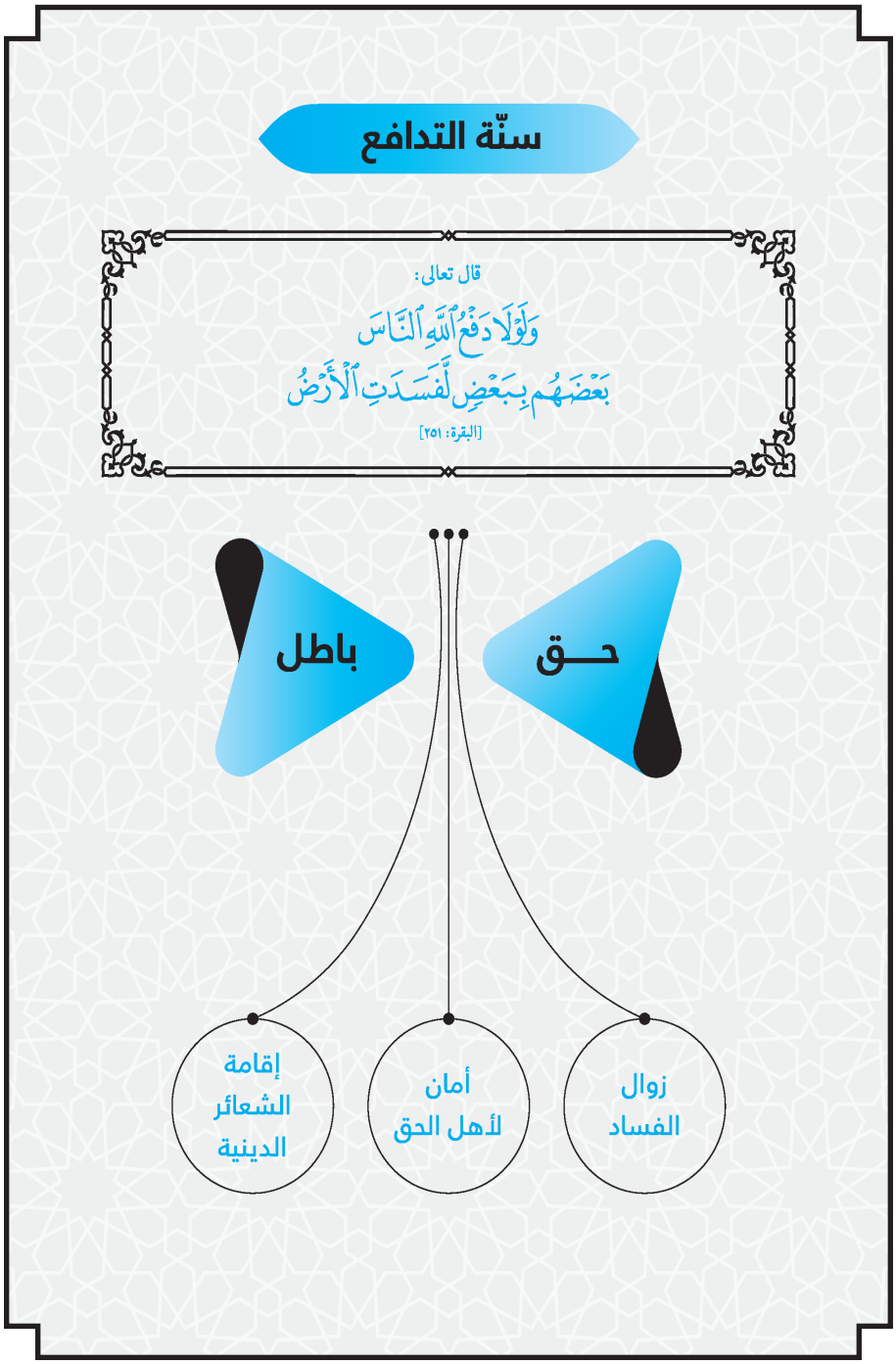
سنّة التدافع
قال تعالى:
وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ
بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ
[البقرة: ٢٥١]
حـــق
باطل
زوال الفساد
أمان لأهل الحق
إقامة الشعائر الدينية

تسمع قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ فتعلم أن التدافع لا بد له من طرفين:

الطرف الْمَدْفُوع فهو الطرف المعتدي المصر علىٰ العدوان والمكر والتآمر.

والطرف المدفوع به: ﴿بِبَعْضٍ﴾ وقد يكون صالحًا، وقد يكون فاسدًا في ذاته غير مفسدٍ للأرض وفي الأرض، وقد يكون مفسدًا لكن فساده أخف من الطرف المدفوع، فما الذي يدفعه من الطرف الأول؟ إنه يدفع ما يؤدي إلىٰ الفساد في الأرض، والذي يؤدي إلىٰ الفساد في الأرض: الحكم بالجاهلية، وإشاعة الفسق، وجعل الظلم شريعة دولية، وتغليب حق القوة علىٰ قوة الحق.

من صور الفساد الذي يُسْتَدفع:

ذكر بعض أئمتنا أن الشيء الذي يُدفع هو الكفر.. هذا صحيحٌ جزئيٌّ

لكن الصحيح أن الكفر لا يشيع إلا اقترن به الظلم والإجرام، ونتج من ذلك الفساد في الأرض، بل إن الكفر نتيجةٌ لسيطرة الظلم علىٰ الأرض حيث تكون شريعته هي الشريعة المهيمنة، وأنظمته هي السائدة، وعندها يمنع أنوار الإيمان؛ لأن المفسدين يشعرون أن أنوار الإيمان بوحدانية الله سبحانه وتعالىٰ تنازعهم السلطة المطلقة التي يستخدمونها للإفساد، حتىٰ وإن زعموا أنهم مسلمون.

ومن الفساد الواضح شيوع القتل، وظهور الجور في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الدولية حيث تختلف قيمة الفرد ومكانته بين الأمم، وعندها يكون كما قيل[1]:

---

(١) البيتان للشاعر أديب إسحاق الدمشقي (ت: ١٣٠٢هـ) قالهما تعقيبًا على جريمة حصلت في غابة من غابات أوروبا، أثارت استنكار الناس بينما يغض العالم الطرف عن جرائم كبرى بحق الإنسانية.

قَتْلُ امرئٍ في غابَةٍ جريمةٌ لا تُغْتَفَرْ
وقتلُ شَعْبٍ كاملٍ مسألةٌ فيها نَظَرْ

ومن الفساد تدمير البيئة لصالح الأنانية الجشعة التي يتسم بها قلة من الأفراد يستغلون المناصب التي يتبوؤونها لزيادة الإفساد تحقيقًا لجمع أكبر قدرٍ من المال، وتثبيت الخرافات القادمة من أفكارهم المريضة مثل إجرام فكر (هرمجدون)[1]، وقد قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ ذكره عن هذا النوع من الفساد: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ومن فسادهم وإفسادهم في الأرض إشاعة القتل والمتاجرة به، ويصف الله ﷻ هذا النوع المؤلم من الإفساد فيقول علىٰ لسان من خاف من القتل: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القَصَص ١٩].

ومن الإفساد في الأرض ظهور التغير المناخي، والإفساد لسنن الحياة الكونية بعد الإفساد لسننها الشرعية حيث يقول الله جل ذكره: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الرُّوم: ٤١]، ولا يبعد أن يقال بأن ورود هذه الآية في سورة الروم إشارة إلىٰ دور الروم في هذا الفساد الكبير، وانظر للتغير المناخي، ومجادلة المستكبرين فيما يدمر مستقبل البشرية مؤمنها وكافرها، حيث أصرت أكبر

(١) بحكاية هرمجدون هذه في حربهم المقبلة مع المسلمين وعقيدتهم الشيطانية بجدارة يمكن أن يعد كتاب (Forcing of God's Hand) – ترجمة حسام تمام – وهو أهم ما صدر في الشأن الديني الأمريكي في العام الماضي، وربما كان من أهم الكتب التي عالجت باقتدار قضية التوظيف السياسي الذى يصل إلى حد الابتزاز للنبوءات الدينية في العقد الأخير من القرن العشرين. والمؤلفة هي الكاتبة الأمريكية المعروفة غريس هالسل التي عملت محررة لخطابات الرئيس الأمريكي الأسبق ليندون جونسون، وهي صحفية مشهورة ومرموقة صدرت لها عدة كتب، أهمها وأكثرها شهرة (النبوءة والسياسة). مقال لحمدي شفيق رئيس تحرير جريدة النور الإسلامية، ص٢.

دول العالم علىٰ الانسحاب من معالجة أخطار لا تزال تصيبها منها قارعة.. أما يكفي حرائق كاليفورنيا الدائمة، وأعاصير البحر الهائجة؟

وبداية الدرجات الأشد في الفساد تكون بتدمير ما يدل علىٰ الدين والعبادة غير المتعصبة، مثل دور العبادة التي قال الله عنها: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج ٤٠].

وهذه الجملة السننية العظيمة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ تعني ثلاثة أمور أخرىٰ أيضًا:

أولها: أن فتراتٍ كالحةً تعصف بالعالم لا ترىٰ فيها إلا قطبًا واحدًا مسيطرًا لا يسير علىٰ الصراط السويِّ يعيث في الأرض فسادًا، ويجعل المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، ولا يتغير الأمر لأنه لا يجد من يدافعه إجرامه. لقد ناءت الأرض بالفساد الذي ابتكره المجرمون في العهد الفرعوني القديم، وحكىٰ الله ﷻ ملخصه المفجع فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص ٤]، ومثله العهود المتجددة للظالمين الذين أرادوا من إفسادهم تغيير جغرافية الأرض ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

ثانيها: أن فتراتٍ كالحةً أخرىٰ تمر علىٰ العالم لا يكون فيها أيُّ قطبٍ مسيطرًا، حيث يغرق العالم في فوضىٰ أمراء الحروب والإفساد والجريمة المتبادلة، وتتجاذب الأطراف المختلفة سبل التخريب دون وجود نظامٍ جامع رادعٍ مانع.

ثالثها: فترات توجد فيها أقطاب ظالمة متصارعة تنشب بينها حروب عالمية يقتل فيها ملايين البشر من العساكر والمدنيين في دول الصراع ومناطق الاشتباك وتستخدم فيها القوىٰ المتصارعة بعض الشعوب والدول المحتلة كوقود للمعارك كما حصل

مع المغاربة المسلمين في الحربين العالميتين الأولىٰ والثانية!!

ما الذي يعنيه ذلك؟

ذلك يعني أن عدم وجود الدفع يؤدي إلىٰ الفساد في الأرض، وأن القطب الواحد أو الأقطاب المتعددة يشكلون أمراء للفساد المنظم، ويتحكمون في الواقع الدولي، وغالبًا ما يحاول كل منهم أن يسلك سياسةً ذات طبيعة عدوانية تتسم بصفات الغرور المتوحش وترغب في توسيع النفوذ وضم أودية جديدة من الذهب إلىٰ سلسلة سيطرته.. سيحاول كل منهم أن يسلك سياسة العصا والجزرة، والسطوة والبطش غير المحدودين علىٰ بقية أمم الأرض وفي الوقت ذاته سياسة الأفعىٰ السامة ذات الجلد الناعم، وبذا يحاول كلٌّ منهم فرض حياته الثقافية، ورؤيته المعوجة للعيش في الدنيا علىٰ غيره، ولكنه لا يكتفي بذلك حتىٰ يستغل ضعف بقية الأمم لامتصاص دمائها المالية، ونهب خيراتها، والتحكم في قراراتها، وجعل شركاته عابرات القارات تتحكم في مواردها الطبيعية، وتحويل أرضها إلىٰ ساحاتٍ لافتعال القتال بين المكونات المحلية، وقد يظن المنتمون للقطب القوي أن المرحلة التي وصلوا فيها إلىٰ الهيمنة علىٰ الأرض تمثل مرحلة (نهاية التاريخ) كما قرر (فرانسيس فوكوياما)[1]؛ إذ رأىٰ الجبروت الأمريكي مسيطرًا علىٰ صناعة السلاح وصناعة الأفكار، حتىٰ ظن أصحابه أنه لا يوجد من هو أقوىٰ منهم، كما قال كفار عادٍ من قبل: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].. إنهم يفسدون في الأرض، ويبغون الحياة عوجًا..

---

(١) يوشيهيرو فرانسيس فوكوياما (Yoshihiro Francis Fukuyama) (ولد ٢٧ أكتوبر ١٩٥٢م)، هو عالم وفيلسوف واقتصادي وسياسي أمريكي. اشتهر بكتابه نهاية التاريخ والإنسان الأخير الصادر عام ١٩٩٢م، والذي قرر فيه أن انتشار الديمقراطيات الليبرالية والرأسمالية والسوق الحرة في أنحاء العالم يشير إلى نقطة النهاية للتطور الاجتماعي والثقافي والسياسي للإنسان. ارتبط اسم فوكوياما بالمحافظين الجدد، ولكنه أبعد نفسه عنهم في فترات لاحقة.

خلا لهم الجو بسبب انعدام التدافع.

وفي الوقت الحاضر حاول (صامويل هنتنجتون) أن يبين أن سنة التدافع قائمة في كتابه: "صدام الحضارات أو صراع الحضارات" (The Clash of Civilizations) أو بعنوان "صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي"، وبين فيه أن صراعات ما بعد الحرب الباردة لن تكون بين الدول القومية واختلافاتها السياسية والاقتصادية، بل ستكون الاختلافات الثقافية محركًا أساسيًّا للنزاعات بين البشر في السنين القادمة.

وفيه بين أن النزاع القادم سيتخذ شكلًا مختلفًا ويكون بين حضارات محتملة وهي:

الغربية، واللاتينية، واليابانية، والصينية، والهندية، والإسلامية، والأرثوذكسية، والأفريقية، والبوذية[١]، واللافت للنظر إصراره علىٰ ضياع مفهوم الدولة القومية في العالم المعاصر، وتسميته للحدود الإسلامية بالحدود الدموية[٢]، وحدد الصراع بأنه بين "العالم المسيحي" بقيمه العلمانية من جهة، و"العالم الإسلامي" من جهة أخرىٰ.

وكما ترىٰ فإن هذا الصراع يشن من طرفٍ واحدٍ فقط.. فما مدىٰ الإجرام الذي سيصل إليه؟

وسنة الدفع تعني أن يستعد الطرف الذي يميل إلىٰ السلام ليكون ندًا من الناحية العسكرية والثقافية للقطب المتوحش الآخر، وعندها يمكنه أن يثبت السلام، ويقيم التوازن العالمي عندما يحدث التدافع؛ إذ يؤدي ذلك إلىٰ الردع المتوازن.

---

(١) صامويل هينتنجتون، (صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي) Simon and Schuster 10020 Avenue of the Americas New York, NY 1230 Rockefller Center، الفصل الثاني الحضارات في التاريخ واليوم، ص ٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٣.

السياسة الغربية المفسدة بين التغول المتوحش والمكر الكُبَّار:

والقطب الواحد يصنع المؤسسات الدولية أو يحركها لتكون في مصلحته، وقد قرر (هنتنجتون) أن قرارات الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي تعكس بطريقة أو بأخرىٰ مصالح الغرب، وإن كانت متنكرة باسم "المجتمع الدولي" بغرض إضفاء الشرعية علىٰ قرارات تصب في مصلحة الولايات المتحدة بالدرجة الأولىٰ.

ومن الفساد العريض أن تطبق السياسة الإسرائيلية الماكرة (لبس الحق بالباطل) لضمان المصالح الأنانية، وفي الواقع المعاصر يقرر هنتنجتون أن الدول الغربية تستعمل مزيجًا من القوة العسكرية والمؤسسات الدولية والترويج لقيم الديمقراطية والليبرالية لحماية مصالحها وضمان هيمنتها علىٰ إدارة العالم، ويعقب هنتنجتون بالقول أن هذه هي نظرة غير الغربيين علىٰ الأقل وفيها جانب كبير من الحقيقة.

والسياسة الغربية المخادعة تدعي نشر الديمقراطية والتعليم في العالم، ووفقا لهنتنجتون، فإن ذلك إن حدث بالفعل سيؤدي إلىٰ "تأصيل" المجتمعات وعودتها لـ"جذورها"، وهي النتيجة التي ترفضها الدول المستكبرة؛ لأنها تعني إنهاء هيمنتها علىٰ القرارات السيادية، والخيرات المادية عند الأمم الأخرىٰ، ولذا تُصِرُّ الدول المستكبرة علىٰ بقاء الأزمات مشتعلةً عند غيرها، وترسل مبعوثي السلام العالميين ليحرصوا علىٰ بقاء الحرب تحت شعار البحث عن سلامٍ عادل! وهذا عين الفساد في الأرض، وتبعث المبعوثين لمناقشة حقوق الإنسان، وشركاتها العابرة للقارات لا تشرب شيئًا كما تشرب دماء بني الإنسان، وهنا تعلم الجرم الذي يقترفه أهل الحق، والظلم الذي يتصف به أصحاب الخير عندما ينكصون علىٰ أعقابهم حين لا مناص من مدافعة المجرمين، والاصطدام في الميادين السياسية والعسكرية مع من يأكلون الإنسان حيًا باسم حقوق الإنسان كما قال البردوني ﷺ:

ما أصدق السيف! إن لم يُنْضِه الكذب ... لم أكذب يصدق السيف الغضبِ إن

بيض الصفائح أهدىٰ حين تحملها ... أيدٍ إذا غلبت يعلو بها الغلب

وأقبح النصر... نصر الأقوياء بلا ... فهم.. سوىٰ فهم كم باعوا.. وكم كسبوا

أدهىٰ من الجهل علم يطمئن إلىٰ ... أنصاف ناس طغوا بالعلم واغتصبوا

قالوا: هم البشر الأرقىٰ وما أكلوا ... شيئًا.. كما أكلوا الإنسان أو شربوا[1]

إن الفرقَ واضحٌ بين سنة التدافع القرآنية ونظرية هنتجتون.. فالرجل يصر علىٰ قيام الصراع لمجرد اختلاف الهُوية الثقافية مع التقليل من وصف الأطماع المجرمة الآثمة عند الأمم العنصرية المستكبرة بالقبح وإدانة ذلك القبح، بينما يذكر الله جل ذكره سنة التدافع؛ ليوقظنا من أحلام المنام واليقظة.

إذ إن النفسية العدوانية الحاسدة لأحد ابني آدم تجاه أخيه الصالح ستظل مستمرة، وإيقاف الفساد الذي تثيره هذه النفسية الشريرة يقتضي تفعيل سنة التدافع، وكما ترىٰ فذكر هذه السنة جاء في سياق الكلام عن النجاح الذي حققه المسلمون الإسرائيليون عندما خرجوا من حالة الاستضعاف والمهانة الإنسانية، حيث أخرجوا من ديارهم وأبنائهم إلىٰ حالة التمكين.

وفي هذه الكلمة المباركة (دفع) قراءتان تصوران مشهدين[2]:

المشهد الأول: تظهره قراءة الجمهور ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وكذلك قرءوا ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج ٤٠] مِنْ دفعَ الله ﷻ عن خلقه فهو يدفع دفعًا، فالله تعالىٰ ذكره هو المتفرِّد بالدفع عن خلقه، ولا أحد يُدافعه

(١) البردوني، عبد الله صالح، أبو تمام وعروبة اليوم، وهي قصيدة ألقاها سنة ١٩٧١م.

(٢) انظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج ٢، ص ٢٣٠.

فيغالبه، ومثل ذلك قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَدۡفَعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج ٣٨] (١).

المشهد الثاني: تظهره قراءة نافع، وَأَبي جَعْفَرٍ، وَيَعْقُوب ﴿وَلَوۡلَا دِفَعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ﴾ علىٰ وجه المصدر، ومثل ذلك في موضع سورة الحج، من قول القائل: "دافع الله ﷻ عن خلقه فهو يُدافع مدافعة ودفاعًا« مفاعلة، وهي عبارة عن كون كل واحد من المدافعين دافعًا لصاحبه ومانعًا له من فعله، وذلك من العبد في حق الله تعالىٰ محال، فقال بعض اللغويين: إن ﴿دفاع﴾ ليست من دافع بل من دفع، تَقُولُ: دَفَعْتُهُ دَفْعًا وَدِفَاعًا، كَمَا تَقُولُ: كتبته كَتْبًا وكتابًا، فهي بالمعنىٰ الأول(٢)، إلا أنه يمكن جعلها من دافع ويؤيده قراءة الجمهور لسورة الحج، وهي تدل علىٰ منازعة المعتدين الدائمة لربهم ﷻ، وتدل علىٰ حلمه عنهم.. تدل علىٰ مكرهم الكبار للإفساد في الأرض، والبطش بالبُرَاء، وعدم قدرة المؤمنين علىٰ رد هذا المكر بمثله، وهنا ترىٰ قدرة القوي المجيد تكُفُّ بأس الظَّلَمَة وَالْعُصَاة والمفسدين عَنْ الإفساد في الأرض وعن ظُلْمِ الأبرياء والْمُؤْمِنِينَ فالمدافعة في موضعها، ولا يقال كيف يدافع الله ﷻ عن الأرض ويصر المجرمون علىٰ مدافعته مع إحاطته بهم، لأن المقصود ظاهر، ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ [فاطر: ٤٥]، ومع تأخيرهم إلىٰ أجل مسمىٰ إلا أنه يرد كيدهم ويخففه كي لا يستأصلوا الخير من الأرض، ولا يتمكنوا من إشاعة الفساد ليعم وجه الأرض علىٰ وجهٍ لا يمكن مدافعته ومثل ذلك قول الله تعالىٰ جده: ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣]،

---

(١) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج ٢، ص ٣٢٦.

(٢) انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥١٨.

وقوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ [التَّوْبَة: ٣٠]، فالمعنىٰ هنا ظاهر مبين لشدة العدوان الذي يتسم به أشرار الإنس والجان، والقراءة تظهر أن كثيرًا منهم يتخذون العدوان والإفساد في الأرض أهم أهداف حياتهم، والله ﷻ يدافع عن الأرض وعن أوليائه، لا علىٰ سبيل التدمير الشامل لأعدائه، ولكنه يجعل كيد الكافرين في ضلال، وهم يرجعون لمكرهم وكيدهم وعداوتهم فلا يَفتُرون، أما القراءة الأولىٰ فهي توضح إحاطته بهم، وتفرده جل جلاله بدفع مكرهم مقارنة بالحركة الضعيفة التي يعتمدها المؤمنون لرد مكر الماكرين وكيد الكائدين.

إنه تصوير رائع لواقع الحياة، فانظر كيف ينتشر دفع أهل الباطل للحق بصورة ماكرة في الجانب السياسي والثقافي والعسكري والمخابراتي والاجتماعي والاقتصادي، وهم لا يفترون في مدافعة ربهم ﷻ؛ إذ يرون حلمه عن استئصالهم، فيظنون أنهم إن غُلِبوا في إجرامهم في الأولىٰ، فسيمكنهم أن يغلبوا ويدفعوا في الثانية، والله ﷻ يدفعهم حتىٰ يأتي وعد الله ﷻ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].. كما أن الآية توضح تواضع الجهد المقابل للمؤمنين في مقابلة هذا المكر الكبار ليأتي فضل الله ﷻ فيبارك في الرامي ورميته، ويحسب بعض الناس أن الراحة في الهرب من المدافعات الثقافية والسياسية والعسكرية.. ها هي آية المدافعة توقظ الأنفس السكرىٰ وتنبهها بأن الراحة الكبرىٰ تكمن في المدافعة كما قال أبو تمام ﷺ في مدافعة أهل الحق لإجرام صاحب عمورية:

خَلِيفَةَ اللهِ جازَىٰ اللهُ سَعْيَكَ عَنْ ... جُرْثُومَة الدِيْنِ والإِسْلاَمِ والحَسَبِ
بصُرْتَ بالرَّاحة الكُبرىٰ فلمْ ترها ... تُنالُ إلاَّ علىٰ جسرٍ منَ التَّعبِ
إن كان بينَ صُرُوفِ الدَّهرِ من رحمٍ ... موصولةٍ أوْ ذمامٍ غيرِ مُنقضبِ

فَبَيْنَ أَيَّامِكَ اللاَّتي نُصِرْتَ بِهَا وبَيْنَ أَيَّامِ بَدْر أَقْرَبُ النَّسَبِ
أَبْقَتْ بَنِي الأَصْفَرِ المِمْرَاضِ كاسِمِهِمُ صُفْرَ الوجُوهِ وجلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ[1]

والآية توضح أن القدرة الإلهية تتدخل لإيقاف الفساد بأن يأتي الله ﷻ بقومٍ يدفعون فساد المفسدين ولو كان عندهم خلل، كما قال ذلك بعض المفسرين في قوله تعالىٰ ذكره: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٥] حيث دفع الله ﷻ فساد المحرفين (من أهل الكتاب) بفساد المخرفين الوثنيين من الأشوريين أهل بابل عسىٰ أن يرجع المحرفون إلىٰ ربهم ﷻ، فيتوبوا مما كتبت أيديهم وكسبت، ونسبوه إلىٰ ربهم ﷻ عندما تلاعبوا بالشريعة.

لكنَّ أهمَّ أفياء الآية ألا يتوقع المؤمنون نزول النصر معجزةً محضةً بل لا تنال المعالي بالأمور الفارغة الخوالي.. لا بد من أن يقدموا الثمن، فهم الطرف الدافع للشر الواقع من الطرف المصارع.. إن الآية صيغت في معرض الامتنان بوجود هذه السنة، فلمَ يبحث كثيرٌ من الناس عن الحلول الوهمية في الأماكن الخاطئة خوفًا من الوصول إلىٰ مرحلة الدفع؟

وهنا تعلم الترابط الشديد بين قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ﴾ [الحج ٤٠] وبين قوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ﴾ [الحج ٤٠]، وتدرك –أيدك الله ﷻ– ماهية الفضل الذي ذكره الله ﷻ في نهاية الآية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]..

إن الفضل يتمثل في تشريع الدفاع لا في تشريع أن يكون المرء من سقط المتاع..

(١) التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، ج ١، ص ٤٩.

إن الفضل يتمثل في تحريك الله ﷻ للنفس الخائفة لتدفع الشرور.. يتمثل في تقوية الله ﷻ للنفس القلقة لتقاوم الإجرام..

يتمثل في إرشاد الله ﷻ للفكر الضال وللفكر الحائر، ليقيم المؤسسات التي ترد علىٰ التآمر الدائم لأهل الباطل ضد الحياة وأهلها والأرض وسكانها.. فضل الله ﷻ يتمثل في إلهام النفوس المؤمنة، وإلهاب القلوب التقية للهجوم علىٰ المستكبرين المفسدين في الأرض ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].. فضل الله ﷻ أن ينصر الفئة المؤمنة القليلة علىٰ الفئة الكافرة المجرمة الكثيرة.

تنوع مجالات الدفع والمدافعة لإزالة الفساد، فلا يقتصر علىٰ الجهد البدني أو القوة العسكرية:

هل دفع الفساد يقتصر علىٰ مجالات القوة العسكرية؟

كلا! فالقوة العسكرية مجرد مظهرٍ وحيدٍ، وقد يكون مظهراً أخيراً للدفع؛

إذ الدفع يمتد ليشمل المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية.. يشمل الإعلام والكتابة والتوجيه والاقتصاد والتكنولوجيا والابتكارات، ومجالات الحياة لا بد أن توجد فيها سنة الدفع لمنع تسرب الفساد، وإحلال الحق محل الباطل، والاستقامة مكان الاعوجاج.

ومن أوسع النصوص التي تبين مجالات المدافعة للفساد في الأرض، وتنوعها حسب القدرة الفردية والجماعية قول الله جل وعز: ﴿۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ

وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢٢].

وكذلك قوله عز شأنه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٣٦ - ٤٣].

توسيع أفق المدافعة من فقه النبوة التليد:

تعال لنرتشف الضياء من النور النبوي، حيث يوسع النبي ﷺ المدارك البشرية في تعديد مجالات نشر الخير وإزالة الفساد فيقول ﷺ: «على كل نفس في كل يوم طلعت فيه الشمس صدقة منه على نفسه». قلت: يا رسول الله، من أين أتصدق وليس لنا أموال؟ قال:« لأن من أبواب الصدقة التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، واستغفر الله، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظم والحجر، وتهدى الأعمى، وتسمع الأصم والأبكم حتى يفقه، وتدل المستدل على حاجة له قد علمت مكانها، وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث، وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف، كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك، ولك في جماعك زوجتك أجر، قال أبو ذر رضي الله عنه: كيف يكون

لي أجر في شهوتي؟ فقال رسول الله ﷺ:« أرأيت لو كان لك ولد فأدرك ورجوت خيره فمات، أكنت تحتسب به؟» قلت: نعم. قال:« فأنت خلقته؟» قال بل الله خلقه. قال:« فأنت هديته؟» قال: بل الله هداه. قال: «فأنت ترزقه؟». قال: بل الله كان يرزقه. قال:« كذلك فضعه في حلاله وجنبه حرامه، فإن شاء الله أحياه، وإن شاء أماته، ولك أجر»[1].

إن المدافعة لا تقتصر علىٰ الجوانب العسكرية، ولا علىٰ التفوق في صناعة السلاح، بل تمتد لتشمل بذل الجهد لإصلاح الواقع البشري، وإزالة الفساد في الأرض، وإذا كانت سورة الحج قد ذكرت سنة المدافعة أثناء الكلام عن شدة العدوان الوثني علىٰ المظلومين، فإن الله ﷻ ختم تلك السورة بقوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج ٧٧، ٧٨].

(١) أحمد، ج ٥، ص ١٦٨، رقم الحديث: ٢١٥٢٢، وصححه الألباني، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح.

الحقيقة السادسة

التفصيل التاريخي والتنظيمي والحضاري الذي جاءت به الشريعة قائم على الحق، ويقود إلى الحق، وأي دعاوى تنال منه فهي تريد إحلال الباطل، وتزييف الحقائق

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

فكأن الله ﷻ يقول لنبيه ﷺ: اقتصصت عليك من الأنباء الخفية، التي يعلمون أنها من عندي، لم تتخرصها ولم تتقولها أنت يا رسول الله؛ لأنك أُمِّيٌّ، ولست ممن قرأ الكتب، فيلتبس عليهم أمرك، ويدَّعوا أنك قرأت ذلك فعلمته من بعض أسفارهم، ولكنها حججي عليهم أتلوها عليك يا محمد، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ اليقين كما كان، لا زيادة فيه، ولا تحريف، ولا تغيير شيء منه عما كان، بل الْوَاقِعُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ، الْمُطَابِقُ لِمَا بِأَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا رسول الل ﷺ ﴿وَلَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يقول: إنك لمرسل متبع في طاعتي، وإيثار مرضاتي علىٰ هواك، فسالك في ذلك من أمرك سبيل من قبلك من رسلي الذين أقاموا علىٰ أمري، وآثروا رضاي علىٰ هواهم[1].

كذا قال الطبري رحمه الله هذه الكلمة المسددة، لكنك تلمس أن كلمة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ تدل علىٰ أكثر من ذلك، فهي تدل علىٰ الصدق الثابت في النقل بعيدًا عن الخرافات والأكاذيب المروية المصاحبة لهذه القصة مما ذكروه عن طالوت مثلًا، وتدل هذه

---

(١) الطبري، جامع البيان، ج٥، ص٣٨٧.

الكلمة علىٰ أن الله ﷻ هو الذي أنزلها عَلَيْكَ لم تتلقها بِإِلْقَاءِ الشَّيَاطِينِ، وَلَا بِسَبَبِ تَحْرِيفِ الْكَهَنَةِ وَالسَّحَرَةِ.

الحقيقة السابعة

التحدي الحيوي العالمي الدائم الكبير، والاستجابات المقابلة

نظراً للبغي سيبقىٰ الصراع –للأسف– قائمًا بين أتباع ثلاثة من أعظم الرسل –عليهم الصلاة والسلام– وهم الرسل الثلاثة: موسىٰ وعيسىٰ ومحمد عليهم الصلاة والسلام بسبب إصرار فريقٍ منهم علىٰ الكفر ببعض الرسل عليهم السلام، والكفر ببعض الرسل عليهم السلام كفرٌ بالمرسِل تعالىٰ ذكره.

وهذا الفكر التكفيري ببعض الرسل عليهم السلام يقود إلىٰ الحقد علىٰ من آمن بالجميع، وذلك يقتضي إعداد العدة للردع والدفع: ردع المعتدي، ودفع المجرم المبتدي، فهذا الإعداد أخف ثمنًا من الرفع (رفع سيطرة المعتدي علىٰ الديار والأبناء).

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

انظر لمجيء هذه الحقيقة بعد تلك القصة، حيث يقول الله عز وجل: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فذكر الله عز وجل عظمة الرسل عليهم السلام وتفضيله لبعضهم، ويحاول الرازي[1] رحمه الله تعالىٰ استكشاف السر البياني لاستعمال ﴿تِلۡكَ﴾

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥٢١.

لتكون هي المبتدأ بدلًا من أن يقول: {أُولَٰئِكَ الرُّسُلُ} فذكر أن ذلك لِأَنَّ الله جل وعز أراد معنىٰ (الْجَمَاعَةِ)، كَأَنَّهُ قِيلَ: تِلْكَ الْجَمَاعَةُ الرُّسُل بِالرَّفْعِ، لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِـ﴿تِلْكَ﴾ وَخَبَرُ الِابْتِدَاءِ ﴿ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ولا يظهر لي تعين ما ذكره بيانيًّا؛ إذ يمكن أن يقال: أولئك الجمع الرسل، علىٰ أنه يمكن إعراب ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ خبرها ﴿ٱلرُّسُلُ﴾، وما بعدها حال.

ولعل الإشارة بالفرد؛ لبيان وحدة المجموع أقوىٰ من الإشارة بالجمع، سواء أكانت وحدة المجموع في المصدرية الإلهية أم في المضمون التبليغي، أم في المشاعر والعواطف والأحاسيس، والتعبير باسم الإشارة الدال علىٰ البعد ﴿تِلْكَ﴾ تعبير يدل علىٰ تفخيم شأنهم، وتعظيم أحوالهم كما هو معتاد من هذا التعبير الرائع في سياقه.

وقد يثور في نفسك أن الله ﷻ بين أنه فضل بعض الأنبياء عليهم السلام علىٰ بعض، ولكنك قرأت في الحديث النهي عن مثل ذلك، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاء رجل من اليهود إلىٰ النبي ﷺ قد لُطِمَ وجهُه، وقال: يا محمد إن رجلًا من أصحابك من الأنصار لَطَمَ وجهي، قال:«ادعوه»، فدعوه، قال:« لم لطمت وجهه؟» قال: يا رسول الله، إني مررت باليهود فسمعته يقول: والذي اصطفىٰ موسىٰ علىٰ البشر، فقلت: وعلىٰ محمد، وأخذتني غَضْبة، فلطمته، قال: «لا تخيروني من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسىٰ عليه السلام آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جزي بصعقة الطور» [1]، أجل!

فلا ينبغي أن يفضل البشر الأنبياء عليهم السلام بعضهم علىٰ بعض، ولكن الله جل في علاه يفاضل بينهم، ويقسِّم درجاتهم، وذلك مثل الحلف فإن لله ﷻ أن يحلف بما

(١) البخاري، رقم الحديث: ٤٦٣٨.

شاء وليس للبشر أن يحلفوا إلا بربهم عزَّ جارُه.

كما أن التفضيل المنهي عنه هو التفضيل التفصيلي لا التفضيل الإجمالي.

فما أسس التفضيل؟ الأصل أن ذلك غيب يعلمه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلا أن من أسباب التفضيل الظاهرة تحقق المصلحة الإنسانية عندما يكثر المهتدون، فقد قال: «لأن يهدي الله بك رجلًا خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ»[(١)].

ومن هم هؤلاء الرسل المشار إليهم؟ قيل: المراد مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام فِي الْقُرْآنِ، كَإِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَمُوسَىٰ، وَغَيْرِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عليهم، ويظهر لي أن المراد الإشارة إلىٰ جميع الرسل باعتبارهم معهودين في الذهن، أي تِلْكَ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ ﷻ لِدَفْعِ الْفَسَادِ عن الأرض، وقد تقدم ذكر جميعهم في الآية السابقة، حيث قال الله تعالىٰ مجده: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، ثم إنه جل جلاله ذكر ثلاثة من أعظم هؤلاء الرسل عليهم السلام، فقال:

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: موسىٰ عليه السلام، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ ذكره: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وَقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وتقدير الكلام: مَنْهم من كَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، ولكنه حذف الهاء، فهي تُحْذَفُ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ ذكره: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخْرُف: ٧١]؛ فإن كلمة ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ فيها قراءتان ثابتتان بإثبات الهاء وحذفها[(٢)].

وكلام الله ﷻ صفة من صفاته جل في علاه نثبتها كما أثبتها لنفسه عزَّ جارُه دون تعطيل أو تشبيه، ونمسك فيما لا نعلمه، فَإِنَّ التوغل فيما لم يخبرنا الله ﷻ به في هذا

(١) البخاري، رقم الحديث: ٣٠٠٩.

(٢) قرأ المدنيان، وابن عامر، وحفص، ﴿تَشْتَهِيهِ﴾ بزيادة هاء ضمير مذكر بعد الياء، وقرأ الباقون بحذف الهاء. ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج ٢، ص ٣٧٠.

الباب مِنْ مَزَالِّ الْأَقْدَامِ وَعثرات الْأَقْلَامِ[1]. فلنعد إلىٰ سياق الآية، فبعد أن ذكر الله ﷻ النبي المعظم الأول، وهو موسىٰ عليه الصلاة والسلام:

---

(١) وأورد الرازي -رحمه الله- استشكالاً علىٰ جعل الكلام تشريفًا، حَيْثُ كلم إبليس ربه -عز وجل- كما هو مفهوم من الآيات الكثيرة مثل: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص ٩٧- ١٨]، فإن كان ذلك يوجب غاية الشرف فكيف حصل لإبليس الذم وإن لم يوجب شرفًا، فكيف ذكره في معرض التشريف لموسىٰ -عليه السلام- حيث قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ٤٦١]؟ ثم أجاب عن ذلك بأَنَّ قصة إبليس ليس فيها ما يدل علىٰ أنه تعالىٰ قال تلك الجوابات معه من غير واسطة، فلعل الواسطة كانت موجودة. انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٧٢٥.

ولعلك تجد أن كلام الله تعالىٰ مع خلقه؛ إما أن يكون لإظهار الحجة بما ينقطع معه جدال المجادلين، وإما أن يكون للشرف والتعظيم، فإظهار الحجة بما ينقطع معه جدال المجادلين ظاهر في حالة إبليس، إذ يستفاد من قصته أمور كثيرة منها: اليقين بخالق الكون ﷻ، ومنها عدم نفع اليقين في مقاومة أهواء النفس وظلماتها عندما يصر المخلوق علىٰ اتباع غيها، فإبليس يكلمه ربه آمرًا له بالسجود لآدم فيأبىٰ، ثم يراجع أمر ربه عزَّ جارُه، معترضًا بالجدل حول القدر ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦] مع إقراره قبل بأنه هو الممتنع عن طاعة أمر الله ﷻ اختيارًا حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].. وصار الكلام أقوىٰ حجة عليه وعلىٰ كل من امتطىٰ مركب الجدال الذي اخترعه، فلا تملك حينها إلا أن تقول: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وهذا الكلام مع هذا المخلوق الضال الذي ركب متن تيهاء، وغاب فيما صنع لنفسه من عمياء بخلاف كلام الله مع موسىٰ عليه السلام فإنه زاد في استقامته وعظمته، حتىٰ قال: ﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

ثم إن كلامَ الله ﷻ مع عبدٍ من عباده مثلُ ذكره لعبدٍ إما بالمحبة وإما بالغضب، فإن جاء التعبير لمطلق الذكر فذاك الشرف،كما قال الله ﷻ: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: يا رسول الله وقد ذُكِرْت هناك؟ قال:«نعم» يعني عندما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يقرأ عليه سورة البينة، فقيل لأبي: يا أبا المنذر ففرحت بذلك؟ قال: وما يمنعني والله تبارك وتعالىٰ يقول ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٨٥] رواه أحمد، ج ٥، ص ٣٢١، رقم الحديث: ٥٧١١٢، وقال شعيب الأرناؤوط رحمه الله: حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف من أجل مؤمل بن إسماعيل البصري.

ذكر الله عز مجده النبي العظيم الثاني فقال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ يتعين أن يكون المراد هو نبينا ﷺ، وإلا صار الكلام تكرارًا لقوله: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، والقول بالتأسيس أولىٰ من القول بالتوكيد، ومن أجل وأعظم مَنْ رفعهم درجات خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين ﷺ كما دلت كثير من الآيات، وإذ كان من أسباب التفضيل اتساع تحقق المصالح البشرية بكثرة المهتدين؛ فقد جعل الله خاتم النبيين رحمة للعالمين، فقال الله عزَّ جارُه عنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٧] «فلما كان رحمة لكل العالمين، لزم أن يكون أفضل من كل العالمين»[(١)]، ويروي أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه بيان ذلك فيقول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مُشَفَّعٍ »[(٢)]، ويزيد أبو سعيد رضي الله عنه الأمر بيانًا إذ يقول: قال رسول الله ﷺ : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»[(٣)].

ولعلك تسأل عن سبب عدم التسمية للنبي ﷺ في الآية والاكتفاء بوصفه بأنه رفع درجات، فيجيبك الزمخشري رحمه الله بأن عدم التسمية هنا أفخم من التصريح به وأنوه بصاحبه فقد سئل الحطيئة عن أشعر الناس؟ فذكر زهيرًا والنابغة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث، أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي، لم يفخم أمره[(٤)]، ومن تعبيرهم عن النفس بالبعض قَوْل لَبِيدٍ:

---

(١) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥٢١.

(٢) مسلم، رقم الحديث: ٦٠٠٤.

(٣) سنن الترمذي، ج٥، ص٣٠٨ رقم الحديث:٣١٤٨، وقال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح »، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته، ج ١، ص ٣٠٩، رقم الحديث ١٤٦٨.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٢٩٧، ٢٩٨.

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا[١]

ثم ذكر الله ﷻ النبي الثالث فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والبينات جمع بينة وهي العلامة الواضحة والبرهان الساطع الذي لا يمكن دفع الاستدلال به إلا لمعاند، ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ومعنىٰ ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه، وعززناه، وعززناه، وأعناه بروح القدس، ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ النزيه المطهر، وهو جبريل عليه السلام، ويدل علىٰ ذلك أن الله تعالىٰ ذكره قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لحسان رضي الله عنه : «إن روح القدس لا يزال يؤيدك، ما نافحت عن الله ورسوله »[٢]، وذُكِر أن روح القدس الذي أيد به يجوز أن يكون الروح الطاهرة التي نفخها الله تعالىٰ فيه، وأبانه بها عن غيره ممن خُلِق من اجتماع نطفتي الذكر والأنثىٰ[٣].

وقد أيد الله ﷻ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام بجبريل عليه السلام في أول أمره، وفي وسطه، وفي آخره، أما في أول الأمر فلقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾[مريم: ١٧]، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وأما في وسطه فلأن جبريل عليه السلام علمه العلوم، وحفظه من الأعداء، وأما في آخر الأمر فحين أرادت اليهود قتله أعانه جبريل عليه السلام ورفعه إلىٰ السماء[٤].

ويلفت نظرك أن الله ﷻ وصف كل نبيٍّ من الثلاثة عليهم الصلاة والسلام بصفةٍ مختلفة مميزة، وذكر أنه آتىٰ عيسىٰ عليه السلام البينات وأيده بروح القدس مع أن محمدًا وموسىٰ عليهما السلام حدث لهما ذلك، إلا أنك تلمح في التعبير بذلك عن حال عيسىٰ عليه السلام لوم من يزعم أن عيسىٰ عليه السلام إله مع أن الذي آتاه البينات إنما هو ربه، والذي أيده

(١) العامري، ديوان لبيد، ص ١١٣.

(٢) مسلم، رقم الحديث: ٦٤٧٨.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥٢٨.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٦، ص ٥٢٨، ٥٢٩.

بروح القدس إنما هو ربه، ولعله لذلك رأيت الالتفات من الغيبة في قوله جل ذكره: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] إلىٰ الحضور والتكلم والإتيان بـ(نا) الدالة علىٰ التعظيم في قوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ هذا من جهة، ومن جهة أخرىٰ للوم اليهود الذين أصروا علىٰ عدم الإيمان بعيسىٰ عليه الصلاة والسلام مع ظهور معجزاته البينات، فالتصريح باسم عيسىٰ عليه السلام يظهر لوم أهل الكتابين فيه: الغالي فيه والجافي عنه.

ولا يعزبن عنك أن الأنبياء الثلاثة عليهم السلام يشتركون في السمات الثلاث التي ذُكِرت مع كل واحدٍ منهم فيما يظهر، فعلىٰ سبيل المثال: ترىٰ نبينا محمدًا ﷺ كلمه الله ﷻ، وآتاه البينات وأيده بروح القدس، وكذا موسىٰ وعيسىٰ ٣، ولكن الله ﷻ ميز كل واحدٍ منهم بما هو أكثر ظهورًا معه من بين هذه الخصائص.

وسطية الأمة الإسلامية في شهودها الحضاري:

ترىٰ أن النبي ﷺ ذُكِرَ وسطًا بين موسىٰ وعيسىٰ ٣، فربما كان ذاك إشارةً إلىٰ وسطية أمته، خاصة أنه ذكر هذه الصفة في هذه السورة، وربما كان ذلك إشارة إلىٰ أن أمة النبي ﷺ محور ارتكاز بين غلو اليهود وغلو النصارىٰ،

وربما كان إشارةً سياسيةً إلىٰ ضرورة أن تتفاعل مع الأمتين بما يؤدي إلىٰ الدعوة إلىٰ الخير، وإصلاح الفساد العالمي، فهي لا تحارب واحدة من أهل الكتابين الآخرين لمجرد الاختلاف الديني، ولعله يلوح لك سببٌ ثالثٌ هو أن الشريعة التي جاء بها النبي ﷺ تجمع ثمرات الشريعتين الأخريين: شريعة موسىٰ وشريعة عيسىٰ عليهما الصلاة والسلام، فتجمع بين التقنين والهداية الموجودين في شريعة موسىٰ عليه السلام والمواعظ وترقيق القلوب الموجودين في شريعة عيسىٰ عليه السلام.

خلوف الرسالات ومسيرة الدم الناقع:

قد سبق آنفًا ذكر حال الأنبياء عليهم السلام في مكانتهم عند ربهم ﷻ، وكان المتوقع أن يأتي من بعدهم من أتباعهم فيسيرون علىٰ منهاجهم لا يفرقون بين أحدٍ من رسله.. تلك الرؤيا التي تتشوف لوجودها الفِطرُ السليمة والنفوس البريئة، ولكن الله ﷻ ينبهنا من أحلام اليقظة، فيذكر أن أتباع هؤلاء الرسل عليهم السلام وقعوا في شيء عظيم غير متوقع.. إنه الاقتتال الواقع بين أتباع هؤلاء الرسل العظام عليهم السلام، فيقول: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾، اقتتلوا.. فمَن قاتل مَن؟

فقوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ يشمل كل الأتباع في مختلف الاتجاهات.. لقد أوجزت هذه الكلمة كل الصور المؤلمة للاقتتال: فأتباع موسىٰ عليه الصلاة والسلام اقتتلوا فيما بينهم، حتىٰ انقسمت (إسرائيل) إلىٰ قسمين: إسرائيل والسامرة، ثم اقتتلت القبائل اليهودية فيما بينها، وكان مشتهرًاعند العرب اقتتال بني قريظة وبني قينقاع وبني النضير فيما بينهم.

واقتتل أتباع عيسىٰ عليه الصلاة والسلام فيما بينهم اقتتالًا ذريعًا وكان الإحراق بالنار أمام الحشود من طرق العقاب التي يشيعها القسس "الورعون خدام المسيح!!" ليذيقوا الناس رعب الموت المحتفل به للمخالفين من المذاهب المختلفة المقتتلة، وكانوا يجتمعون لإقرار هرطقة بعضهم بعضًا، وتحويلها إلىٰ دي، والحكم بالهرطقة علىٰ الآخرين الذين ربما كانوا هم الموحدين.

واقتتل المنتسبون إلىٰ النبي ﷺ فيما بينهم، وبدأ ذلك الخوارج المارقون الذين خرجوا علىٰ عثمان رضي الله عنه ،ثم علىٰ علي رضي الله عنه ، ثم ما برحت الباطنية تتخذ الحمية الدينية ستارًا لها لتحقيق المآرب السياسية، وما زال الاقتتال بين من يزعم اتباع النبي ﷺ مع أن آخر الوصايا النبوية كانت تتعلق بالتحذير من ذلك حتىٰ قال ﷺ فِي

حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»[١]، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجة الوداع فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره، ثم قال:« ألا إن الله ﷻ حرم عليكم دماءكم وأموالكم، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، ألا هل بلغت»، قالوا: نعم، قال:« اللهم اشهد -ثلاثًا- ويلكم، أو ويحكم، انظروا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٢].

عد إلىٰ هذا النص الذي يجمع الصور الواقعية التي حدثت من بعض أتباع الأنبياء بعدُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ فأنعم فيه النظر لترىٰ أنه يحدثك عن صورٍ أخرىٰ للاقتتال: فكما حدثك عن قتال أتباع كل نبي بعضهم بعضًا تجد فيه الإشارة إلىٰ قتال أتباع كل نبي لأتباع النبي الآخر، ولكن لماذا لا يمنعهم الله ﷻ من أن يقاتل بعضهم بعضًا، وهم أتباع رسالات لها مصدر واحدٌ هو الله لا إله إلا هو الحي القيوم؟ وهنا ترىٰ هذه الجملة المباركة تجيبك عن هذا السؤال بعد أن دمجت الحقيقة المأساوية لواقع الحال في أثناء الإجابة: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾فكأنه قال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾ثم خلفت خلوف من بعدهم اختلفوا فاقتتلوا: قاتل أتباع كل نبيٍّ بعضهم بعضًا، وقاتل أتباع كل نبي أتباع النبي الآخر﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فالاقتتال لازم الضد لجواب (لو)، فلو شاء الله ﷻ مشيئة إلجاءٍ وقسرٍ

(١) البخاري، رقم الحديث: ١٢١.

(٢) البخاري، رقم الحديث: ٤٤٠٢، ٤٤٠٣.

وقهرٍ لمنعهم من القتال، ولكنه شاء أن يترك الناس لاختيارهم، فاختار البغاة منهم أن يقاتلوا الصالحين، وحينها يكون فضل الله ﷻ علىٰ الصالحين أن يشرع لهم الدفع عن أنفسهم، فحقيقة ذلك أنهم يدفعون الفساد عن الأرض.

فالحق واضح جاءتهم به البينات، ولكن فئةً منهم انصرفت عنه بتأْوِيلَاتٍ بَعِيدَةٍ جلبتها الأهواء، أو حب المكابرة، ورغبة بقاء الترؤس ولو علىٰ ضلالة، أو غلبة الشهوة العاجلة، أو الخوف من الجماهير الغافلة.

ولكن ما سبب هذا البغي؟ كيف يبغي بعض أتباع الأنبياء عليهم السلام علىٰ إخوانهم من أبناء ملتهم؟ ثم كيف يبغي أتباع نبي علىٰ أتباع النبي الآخر؟

هنا تأتي الإجابة: فيقول الله عزَّ جارُه: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾، ويكون المعنىٰ: ولو شاء الله ﷻ ما اختلفوا، ولكنه خلقهم ذوي إرادة حرةٍ، فاختاروا أن يختلفوا، وقد اختار بعضهم أن يكون اختلافهم عن الآخرين اختلافًا مذمومًا، فاختار طرفٌ من الناس الإيمان، وثبتوا علىٰ النص الأصلي والمعنىٰ الحقيقي، أي الإيمان بالتنزيل دون تحريف تبديلٍ ودون تحريف تأويل، واختار طرفٌ آخر الكفر باتباع شهواتهم، وركوب غيهم، وتحريف دينهم تحريفًا قوليًا علميًا أو تحريفًا عمليًا، ونبذوا كتاب الله ﷻ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وصارت حقيقة تحريف التبديل أو تحريف التأويل كفرًا بالكتاب في نصه الأصلي ومعناه الحقيقي.

فلما صاروا في اختلافهم طرفين: مؤمنٍ وكافر، بغىٰ الكفار علىٰ المؤمنين، وأفسدوا في الأرض، وتبعهم أصحاب المآرب السياسية والمادية المحضة فألبسوا أطماعهم الثياب الدينية، وأفسدوا في الأرض باسم كتابٍ من الكتب الثلاثة:

فمن أتباع موسىٰ عليه الصلاة والسلام من يزعم نصرة التوراة، وتحقيق نبوءة

أرض الميعاد، ومن أجل ذلك لا مانع عنده من الإفساد في الأرض كلها حتىٰ وجدت من تحريفهم لكتاب ربهم تبديلًا أو تأويلًا أن يبيحوا الربا ويعملوا علىٰ إشاعة الزنا، بل وأن يسمي بعضهم نفسه ملحدًا يهوديًا وشيوعيًا يهوديًا.

ومن أتباع عيسىٰ عليه السلام من يزعم نصرة الإنجيل، ثم يعمل علىٰ تحقيق نبوءة خرافة(هرمجدون) يتشوف فيها إلىٰ إبادة معظم أهل الأرض باسم الإنجيل.

ومن أتباع محمد ﷺ من ينشر القتل يزعم أن نبيه جاء بالذبح ولا يذكر أن الله ﷻ ذكر خلاصة رسالة نبيه ﷺ في أنه أُرسل رحمة للعالمين.

وهكذا تلاعب بعضُ من ينتسب إلىٰ أتباع الأنبياء الثلاثة عليهم السلام بالنص الأصلي والمعنىٰ الحقيقي في كتبهم، وانضم لهم طائفةٌ من الكفار الأصليين بهذه الكتب جميعًا؛ والمليشيات الملحدة، إذ جنح البغاة من هؤلاء الكفار إلىٰ التحالف مع البغاة ممن يزعم اتباع الأنبياء عليهم السلام من الجهات الثلاث، ليكون هذا التحالف ضد المؤمنين، وهكذا قام المتلاعبون بالنص الأصلي أو المعنىٰ الحقيقي للتنزيل الإلهي بقيادة اتحادٍ مدنسٍ يشنون من خلاله حروبهم الضارية إما علىٰ المؤمنين من أتباع النبي الذي ينتسبون إليه، وإما علىٰ المؤمنين من أتباع النبيين الآخرين..

لقد أفسد هؤلاء المجرمون في الأرض، وألبسوا أطماعهم وشهواتهم الثياب الدينية، ولم يكن للمؤمنين مناص من اتباع سنة التدافع، عندما يكون لا سبيل لإزالة الفساد في الأرض وبيان الحق إلا تلك المدافعة.

وهنا يلفت النبي ﷺ نظرك إلىٰ خطورة التسرع في التكفير؛ إذ هو بريد البغي والاقتتال والإفساد في الأرض، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ

قَالَ: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَد بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»[١]، وقرن ﷺ التكفير بالقتل، فعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِمِلَّةٍ غَيرِ الإِسْلاَمِ كَاذِبًا فَهو كَمَا قَالَ، ومن قَتَلَ نَفسَهُ بِشَيءٍ عُذِّبَ به فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَلَعنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ، ومَن رَمَىٰ مُؤْمِنًا بِكُفرٍ فَهوَ كَقَتْلِهِ»[٢].

والحروب التكفيرية التي نشأت بين طوائف اليهود كثيرة، والحروب التكفيرية التي نشأت بين طوائف النصارىٰ لا ترىٰ فيها ذرة مما يشيعه أتباع المسيح عليه السلام عندما يرددون قول مَتَّىٰ في كتابهم **المقدس متىٰ** ٥: ٣٩- ٤٢:

«سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ. ٣٩ وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَل مَنْ لَطَمَكَ عَلَىٰ خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّل لَهُ الآخَرَ أَيْضًا. ٤٠ وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَاصِمَكَ وَيَأْخُذَ ثَوْبَكَ فَاتْرُكْ لَهُ الرِّدَاءَ أَيْضًا. ٤١ وَمَنْ سَخَّرَكَ مِيلًا وَاحِدًا فَاذْهَبْ مَعَهُ اثْنَيْنِ. ٤٢ مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْكَ فَلاَ تَرُدَّهُ»[٣].

وأما الحروب التي شنها بعض من ينتسب إلىٰ أمة النبي ﷺ فكان أولها فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه حيث شن المرتدون ومانعو الزكاة حربهم المجرمة، فدفعهم أبو بكر رضي الله عنه في موقف مدهش حفظ الله عز وجل به الدين، وحمىٰ الأرض من الفساد، ثم ما زال البغاة والمنافقون يخرجون، فكان أولهم زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة الراشد الثالث، وهو من أعظم ملوك الإنسانية صلاحًا، وأعظمهم عبقرية إدارية، واختار عدم مدافعتهم؛ لئلا يعتاد الملوك علىٰ إراقة الدماء.. كان ذلك اختياره رضي الله عنه مع أن القوانين الشرعية والوضعية أباحت له دفع البغاة، ثم استمرت المخالفة التأويلية والتكفيرية

(١) البخاري، رقم الحديث: ٦١٠٤.

(٢) البخاري، رقم الحديث: ٦١٠٥.

(٣) القس أنطونيوس فكري، إنجيل متى، مشروع الكنوز القبطية، ص ٦٤.

تنبعث، فقَتَل البغاة بعده علي بن أبي طالب ﷺ، ثم استمرت الباطنية التكفيرية باسم آل البيت أو باسم أعدائهم تتدفق جحافلها الغادرة حتىٰ اقْتَلَع مجرموهم الحجر الأَسوَدَ من الكَعبَة سَنَةِ ٢٩٣هـ.

وها هي فرق البغي المجرمة تعمل أسلحتها في دماء المسلمين بالتحالف مع تجار المخدرات والفسق العالمي.

فهل شاهدت جرائمهم البشعة، وظلمهم المقنع بأقنعة الدين؟ أما ترىٰ كيف يتاجرون بدماء المسلمين وديار الآمنين؟ وهم يرددون كل يوم ويهتفون بالموت لأمريكا وهم عملاؤها، والموت لإسرائيل وهم أولياؤها وخُدامها!!

فلو شاء الله ﷻ لمنعهم من الاختلاف ليمتنعوا من التقاتل، ولكن الله ﷻ يفعل ما يريد، حيث خلق الإنسان حرًّا في الإرادة فأبىٰ بعضهم إلا كفرًا بما أنزل الله ﷻ، واختار بعض المنتسبين إلىٰ الأنبياء عليهم السلام إيمانًا لكنهم حرَّفوا المنزَّل إليهم تحريف تبديل، وبعضهم حرَّفه تحريف تأويل، وانضم إليهم أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية الرخيصة فاجتمع البغاة من جميع أولئك علىٰ المؤمنين يقاتلونهم، وكان لا بد للمؤمنين من تفعيل سنة المدافعة، فهذا جزء من الجواب علىٰ سؤال الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والآية هنا تحذرهم تحذيرًا صارمًا من التقاتل بعد بيان وقوعه، وتحملهم مسؤوليته في الحساب المنتظر.

وهنا تعلم لماذا جاء الأمر بالإنفاق مجددًا في الآية التالية.. إن الإنفاق من أهم مظاهر مدافعة البغي، ومقارعة الفساد المسلح ومليشياته المجرمة.

وهنا قد تسأل: فأين الله ﷻ من كل هذا الإفساد في الأرض؟ وعندها تسمع الآية تسعفك، فتصغي لها بانبهار: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

أي حتىٰ بعد أن آمن من آمن وكفر من كفر كان يمكن لهم أن يتعايشوا، وعند الله ﷻ تجتمع الخصوم، ويكون الأمر كما قال ربهم ﷻ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨]، ولكن البغاة أصروا علىٰ قتال المؤمنين، والمؤمنون لا بد لهم من مدافعتهم، ولو شاء الله ﷻ ما اقتتلوا ولكن الله ﷻ يفعل ما يريد في خلقه، ومن إرادته أن جعل بعضهم لبعض فتنة، وجعل لهم حرية الاختيار، فاختارت فئة الكفر والبغي، وكان لا بد للطرف المؤمن المقابل من المدافعة وإلا فسدت الأرض، فالاقتتال يمثل صورةً للمدافعة بين الحق والباطل.

وهو سبحانه هنا لم يقل: وقد شاء الله أن يقتتلوا، بل قال: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ فدل علىٰ أنه شاء أن يجعل لهم الاختيار ووسائله من السمع، والبصر، والأفئدة، فاختار كفارهم البغي المؤدي إلىٰ قتال المبغي عليه، ولو أراد سلب الاختيار منهم لمنع القتال لفعل.

وبذلك تتضح الآية كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشىٰ البلاد مشارقًا ومغاربًا دون أن تجد فيها تكرارًا لمعنىٰ ذكر فيها، بل كل جملها مستقلة تبهرك فيما تخبئه من كنوز.

بين سنة التدافع القرآنية ونظرية التحدي والاستجابة عند أرنولد توينبي[١]:

يتناول كتاب «توينبي ونظرية التحدي والاستجابة ـ الحضارة الإسلامية أنموذجًا» لمؤلفه زياد عبد الكريم النجم، موقف المؤرخ والفيلسوف المعروف أرنولد توينبي من الحضارة الإسلامية[٢]، عبر تحليل كيفية تطبيق أفكاره علىٰ نشوء الحضارة الإسلامية والمراحل التي مرت بها، والآلية التي استخلص من خلالها توينبي نظريته في نشوء الحضارات وسقوطها، والتحديات التي تخلق الاستجابات في عملية نمو الحضارة.

(أرنولد تُوينبي) (١٨٨٩ – ١٩٧٥م) بحَثَ في الحضارات في موسوعته التاريخيَّة «دراسة للتاريخ» التي تتألَّف من اثني عشرَ مُجلَّدًا، وقد ألفها في واحدٍ وأربعين عامًا، واشتهر بنظرية التحدي والاستجابة، ويلخصها في أنَّ الفَرد الذي يتعرَّضُ لصدمةٍ قد يفقدُ توازُنَه لفترةٍ ما، ثمَّ قد يستجيبُ لها بنوعَين من الاستجابة:

النكوص إلىٰ الماضي لاستعادته والتمسُّك به تعويضًا عن واقعه المُرّ، فيُصبح انطوائيًّا؛ والثانية، تقبُّل هذه الصدمة والاعتراف بها ثمَّ مُحاولة التغلُّب عليها، فيكون في هذه الحالة انبساطيًّا.

فالحالة الأولىٰ تُعتَبرُ استجابةً سلبيَّة، والثانية إيجابيَّة بالنسبة لعلم النفس، ونظريته تحمل بعض الأخطاء التي لا بد من تصحيحها، فلتصحيح كلامه يمكننا القول: إن الماضي قد يكون دافعًا قويًّا لتغيير الحاضر نحو مستقبلٍ أكثر تمكنًا، وأعظم إنجازًا،

(١) أرنولد جوزف توينبي (Arnold J. Toynbee) مؤرخ بريطاني ولد في ١٤ أبريل ١٨٨٩م في لندن وتوفي في ٢٢ أكتوبر ١٩٧٥م. أهم أعماله موسوعة دراسة للتاريخ، وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين.

(٢) النجم، زياد عبد الكريم، توينبي ونظرية التحدي والاستجابة ـ الحضارة الإسلامية أنموذجًا، الفصل الثالث مسيرة الحضارة بين التكون والانحلال، ص٩٧.

بل إن الماضي المجيد يصبح مصدر إلهامٍ، وجناح شوقٍ يطير بك نحو التمكن الحضاري في المستقبل.

وربط (توينبي) بين الفئة المبدعة ونشأة الحضارات بشكل وثيق، وقد ذكرنا هذا في البصائر القرآنية التي توجهنا نحو (الملأ) ليكونوا قادة للإبداع في صناعة التغيير الإيجابي، وليس في تكريس الحاضر السلبي.

ومن الأبعاد الخطيرة التي قررها (توينبي) ولا يعرفها سفهاء المتحكمين في القرار في كثيرٍ من الدول المسلمة للأسف: بُعد الدين؛ فإن (توينبي) عدَّ الدين السمة الأساسية لأي حضارة، والتحديات الحقيقية والاستجابات المقابلة لها تكون ذات بعدٍ ديني في الغالب، وما زال الناقدون له يعدون هذا الكلام إحدىٰ سقطاته، وجعلوا سبب هذا السقطة أن قراءته الحضارية انطلقت من المنطلق المسيحي، وقد أتىٰ بجزء من الحقيقة المدهشة التي قررها الله ﷻ في قوله: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومن أجمل ما قرره (توينبي) أنه كلما ازداد التحدي تصاعدت قوة الاستجابة حتىٰ تصل بأصحابها إلىٰ ما سماه بـ "الوسيلة الذهبية" التي هي الناتج الأخير لعددٍ كبيرٍ من المحاولات الفاشلة للخروج بنجاح في التحدي الذي ينافس فيه الفرد أو الأمة.

والتجارب الفاشلة لا ينبغي أن تنتج حزنًا يؤدي إلىٰ اليأس بل ينبغي أن تكون جسرًا يؤدي إلىٰ صناعة النجاح الحقيقي، وهذا جزء من المعنىٰ الذي تستلهمه من

قوله تعالىٰ ذكره: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وينقلون عن (ليوناردو ديفينشي)[١] أنه قال: «فقط عبر التجربة نستطيع أن نتعلم شيئًا».

واشتهر عن (أديسون)[٢] أنه قال تعليقًا علىٰ تجاربه الكثيرة: «أنا لم أقم بألف تجربة فاشلة، بل تعرفت علىٰ ألف طريق لا يؤدي إلىٰ الحل الصحيح».

(١) هو: (ليوناردو دي سير بيرو دا فينشي) (Lionardo di ser Piero da Vinci): (١٤٥٢-١٥١٩م)، فنان ومخترع إيطالي كثيرُ المعارف عاش في عصر النهضة، ويشتهر بإنجازاته العلمية واختراعاته. ينظر: Wikipedia.

(٢) هو: توماس ألفا إديسون (Thomas Alva Edison): (١٨٤٧ -١٩٣١م)، مخترع ورجل أعمال أمريكي، اخترع العديد من الأجهزة التي كان لها أثر كبير على البشرية حول العالم، مثل المصباح الكهربائي. ينظر: Wikipedia.

الحقيقة الثامنة

الإنفاق في سبيل الله أساس للفوز في سنة التدافع

وهو دليلٌ حقيقي علىٰ صدق دعوىٰ الإيمان.

ويُبَصِّرُنا بذلك الأمر بالإنفاق عقب ما سبق، وذلك قوله تعالىٰ جده: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وعدم الإنفاق كفر أصغر يظلم الشحيح فيه نفسه، ويظلم العالم حوله، ويفقد الأمن الشخصي والقومي.

وهذه الآية التي بينت هذه الحقيقة حوت ثلاث بصائر، فصلت أهمية الإنفاق:

البصيرة الأولىٰ: الإنفاق في سبيل الله ﷻ دليل علىٰ صدق الإيمان، خاصةً في أزمنة الحاجة والاستضعاف:

ما كان للمؤمنين أن يدّعوا أنهم مؤمنون دون أن يُثبِتوا صدقَ دعواهم، وأهم دليلٍ علىٰ صدقهم: الإنفاق في سبيل الله، وخاصةً في أزمنة الحاجة والاستضعاف، والغاية من الإنفاق أن يستثمروا ما رزقهم الله ﷻ في الدنيا لأجل أمنهم الدنيوي والأخروي، وليحموا مصالحهم الحقيقية، وليصنعوا مستقبلهم القادم في الدنيا والآخرة، ويُبَصِّرُنا بذلك قوله تعالىٰ ذكره: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ﴾[البقرة: ٢٥٤].فبدأ الله ﷻ الآية بخطاب الجمع المؤمن فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾،وهذا الخطاب جاء بعد بيان سنن الخروج من الاستضعاف، وبعد بيان قانون الدفع والمدافعة الذي يمنع الفساد في الأرض، وبعد ذكر الحقيقة الواقعية في بغي من كفر ممن ينتسب إلىٰ

أعظم الأنبياء عليهم السلام على مَن آمن، وذلك في قوله جل ذكره في الآية السابقة ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ﴾. فإن كان الجهاد البدني أشق أنواع البذل، فإن الجهاد المالي صنوه، وكم حاول المفسدون في الأرض منع الباذلين من إيصال الخير للمستحقين تغذية وتعلمًا وتكريمًا؛ لأنهم يعلمون أن ذلك بداية التغيير في موازين القوى الظالمة.

فموقع هذه الآية قائم على التأصيل الدائم الذي يتعلق بضرورة الجمع بين الجهاد المالي والجسدي المذكور مرارًا في القرآن المجيد كما في قوله تعالى ذكره: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الْأَنْفَال: ٧٢]، وقد رأيت أن الله قال من قبل ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الْبَقَرَة: ٢٤٤]، ثم شفع ذلك بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [الْبَقَرَة: ٢٤٥].

فخاطب الله عز وجل المؤمنين قائلًا لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ فإذا كانوا حقًا مؤمنين فإن أجلى دليل، وأوضحَ برهان يظهرون به إيمانهم أن ينفقوا وخاصة في أزمنة المدافعة، أو أوقات الاستضعاف، وذلك أن المناع للخير المعتدي الأثيم سيصر على حصار المستضعفين في دورهم وطعامهم وشرابهم، وسيعمل على تجفيف منابع التعاون والتعاضد والتناصر ليحطم كل قوةٍ يمكن أن تقاومه يومًا، فمن كان ينتسب للإيمان فليُثبت صدق إيمانه، بأن لا يستجيب للدعوات الآثمة.. بألا يقف في خندق المعتدي ضد الضحايا، وكأنك ترى الأرض بارزة اليوم أمام هذا البيان الإلهي، فجئ بنفسك على ما تسمى الدول الإسلامية شهيدًا أمام هذا الحصار الخانق المفروض على شعوبها المستضعفة في الأرض.. كيف تجدهم صنعوا؟

إن الله تعالى إذ يأمرك بالإنفاق فإنما يأمرك بأن تستثمر مالك بتقديمه في الإنفاق في وجوهه.. تستثمرها لأجل أمنك الاجتماعي، ولأجل أمن أولادك، ولأجل مستقبلك الأخروي.

أنفقوا مما رزقكم الله ﷻ في أزمنة الحاجة والاستضعاف، لتطعموا يتيمًا، أو مسكينًا، أو فقيرًا، أو تقيلوا عثرة، أو تقضوا دينًا، أو تبنوا مراكز إيواء، أو مدارس تعليم، أو دور قرآن، أو مساجد تجمع شعث بني الإنسان، أو تدافعوا عن مظلوم أو تنصروا المقهور..

اقتحام لا يحجزه تهيب ولا ينوبه تردد:

إن هذا الزمان بحق زمان اقتحام وتقحم العقبة، فكم هي الشدائد المثقلات والنوائب العاديات المتواليات النازلات بأمة محمد ﷺ ولعمر الله ليس من سبيل لتخفيف حدتها ودفع وطأتها إلا برجال يقومون بوظيفة الحق للحق في زمنه، يتقدمون الصفوف مخاطرين بالأرواح والأموال غير مبالين، إن اقتضاهم الحق فرسانًا في الميدان كانوا هم أهل الطعان، وإن اقتضاهم باذلين لما ملكته أيديهم أرخصوا في سبيل الله تعالىٰ الأموال والأثمان، أولئك من يصدق فيهم قول الحق تعالىٰ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد: ١١ - ١٦]، أولئك من يقتحمون بأمتهم الصعاب ويجتازون بها درك المخاطر.

إن الإنفاق هنا يعني بناء حصونٍ للأمن الشخصي والأمن القومي، ويتعلق بواقعين:

واقع الأمن والرخاء، وفيه يحمي الإنفاق كل المنجزات الدنيوية من أي اعتداء محتمل، لأنه إما أن يكون في الأمور الاجتماعية فيقرب بين الطبقات المختلفة، وإما أن يكون في الأمور التعليمية النافعة وفي مقدمتها علوم الآخرة، فيكَوِّن الطبقة الواعية المحصنة بدينها من الغدر والخيانة غالبًا، وواقع الاستضعاف، فيشكل الإنفاق الآلة الرافعة والقوة الدافعة والفرصة السانحة والطريقة المانحة التي تؤتي المنفق من كل

شيء سببًا، حيث يعمل علىٰ بناء الطاقات المختلفة التي تكوِّن مجتمعه في سبيل الصعود المنتظر.

وهل الإنفاق المطلوب هنا خاص بالواجب منه أم يشمل كل إنفاق؟

ذهب الزمخشري رحمه الله إلىٰ أن الأمر هنا يخص الإنفاق الواجب لاتصال الوعيد به[١]..

رحم الله الزمخشري، فهو يستحضر السياق، ولكنه لا يُعمِلُه بصورة تامة؛ فإنك إن ضممت هذه الآية إلىٰ ما قبلها وجدت أن الإنفاق يشمل الواجب وغير الواجب وخاصة في زمن الاستضعاف، فمن قال: إن وجود الوعيد يخصص الأمر بالنفقة الواجبة، نسأله: ألا يحتاج المرء إلىٰ التطوعات في الأعمال الصالحات لزيادة الحسنات، أو محو السيئات، أو تثقيل الموازين، أو تصحيح الخلل في الطاعات المفروضات؟

ألم يقل نبينا محمد ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد صلاته، فإن كان أتمها كتبت له تامة، وإن لم يكن أتمها قال الله ﷻ: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع، فتكملوا بها فريضته؟ ثم الزكاة كذلك، ثم تؤخذ الأعمال علىٰ حسب ذلك»[٢]؟

وقد وجدت الرازي رحمه الله ينقل عن الأكثرين أن الأمر بالإنفاق هنا يتناول الواجب والمندوب، وليس في الآية وعيد، فكأنه قيل: حصِّلوا منافع الآخرة حين تكونون في الدنيا، فإنكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة[٣].

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٢٩٩.

(٢) أحمد، ج ٤، ص ٦٥، رقم الحديث: ١٦٦٦٥، وقال شعيب الأرناؤوط رحمه الله: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، ج ٦، ص ٥٣١.

البصيرة الثانية: الإنفاق في سبيل الله تعالى عطية ربانية، ومنحة إلهية للعبد في الحياة الدنيوية:

إن الأمر بإنفاق شيء كرمٌ إلهي مِنَ الذي أعطاك كل شيء قبل أن تأتي الحياة الأخروية الكاملة، حيث لا يملك المرء التصرف في ذرةٍ مما كان يملك، ولا تنفعه علاقاته الإنسانية الدنيوية، ويبصرك بهذا قول ربك جل جلاله: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فانظر إلىٰ هذه البصيرة التي تحرك أفئدة المخبتين؛ إذ يقول جل في علاه: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾ يحثهم حثًّا شديدًا علىٰ الإنفاق؛ لأنه طلب مِنْهُمْ شيئًا مما أعطاهم، واستخلفهم فيه، إنه يأمرهم أن ينفقوا مما رزقهم لا من شيء خلقوه من عند أنفسهم، فهوَّن عليهم قضية الإنفاق عندما ذكرهم بأن الإنفاق إنما هو من شيء منحهم إياه، وليس من شيء أتوا به من عند أنفسهم ابتداءً.

إن الله ﷻ يتداركهم برحمته، فيأمرهم بالإنفاق علىٰ أنفسهم مما رزقهم من قبل أن يأتي يوم لا يملكون فيه التصرف في ذرة مما كانوا يملكون فهذا معنىٰ ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾، ولا تنفعهم العلاقات الإنسانية الدنيوية، فهذا معنىٰ ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾.

فإن كانت القوىٰ الجَوَّاظة المستكبرة تثير فيهم الرعب لئلا ينفقوا، وإن كان كل مناعٍ للخير، متعدٍ أثيمٍ، عتل بعد ذلك زنيم يرهبهم فليذكروا مصالحهم الحقيقية يوم القارعة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فذكر الله ﷻ لك أهم الوسائل التي يمكن أن تنجيك من الأخطار، وبين أن فائدتها التأثيرية صفر، بل هي غير موجودة ذلك اليوم، فقد يظن من يبتغي العزة عند قوىٰ الاستكبار العالمية أنه يمكن أن يتكل يوم القيامة علىٰ مفاوضة كالبيع والشراء

يمكن أن تقيه يوم القيامة الخطب الجلل، أو يعتمد علىٰ شَفَاعَةٍ تُغنِي هُنَالِكَ عَنِ العَمَلِ، أَوْ فِديةٍ تَقِي صاحِبَها عاقِبَةَ مَا كان عليه مِنَ الإجرام والزَّلَلِ.. تعال لننظر في هذه الوسائل التي يعتمدها أهل الدنيا للنجاة من المخاطر، فتحملهم أمانيهم علىٰ ظن أنها موجودة يوم القيامة.. إنها ثلاث وسائل:

الوسيلة الأولىٰ: البيع.. لقد ذكر ربي جل ذكره البيعَ ليشير إلىٰ زوال المصالح التي من أجلها تضحي كثير من الجموع والأفراد والدول بمبادئها مقابل مصالحهم التجارية، فما الذي سيفعله من باع جوعة يتيم في مائدة المفاوضات علىٰ دماء الشعوب.. ما الذي سيفعله يوم القيامة: هل سيشتري نفسه مقابل جرائمه، وحصاره للمستضعفين؟ كأن الله ﷻ يخاطبهم قائلًا:

أنفقوا شيئًا تشترون به منازلكم في الآخرة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ لا تستطيعون فيه أن تبيعوا شيئًا وقد كان يمكنكم أن تبتاعوا بالمئات والألوف والمليارات..

ويدخل في البيع المنفي: الفدية كما جاء مصرحًا به في قوله عزَّ جارُه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد: ١٥] وَقَالَ: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: ١٢٣] وَقَالَ: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠] كما يدخل فيه أن يبحث عما كان يملكه في الدنيا، فلا يجده، فهذا تحذير للغافلين، فلينفقوا قبل أن يأتي يوم يتركون فيه كل ما أعطاهم الله ﷻ، فلا يستطيعون فيه التصرف كما قَالَ تَعَالَىٰ ذكره: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] وَقَالَ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٠]، ويدخل في البيع المنفي أن يكتسب مالًا جديدًا؛ فإن ذلك ممنوع في دار الجزاء.. قد كان متاحًا في دار الابتلاء، فلم لم يُصحب بالصدق؟

كأنه يقول لهم: استثمروا لأنفسكم وعجلوا من قبل أن يأتي يوم لا تستطيعون فيه بيعًا ولا شراء:

اعْمَلْ لِدَارِ الْبَقَاءِ رِضْوَانٌ خَازِنُهَا ... الْجَارُ أَحْمَدُ وَالرَّحْمَنُ بَانِيهَا
مَنْ يَشْتَرِي قُبَّةً فِي الْعَدْنِ عَالِيَةً ... فِي ظِلِّ طُوبَىٰ رَفِيعَاتٌ مَبَانِيهَا
دَلالُهَا الْمُصْطَفَىٰ وَاللهُ بَائِعُهَا ... وَجِبْرَئِيلُ يُنَادِي فِي نَوَاحِيهَا
مَنْ يَشْتَرِي الدَّارَ فِي الْفِرْدَوْسِ يَعْمُرُهَا ... بِرَكْعَةٍ فِي ظَلامِ اللَّيْلِ يُخْفِيهَا
أَوْ سَدِّ جَوْعَةِ مِسْكِينٍ بِشَبْعَتِهِ ... فِي يَوْمِ مَسْغَبَةٍ عَمَّ الغَلا فِيهَا
النَّفْسُ تَطْمَعُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنَّ السَّلامَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيهَا
أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيرَاثِ نَجْمَعُهَا ... وَدَارُنَا لِخَرَابِ الْبُومِ نَبْنِيهَا
لا دَارَ لِلْمَرْءِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا ... إِلا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ يَبْنِيهَا
فَمَنْ بَنَاهَا بِخَيْرٍ طَابَ مَسْكَنُهُ ... وَمَنْ بَنَاهَا بِشَرٍّ خَابَ بَانِيهَا[1]

الوسيلة الثانية: الخلة، والخلة الصداقة التي بلغت أعلىٰ درجات المحبة حتىٰ دخل كلٌّ من الطرفين في خلال الآخر، وأصبح كلٌّ من الجهتين جزءًا من الآخر يرضىٰ برضاه ويسخط بسخطه، وهذا هو المعنىٰ البشري لها. وذكر الله ﷻ (الخلة) هنا إشارة إلىٰ أن الصداقة زائلة في ذلك اليوم، فهل سيغني عن المرء ما كان يردده في الدنيا من علاقات الصداقة الحميمة، وهو يتلاعب بدماء الشعوب البريئة؟

لقد ذكر الله ﷻ تقطع العلاقات الحميمة في ذلك اليوم فقال: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وحذَّر من انقلاب الأخلاء في ذلك اليوم إلىٰ أعداء، لشدة الهول عندما يرىٰ المرء الحساب علىٰ الأعمال الدنيوية وما يترتب عليها، فقال: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، بل بين أن العداوة

(١) الشاعر هو : إبراهيم بن العباس الصولي ١٧٦ - ٢٤٢هـ .

تصل إلىٰ حد الجحود والتلاعن فقال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] في ذاك اليوم تذهب الصداقات، وتزول المودات ويصيح الظالمون الضائعون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠٢].

الوسيلة الثالثة: الشفاعة، وهي إيناس المنفرد ليصير شفعًا في طلب منفعة لمن كان منفردًا، حيث يتحول الشافع إلىٰ مؤثرٍ في قضاء حاجة من كان منفردًا، من دفع ضر أو جلب نفع، فالشفاعة تقتضي شافعًا، ومشفوعًا له، ومشفوعًا فيه، ومشفوعًا إليه، فيسعىٰ الشافع للمشفوع له لحاجته له في مالٍ أو جاهٍ أو أمر عاطفي، ويسمع المشفوع إليه لقول الشافع لحاجته له في مالٍ أو جاه أو أمر عاطفي، فإن شفع الشافع شُفِّع، كما في الحديث «قالوا حَرِيٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفَّع، وإن قال : أن يُستَمع»[1].

لماذا ذكر الشفاعة هنا؟

فقد يظن البخيل أنه يمكن أن يعتمد علىٰ الشفاعة في الأخرىٰ لتحصيل السعادة، أو لنيل الفوز.. إنه يقيس أحوال الآخرة علىٰ الدنيا ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].. إن أحوال السعادات الأخروية لا تقاس علىٰ الأسباب الدنيوية، فالصالحون ينجيهم الله بمفازاتهم، وجوائزهم عند ربهم لا يمسهم السوء، وهم لن يقدموا شفاعاتهم ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]..

---

(١) البخاري، رقم الحديث: ٥٠٩١.

فهل يظن الأشحة أن الصالحين سيشفعون للمعتدي الأثيم الذي أبىٰ أن ينقذ جائعًا أو يكسو عريانًا، أو يغيث ملهوفًا أو ينقذ محاصَرًا؟

لا شفاعة إلا بإذن الله ﷻ، وأنت ترىٰ هنا أن الله ﷻ ينفي الشفاعة عن هؤلاء المجرمين الذين يشاركون بفاعلية في الاستجابة للمفسدين في الأرضين فيحاصرون شعوبهم، ويقاتلون صالحيهم.. فيا طول حزن الخاسرين! ذهبت صداقاتهم، وضاعت وجهاتهم، ترىٰ الواحد منهم يزفر مولولًا يبحث عن صديقٍ حميم، أو شفيع يطاع فلا يجد ومنادي الحق يناديه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر: ١٨]، وعندها تزداد شهقاته فيقول: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

الغلو في كل شيء مذموم؛ فإن الشفاعة في القرآن المجيد منفيةٌ وثابتة، ولا تناقض؛ إذ هي منفية من وجه ثابتة من وجهٍ آخر.. وليس هذا درسًا عقديًّا؛ فإن الغلو في نفيها نفي لحكم الله ﷻ وتكريمه لمن شاء من خلقه، والغلو في إثباتها تسبب في زهد مجرمي المسلمين في العودة إلىٰ ربهم ﷻ والتذلل والضراعة، وانتشار فكر الإرجاء.. إنهم يدرجون علىٰ سنن من قبلهم من اليهود والنصارىٰ، فاتكل اليهود علىٰ شفاعة الانتماء النسبي لما أسموه (الشعب المختار)، واعتمد النصارىٰ الإيمان بمن زعموه (المسيح المخلص)، فاقترف المجرمون ممن ينتسب إلىٰ الأمم الثلاث الفظائع التي لا يكاد يتصورها عقل.. وما زالوا في غيهم يعمهون.

نعم! إن نفي الشفاعة هنا عام والمراد به خاص كما قال الطبري ﷺ، فهي مقيدة بمثل قَوْلِهِ تَعَالَىٰ ذكره: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

فالناس لا ينتفعون بالصداقة والخلة يوم القيامة إلا أن يكونوا متقين، وكذلك لا ينتفعون بالشفاعة إلا أن يكونوا صالحين مستحقين، فأما الكافر فلا تنفعه شفاعة الشافعين، وما أكثر من يعمل أعمال الكفر من المسلمين متوكلًا علىٰ الشفاعة كأنه قد اتخذ عند الله ﷻ عهدًا.. غرتهم الأماني فلم يبالوا بعهد الله ﷻ في الدنيا، يرمون المظلومين في السجون، ويذيقون الأبرياء عذاب الهون ثم يزعمون أنهم مسلمون ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

ومن أسباب نفي الخلة والشفاعة ذلك اليوم أنه يوم شديد الحساب علىٰ الأعمال التي يقدمها كل واحدٍ في فرصة العمر التي منحت له، فكل مشغول بِنَفْسِهِ كما قَالَ تَعَالَىٰ ذكره: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] كما أن الأهوال التي يراها المرء تجعله ذاهلًا عن كل أحدٍ حوله كما قال عزَّ جارُه: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج ٢]، وحتىٰ ينجو الواحد منهم يظن أنه يجب أن يحتفظ بأكبر قدر ممكن من الحسنات، وأن يتقي تفعيل العلاقات، شعار الواحد منهم نفسي، نفسي.

البصيرة الثالثة: الكفر الأصغر والأكبر ظلم للنفس وظلم للعالم:

ويُبَصِّرُنا بذلك قوله ﷻ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]،

فلم تنتهِ البصيرتان السابقتان ضمن هذه الحقيقة حتىٰ يذكر الله ﷻ بصيرة ثالثة ترجف منها أفئدة الذين يخشون ربهم إنْ هم قصروا في القيام بالإنفاق الاستهلاكي (ما يحتاجه الآخرون لحياتهم أكلًا وشربًا وسكنًا)، والاستثماري (ما يحتاجه الآخرون ليستثمروه حتىٰ يعود عليهم بدخل).

فقال جل ذكره: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ما علاقة هذه الجملة المباركة بما قبلها؟ الكلام عن الإنفاق، والترابط بين البصيرتين الأولىٰ والثانية واضح إذ إن البخيل أو الشحيح إن لم يجد العقوبة العاجلة - وهو واجدها غالبًا - فلينتظر يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، لكن ما علاقة الكفر هنا حتىٰ يقول الله ﷻ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.. فلننظر في معنىٰ الكفر والظلم:

الكفر[١] من كفر بمعنىٰ ستر الشيء وغطاه، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص، وَقد فُسِّر بهما قولُ ثَعلَبَة بن صُعَيرٍ المازنيّ يصفَ الظَّليم والنَّعامةَ ورَواحَهُما إِلَىٰ بَيضهما عِنْد غرُوب الشَّمْس[٢]:

فَتَذَكَّرا ثَقَلًا رَثيدًا بَعدَما أَلْقَتْ ذُكاءُ يَمينَها فِي كافِرِ

وذُكاءُ: اسمٌ للشمس، و(أَلْقَتْ يمينَها فِي كَافِرِ)، أَي بدأَتْ فِي المَغيب، فألقت يمينها في البحر الذي يغطيها أي عن أعيننا لا في واقع الأمر، وَيحْتَمل أَن يكون أَرَادَ اللَّيْل لأنه يغطي الكون ويستره، ويطلق الكافر علىٰ الزارع لستره البذر في الأرض، ومنه قوله تعالىٰ ذكره: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠]، وتكفَّر في السلاح أي تغطىٰ فيه، والكافور أكمام الثمرة أي التي تكف الثمرة، والكفارة ما يغطي الإثم، والْكُفْرُ: ضِدُّ الْإِيمَانِ، سُمِّيَ به؛ لِأَنَّهُ تَغْطِيَةُ الْحَقِّ والحقائق، ومثل ذلك كُفْرَانُ النِّعْمَةِ: سَتْرُهَا بجحودها أو جحود مقتضاها وهو الشكر.

وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة، ويقابل الكفر الشكر فهو إظهار النعمة، وإظهار الحقيقة: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

(١) انظر: ابن فارس، "كفر " مقاييس اللغة، ج ٥، ص ١٩١، الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج ٢، ص ٥٥٩، الزَّبيدي،تاج العروس، ج ١٤، ص ٥٠.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج ١، ص ٢٨٥.

لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

وقد قررتُ في حقائق المفردات القرآنية[١] أن الظلم هو النقص الذي يدخله المرء علىٰ نفسه وعلىٰ غيره بوضع الشيء في غير موضعه، فيغتر بما يحقق من إنجاز عاجل غير عادل، ويجلب معه الظلمة في حياة الناس، فالكافر مُغَطٍّ للحقائق ظالمٌ لنفسه وللعالم، ويدخل في الكفر نوعان:

النوع الأول: الكفر الأكبر، وهو كفر المنعِم، بتغطية أهم النعم، وهي نعمة التوحيد ومعرفة الله المجيد، واستحقاقه لأن يعبده العالم ويوحدوه في عبادته، ويكون الختم لآية الإنفاق بهذا لسببين:

لأن ذلك الإنفاق لقتال المشركين المعتدين بسبب ظلمهم، واعتدائهم، وللتعريض بالمؤمنين الممسكين عن الإنفاق؛ إذ الممسك يشبه الكافر، كما قال تعالىٰ ذكره: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦، ٧].

النوع الثاني: الكفر الأصغر وهو كفر النعم، ويكون المراد أنك إن كنت بخيلًا ممسكًا فأنت كافرٌ بالنعمة؛ إذ كيف تشكر المنعم، وأنت لا تقيم أمره في النعمة التي حباك بها، كما قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨﴾ [إبراهيم: ٢٨]، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١١٣ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٤].

---

(١) تحت الطباعة إن شاء الله.

فلنعد الآن لننعم النظر: لماذا ختم الله ﷻ الآية متكلمًا عن الكفار مع أن بداية الآية إنما هو خطاب للمؤمنين؟

ليس لذلك من تفسيرٍ واضحٍ إلا أن الكفر يشمل الأصغر والأكبر، والمراد هنا قصدًا الكفر الأصغر؛ فإن بخل الأشحة المجرمين ممن ينتسبون إلىٰ المسلمين ليس جريمة تتعلق بهم، بل هو اعتداءٌ حقيقيٌّ علىٰ أمتهم، وظلم هائل للعالم حولهم.. تصور كيف يبخلون فلا ينفقون مما رزقهم الله ﷻ لأجل ردم الهوة الاجتماعية بين الطبقات..

تصور كيف لا ينفقون لأجل نشر آيات القرآن المجيد والميراث النبوي.. تصور لا يحصنون أمتهم من الأخطار المهلكة بإعانة الطاقات الشابة علىٰ أن تتبوأ لها مقعد صدق في معارك الحياة.. فماذا تكون النتيجة؟ إنه الدمار القادم عليهم جميعًا..

فهل يظنون أنه يغني عنهم المليارات المدخرة أم الكنوز المخبئة أم الأرصدة التي احتفظوا بها وراء البحار؟

وإنك لتخالف سيد المفسرين الطبري ﵀ حينما أراد أن يبحث عن مخرجٍ لختم الآية بهذه الجملة المباركة بسبب السطوة المعرفية للاصطلاح المتأخر لكلمة الكفر.. فكيف فرَّ ﵀ من تقريره أن المراد بالكفر ما أخرج عن الملة؟

يجيب علىٰ ذلك فيقول ﵀: إن الآية قد تقدمها ذكر صنفين من الناس: أحدهما أهل كفر، والآخر أهل إيمان، وذلك قوله: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ ثم عقب الله تعالىٰ ذكره الصنفين بما ذكَّرهم به، بحض أهل الإيمان به علىٰ ما يقربهم إليه من النفقة في طاعته وفي جهاد أعدائه من أهل الكفر به، قبل مجيء اليوم الذي وصف صفتَه. وأخبر فيه عن حال أعدائه من أهل الكفر به، إذ كان قتال أهل الكفر به في معصيته ونفقتهم في الصد عن سبيله، فقال تعالى ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ أنتم ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ في طاعتي، إذ كان أهل الكفر بي ينفقون في معصيتي ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ فيدرك أهل الكفر فيه ابتياع ما فرطوا في ابتياعه في دنياهم ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾ لهم يومئذ تنصرهم مني، ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ ولا شافع لهم يشفع عندي، فتنجيهم شفاعته لهم من عقابي. وهذا يومئذ، فِعْلي بهم جزاء لهم علىٰ كفرهم، وهم الظالمون أنفسهم دوني، لأني غير ظلام لعبيدي.

ثم روىٰ عن عطاء بن دينار ﷺ أنه قال: الحمد لله الذي قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يقل: (الظالمون هم الكافرون)[1].

تعال ننظر ذلك! فكلام شيخ الدنيا في التفسير ملهمٌ حقًّا لكنني أظن الاصطلاح المتأخر لكلمة كفر قد حجبه عن الاصطلاح القرآني للكلمة ذاتها، فالتمسَ لخاتمة الآية سياقًا مخصوصًا في الآية قبلها لكنه – يا لَلمفاجأة – نزعها من سياقها القريب أي من سياق آيتها ذاته، حيث كان الكلام عن الإنفاق لا عن الكفر الذي يقابل الإيمان.. ووَصْلُ آخر الكلام بكلامٍ بعيدٍ عنه، وفَصْلُه عن ما اتصل به يضعضع البلاغة، ويذوي برونق الحسن والفصاحة وإن قُبِل في بعض الأحيان، فلماذا اللجوء إلىٰ ذلك مع أنه لا يؤزنا إليه شيء؟

إن الكفر يراد به هنا الكفر الأصغر، فإن أريد به ذلك فمن بابٍ أولىٰ أن يدخل الكفر الأكبر فيه، وقد وجد الزمخشري ﷺ الصعوبة في نزع هذه الخاتمة عن آيتها، وفسَّر الكفر بما هو معلومٌ، فذكر أن الله ﷻ أراد بكلمة (الكافرون) التاركين الزكاة، واستخدم هذا المصطلح الذي يدل علىٰ الخروج من الملة للتغليظ، ونتيجة كلامه أنه أراد كفرًا لا يخرج من الملة لكنه يؤدي إليه، واستخدمه تغليظًا، وذلك هو الكفر الأصغر، ثم استشهد علىٰ هذا المعنىٰ بآية فريضة الحج ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ

(١) الطبري، جامع البيان، ج٥، ص٣٨٥.

عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فأتىٰ بقوله: (مَنْ كَفَرَ) مكان: ومن لم يحج، ولأنه جعل ترك الزكاة من صفات الكفار في قوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت: ٦، ٧][(١)].

وارتضىٰ البيضاوي ﷺ ذلك فكاد أن ينقله بحرفه فقال: «﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يريد والتاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، أو وضعوا المال في غيره موضعه، وصرفوه إلىٰ غير وجهه، فوضع الكافرون موضعه تغليظًا لهم وتهديدًا»[(٢)].

فليأذن لي الزمخشري والبيضاوي أن أخالفهما في أن الآية خاصة بالزكاة؛ فإن السياق البعيد لها يجعلها شاملة لكل ما يجب الإنفاق فيه، وأعني بالسياق البعيد: قصة استضعاف الملأ من بني إسرائيل الذين أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، ثم إن المفلحين منهم قاتلوا مع طالوت وداود عليه السلام؛ فإن هؤلاء المستضعفين يحتاجون إلىٰ مدد مالي، ولا يتحقق ذلك فقط بالنفقة الواجبة، بل يشمل الإنفاق علىٰ الحالات الطارئة التي تحتاجها الأمة ولو لم يكن الإنفاق في تلك الحالات في الأصل واجبًا، واللفظ من كتاب الله ﷻ إذا أمكن حمله علىٰ معنيين أو أكثر دون أن ينقض أحدهما الآخر وجب ذلك كما هو الحال هنا.

ولأجل التحذير من الكفرين الأصغر والأكبر وأعمالهما، وبيان حرمان أصحابهما من نفع الخلة والشفاعة قال الله ﷻ في ختام الآية: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ويبين الطبري ﷺ الاتصال الجميل بين جمل الآية الثلاث، فيقول: «فلذلك أتبع قوله ذلك: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

---

(١) الزمخشري، الكشاف، ج١، ص ٢٩٩.

(٢) البيضاوي، تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج ١، ص ١٥٣.

فدل بذلك علىٰ أن معنىٰ ذلك: حرمنا الكفار النصرة من الأخلاء، والشفاعة من الأولياء والأقرباء، ولم نكن لهم في فعلنا ذلك بهم ظالمين، إذ كان ذلك جزاء منا لما سلف منهم من الكفر بالله ﷻ في الدنيا، بل الكافرون هم الظالمون أنفسهم بما أتوا من الأفعال التي أوجبوا لها العقوبة من ربهم»[(١)]، ونحن مع إعجابنا بجميل صنع الطبري ﷺ هنا في إبراز التناسب والتماسك في النص القرآني إلا أنه غير خاف ما تعقبناه عليه قبل في حمله لفظ الكفر علىٰ المصطلح المتأخر لا علىٰ معهود القرآن وعادته علىٰ أنك يمكن أن تقرر بأن الكفر المقصود هنا يناسب أن يحمل علىٰ الكفر الأصغر والأكبر معًا إعمالًا للسياق القريب، وهو الكلام عن نفي الخلة والشفاعة عن الكفار الذين لم يسلموا أصلًا أو ارتدوا، وإعمالًا للسياق القريب والبعيد في أن كافر النعمة، أو الكافر كفرًا أصغر يبخل عن القيام بالإنفاق الواجب أو المستحب، فتكون النتيجة زيادة تمكن الكفار.

ومِنْ ظلمهم لأنفسهم وللعالم حولهم أنهم وضعوا الأمورَ فِي غَيرِ مَوَاضِعِهَا، فاهتموا بالحياة الدنيا، وغفلوا عن الآخرة، وظنوا أن جاههم يصرف عنهم أذىٰ الدهر، وأن أموالهم تدفع عنهم هول تغير الأيام وتداولها في الدنيا، وهول العذاب في الآخرة، فزعم أصحاب الكفر الأصغر أن الشفاعة أو القرابة أو النسبة الإسلامية تنجيهم من أعمالهم السيئة، وزعم أصحاب الكفر الأكبر أن الشفعاء يغنون عنهم شيئًا، حيث كانوا يقولون في الدنيا عن الأوثان المنصوبة والأنداد المزعومة: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وَقَالُوا أَيْضًا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

أفتظن أن يلوم الله ﷻ الكافرين الخارجين عن الملة علىٰ عدم الإنفاق، ويعفي من ذلك بخلاء الملة الذين أسهموا في تدمير أمتهم بشحهم.. بل إن غناهم آيلٌ إلىٰ احتياجٍ وإملاق؟

(١) الطبري، جامع البيان، ج٥، ص٣٨٢.

كما تصلح هذه الخاتمة لأن يراد بها أن الْإِنْفَاقَ كان لِقِتَالِ الكفرة الذين يفسدون في الأرض فَهُم –كما يقول الطاهر بن عاشور:ﷺ: «الظالمون لا المؤمنون الذين يقاتلونهم لحماية الدين والذب عن حوزته. وذِكْر الكافرين في مقام التسجيل فيه تنزيهٌ للمؤمنين عن أن يتركوا الإنفاق، إذ لا يظن بهم ذلك، فتركه والكفر متلازمان، فالكافرون يظلمون أنفسهم، والمؤمنون لا يظلمونها، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، وذلك أن القرآن يصوِّر المؤمنين في أكمل مراتب الإيمان، ويقابل حالهم بحال الكفار تغليظًا وتنزيهًا» [(١)].

فليس في الآية إعفاء للمسلمين البخلاء من التبعة، وعلىٰ هذا فلا يُفرح بما نسب لعطاء ﷺ من قوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وَلَم يَقُلْ: (وَالظَّالمونَ هُمُ الْكَافِرُونَ)».

ويعقب محمد رشيد رضا ﷺ علىٰ هذا الرأي البعيد عن فهم الآيات القرآنية بتعقيبٍ طويلٍ ضافٍ فيقول: «وقد فات صاحب هذا القول أن الظلم والكفر في القرآن يتواردان علىٰ المعنىٰ الواحد، فيطلقان تارة علىٰ ما يتعلق بالاعتقاد، وتارة علىٰ ما يتعلق بالعمل... ومن استعمال الظلم بمعنىٰ الاعتقاد الباطل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] فسر الظلم هنا في الحديث المرفوع المتفق عليه بالشرك وتلا ﷺ الآية السابقة شاهدًا، ومن استعمال الكفر بمعنىٰ كفر النعم بعمل السوء قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج ٣، ص ١٦.

ثم إن الله تعالىٰ توعد علىٰ الظلم بالهلاك والعذاب كما توعد علىٰ الكفر سواء كانا بالمعنىٰ الأول أو الثاني، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨ - ٣٠] الوعيد الأول علىٰ كفر النعمة بعمل السيئات وترك الأعمال النافعة الصالحة، والوعيد الثاني علىٰ الشرك وكلاهما من وعيد الآخرة... ومن الوعيد علىٰ الظلم بعذاب الآخرة قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢] أَيْ فِي النَّارِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٤٥]، وأما وعيد الظالمين بعذاب الدنيا كهلاك الأمة فكثير كقوله -تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، إذا تدبرت هذه الآيات وأمثالها علمت أن ما نقل عن عطاء ﷺ لا وجه له، وأن الظالمين والكافرين في كتابه تعالىٰ وفي حكمه سواء؛ وأن الكفر والظلم في العمل أثر الكفر والظلم في الاعتقاد إلا ما لا يسلم منه البشر من اللمم»[(١)].

فإن كنت بخيلًا فقد كفرت بالنعمة وأصبت نفسك بالظلم وظلمت العالم حولك؛ إذ الإنفاق يشكل أمنًا شخصيًا لك وأمنًا قوميًا لمجتمعك.

فهل أدركت خطورة هذا المعنىٰ اللطيف؟ ومدىٰ تأثيره علىٰ الخصوص والعموم في أمر الدين والدنيا؟

ودعني أفصل لك هذا الإجمال.. انظر لنفسك إذا أنفقت علىٰ دور تعليم كتاب الله ﷻ مثلًا كيف يصبح انتشارها مرعبًا لكل باغٍ معتدٍ أثيم يريد السيطرة علىٰ مالك؛ إذ هم يعلمون أن وراءك رجال صِدْقٍ آمنوا بالله وصدقوا المرسلين في الجملة،

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص١٧.

وليس عباد مال فيقبلون الرشوة، أو عباد شهواتهم فيخونون أماناتهم، وكذلك الأمر إن أنفقت علىٰ أنواع التعليم المفيد المثمر في الدنيا والآخرة، فإنك تسهم في تنمية الوعي، وعندها يضعف بيع الذمم بسبب الجهل..

أرأيت إن عطلت ذلك ألست تصيب نفسك بالظلم عندما يجتاحك العدو؛ نظرًا لقلة دين من حولك من الناس، أو لضعف وعيهم، فيستغفلهم العدو بأدنىٰ شبهة مستغلًا ضعفهم العلمي حاشيًا رؤوسهم بالخرافات.. فانظر كيف تجتاح الأساطير والخرافات والشهوات عقول مافيا العصابات المجرمة التي تسيطر علىٰ جهةٍ من العالم في هذه الأيام، فيجد قادتها في جهل أتباعهم وملء عقولهم بالعقائد الباطلة وقودًا لزيادة إجرامهم، ولتدمير غيرهم.. فمن الذي ظلم ابتداءً؟ أليس من أمسك يده عما يجب أن ينفقه؟

إن النفقة هنا ليست للنجاة في الآخرة فقط، بل للنجاة في الدنيا.. إنها الأمان الشخصي لك ولقومك من حولك. فهذا الإنفاق في الميدان التعليمي.

تعال بنا إلىٰ الإنفاق في الميدان الاجتماعي:

إن إنفاقك علىٰ المساكين والفقراء وذوي الحاجات؛ إما أن يكون إنفاقًا لغرض استهلاك الآخرين، فهو يسهم في شعورهم بالامتنان لك لوقوفك معهم، وإما أن يكون إنفاقًا لغرض استثماري أي أن يقوم الذي أنفقت عليه باستثمار النفقة لإيجاد عيش كريم، وفي الحالين فإن النفقة الاستهلاكية والاستثمارية تسهم في تقليل الفوارق الاجتماعية بين الطبقات المختلفة، والشعور بمودة بينها وترابط وتقوي الصلة، مما يجعل المجتمع عصيًّا علىٰ الغزو الخارجي إن حاول الاعتماد علىٰ الخيانة الداخلية، وإن كانت نسبة ذلك في هذا الجانب أقل من الإنفاق في الميدان التعليمي في الجملة.

وتعال تارة ثالثة للجانب الاقتصادي التنموي:

فإن إنفاقك يعود إليك بطريقة أو بأخرىٰ؛ إذ إن ما تنفقه ينعكس في القوة الشرائية عند الآخرين، ثم إن المجتمع المنفَقَ عليه لا يبقىٰ أسيرًا للنفقة بصورةٍ دائمةٍ، بل يحاول أن يجعلها ميدانًا للمعاوضات، فيمدك بأفكارٍ جديدة، أو يفتح لك أسواقًا جديدة، وهنا تزدهر الحياة، وتعمر الأرض، ويتماسك المجتمع.. وتتمكن من الخروج من سجن الاستضعاف المقيت.

فماذا تتوقع عند توقفك عن الإنفاق التعليمي والاجتماعي والتنموي.. إنك تظلم نفسك في المقام الأول، وتظلم العالم حولك؛ إذ إنك لا تجعل من حولك إلا أسرىٰ للفقر والجوع والجهل، ليكونوا لقمة سائغة للعدو الخارجي، وخنجرًا مسمومًا موجهًا ضدك بسبب بخلك وشحك، وهنا تدرك جمال هذا الختم لآيات الخروج من مرحلة الاستضعاف: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وتدرك الحكمة النبوية العظيمة وهي ترسم لنا السنن الاجتماعية التي تجرف الأمم، وتدمر الدول؛ إذ يقول النبي ﷺ «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم علىٰ أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم »[1].

هذه آيات الله ﷻ تتلىٰ بالحق، تجمع بينها فتعرف المراد منها، وما تُغْنِي الآيَاتُ والنُّذُرُ عن قَوْمٍ يُحَرِّفُون الكَلَام عن مَوَاضِعِه؟

۞ ولنختم ذلك بما نقله وأيده محمد رشيد رضا ﷺ في تفسير هذه الآية عن مآسي الذين بدلوا نعمة الله ﷻ كفرًا، وأحلوا أمتهم الإسلامية دار البوار بعدم الإنفاق في الأوجه التي تصون أمنها وعزتها: « ترىٰ كثيرًا من أغنياء المسلمين عارفين بما عليه أمتهم من الجهل بأمور الدين ومصالح الدنيا، وفساد الأخلاق، وتقطع الروابط،

(١) مسلم، رقم الحديث: ٦٦٦٨.

وتراخي الأواخي، وما نشأ عن ذلك من هضم حقوقها، وانتزاع منافعها من أيدي أبنائها، ويعلمون أن إصلاحهم يتوقف علىٰ بذل شيء من أموالهم، ينفق علىٰ التربية والتعليم ونحوهما من المنافع العامة، ثم هم يدعون إلىٰ بذل قليل من كثير ما خزنوه في صناديق الحديد، وما ينفقونه في شهواتهم ولذاتهم، وتأييد أهوائهم وحظوظهم، فيبخلون بذلك ويرونه مغرمًا ثقيلًا، ولا يحلفون بوعد الله ﷻ للمنفقين في سبيله، ولا وعيده للباخلين بفضله،... لا يوجد في نفس الواحد منهم عرق ينبض في التألم لمصائب الإسلام وأهله... ماذا يبلغ وزن إيمان هؤلاء إذا وُضِعَ في ميزان القرآن؟ وقوبل بمثل قوله في خطاب المؤمنين بعد الامتنان عليهم بأنه لم يسألهم إنفاق جميع أموالهم منذرًا إياهم بأن البخل قاض بإهلاكهم واستبدال قوم آخرين بهم ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]»[(١)].

ما لنا لا تشهد أعمالنا لأقوالنا؟ ما لنا نزعم الإسلام ثم ندُعُّه بأفعال قساة القلوب، ونقرأ القرآن ثم نؤفك عنه بالواقع المخزي؟ وهل هناك خزيٌ أسوأ من قومٍ يؤتيهم الله سبحانه مالاً فتراهم يسارعون في إنفاقه علىٰ أعدائهم ثم تراهم يعيثون في ديار إخوانهم بالفساد، ويسرقون ثروات جيرانهم بالبغي والاستكبار والغطرسة والعناد؟

سّبيلُ اقْتِحامِ العَقَبة[(٢)]

يا من يُفكّر في اقتحامِ العَقبة سَارِع لفعلِ الخيرِ فُكّ الرّقبة
حرّر أسيرا ما رأىٰ شَمسَ الضحّىٰ من أشهرٍ، أو من سِنينٍ مُتعِبة
أطعِمْ فَقيرا بائسًا يَشكو العَنا في يومِ جُوعٍ عاصِفٍ بالمَسْغبةِ

(١) رشيد رضا، تفسير المنار، ج٣، ص١٩.

(٢) للشاعر الفاضل الشيخ: عامر الخميسي جزاه الله خيرًا.

فتّش عن الأرحامِ وانظر حالهم وارحَم يَتيما عُدّ منكَ بِمَقرَبة
كمْ مِنْ مُسيكينٍ تردّىٰ حالُهُ من شدّة اللأواءِ يَشكو المَترَبة
واصبِر، معَ الإيمانِ أنت مُيَمّنٌ تَجدِ الغيوث بكلّ أرض مُجدِبة
وصَنائعُ المعروفِ تَحمي دائما من كلّ أخطارٍ تراها مُرعِبة
أنتَ السّعيدُ بِكلّ من أسعدَتهُ وأزحتَ عنهُ في الدّياجي كُربَه
لا لنْ نلاقيَ عِزةً أو نصرةً إلا بعطفٍ من قلوبٍ مُحدِبة
فالنّصرُ والرّزقُ الوفيرُ يكونُ بالمِسكينِ نرفعُ ضعْفَهُ ومتاعِبَه
ونَحُطّ عنه الحِملَ نرفع ضُرّهُ لِيعيشَ في دارٍ بِسُعدٍ مُخصِبة
إن التواصيَ بالتّراحم شِيمةٌ يسمو بها أهلُ اليمينِ ومَنقَبة
هذا السّبيلُ فَسِر بعزمٍ واقتحِم تَجُزِ الصّعابَ، وكلّ خيرٍ تَكسبَه

وهنا تعلم ما الذي أصاب الدول التي حباها الله ﷻ بنعمة النفط، أو بالنعم الذاتية المختلفة؛ فإذا أزماتها تزداد، والأرض تُنْتَقصُ من حولها وفي أطرافها، ويوشك أن تكون أثرًا بعد عين إن بقيت تلعب بحبال التآمر والشح والظلم بدلًا من شكر نعمة الله ﷻ، والإنفاق العادل لثرواتها داخليًّا وتعاونًا مع من ينتمي لدينها وهُويتها.

۞ ولا بأس أن نستعير هذه الأبيات للشيخ محمد الأمين بن مزيد المجلسي الشنقيطي: لنذكر أنفسنا والعالمين بواقعنا[1]:

عجبت لماذا النفطُ لم يَحرِق الفقرا ولم يغسل الجدبَ الكئيبَ عن الصحرا
ولم يستَعِدْ للمسلمينَ حضارةً ولم يبنِ للإسلام دولتَه الكبرىٰ
ولم يبنِ جيشًا يُرْعِبُ الكفرَ جحْفلًا تُغطِّي بلادَ اللهِ راياتُه الخضرا

(١) وهي قصيدة: (أفيقوا رجال النفط) ونشرت هذه القصيدة في مجلة «الإصلاح» التي كانت تصدر في دبي في عدد شعبان ١٤٠٠ هـ.

ولـم يحْيِ في أرض الجزيـرة أمـةً تبُذُّ بتقـواها تُقىٰ الأمـم الأخـرىٰ
أفيقـوا رجـالَ النفـطِ فالنفـط نـعـمـةٌ ستنضُبُ إن لـم تُرفِـدوا بحـرها شكـرا
حـرامٌ عليكـم أن يـعيش بـأرضكـمْ وفي أرضكـمْ هـذا النضارُ بـنـو غـبـرا
أيُثْرىٰ بنو صهيونَ مـن مـال نفـطكـمْ وتُثْرىٰ بـه البيضاءُ في الغـربِ والشـقرا
ويحيـا بنـو الإسـلام في كـل موطـن يعـانـون مرَّ الجـوعِ والجـهلَ والفـقرا
حـرامٌ عـليكـمْ أن تَصُبـوه دفـعـةً فتصبح أرضُ النفـط مـن نفـطها قفرا
أفيقـوا شبـابَ النفـط أمتُكـم حيرىٰ قـد اذهـلهـا عـن ربهـا بـارقُ الإثـرا
بـلادُكـم تَـهْـوِي هُـويَّ شبـابِهـا وتنسـاقُ لا تَدْري إلىٰ حيثُ لا يُـدْرىٰ
أعيـدوا إلىٰ حـقـلِ الجزيـرة نَـوْرَه فـقـدْ كـان ديـنُ الله أنبـتـه زهـرا
ويـا عـلـمـاء النفـطِ لا تَسكتـوا فـقـد أضـرَّ بـديـن الله همْسُكـمُ سـرا
سكتم فشك الناسُ في صدق قولكم وظنوا بكم خيرًا وظنُّوا بكـم شـرا
تُريدونَ إصـلاحَ الأمـور بلـمسـةٍ حريريةٍ مـا أعـذبَ الـوهـمَ مـا أغـرىٰ؟
ويا فتيـات النفـطِ قُـلْنَ لخـاطـبٍ أتـاكـنَّ مـهـلًا نحـن لا نُـمْـهَـر التـبـرا
نُريدُ رجالًا إن غـزا الغـربُ أرضـنـا أو الـشـرقُ جـاؤوا بـالـغـزاة لنا أسـرىٰ
وإنْ هـدَّدتنـا قـوة كـان ردُّهـم عـنيفًـايثيرُالـرعـبَ والخـوفَ والـذعـرا
نريد رجالًا إن بنـوا أحسنوا البِنـا وإن جـلـل الليـلُ الـورىٰ أطلعوا الفجرا
فإن كنت عـمـلاقًا فـأهلًا ومـرحـبـا وإن كـنـت قـزمًـا فـالحـرائـر لا تُشْـرىٰ

اللهم ارحم أمة عبدك محمد ﷺ، وارزقها قادة ربانيين، يقودونها بكتابك وسنة نبيك ﷺ، وارزقها فهم كتابك، والتلذذ بالعمل بخطابك..

ربنا اجعلنا أهلًا لولايتك، ونصرتك، وتوفيقك، وتأييدك، ومحبتك، ورضاك، فإنه لا يعين علىٰ الحق غيرك، ولا يؤتيه إلا أنت، ولا حول ولا وقوة إلا بالله العلي العظيم..

ربنا... تزداد آلام الضعفاء في هذه الحياة أُوارًا.. تشتعل الحروب المجرمة فيها وتمتلئ أوديتها سعارًا.. الأرض - ربنا - تئنُّ من سفك الدماء.. أثقلها الجور والعدوان والإفساد فيها حتىٰ مُلئت صراخًا وجؤارا.. ربنا: نور الحق ارفع نور الحق.. لا تجعله - ربنا - يتوارىٰ.. اللهم ربنا أسعد أصحاب الدموع اليائسة.. اللهم ربنا أقرَّ الأعين المتطلعة البائسة، وأظهر الحق علىٰ الضلال كله ولو مكر الماكرون.

اللهم ربنا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع، ونفسٍ لا تشبع، وعينٍ لا تدمع، ودعوة لا تُرفع..

ربنا نسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبينا محمدٍ ﷺ في أعلىٰ جنان الخلد يا أرحم الراحمين.

وصلىٰ الله تعالىٰ وسلم علىٰ نبينا محمدٍ، وعلىٰ آله، وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

s1435y@gmail.com

أهم المصادر والمراجع

١- ابن أبي شيبة، محمد بن عبد الله، الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: محمد عوامة، دار القبلة، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢- ابن الإفليلي، أبو القاسم إبراهيم بن محمد الزُّهري، شَرْح شِعْر المُتَنبي، السفر الثاني، تحقيق: مُصْطفىٰ عليَّان، (بيروت: مؤسسة الرسالة) ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣- ابن الجزري، محمد بن محمد، النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، القُصَّاص والمذكِّرين، تحقيق: د. محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٥- ابن بلبان، علاء الدين علي، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٦- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، النبوات، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، ط:١٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٨م.

٧- ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٨- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١، ١٤٠٤هـ.

٩- ابن عساكر، عبد الصمد بن عبد الوهاب، إتحاف الزائر وإطراف المقيم للسائر في زيارة النبي ﷺ، تحقيق: حسين محمد علي شكري، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ط١.

١٠- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١١- ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ، وكذا طبعة دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

١٢- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، وكذا طبعة مكتبة المعارف، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٣- ابن منده، عبد الوهاب بن محمد، الفوائد، تحقيق: محمود عبد السميع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

١٤- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١.

١٥- أبو عوانة، يعقوب بن إسحاق، مسند أبي عوانة، تحقيق: أيمن عارف الدمشقي، دار المعرفة،

بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
١٦- إحسان عباس، شعر الخوارج، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٧٤م.
١٧- أحمد ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط١، وكذا طبعة، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١ هـ/ ٢٠٠١ م.
١٨- أحمد الريسوني ، مراجعات ومدافعات، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠١٣م.
١٩- أحمد بن علي القرني، الإبداع العلمي: دراسة تأصيلية تكشف أسس التفوق في مجال العلم، ومقوماته ووسائل تحصيله، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٨هـ.
٢٠- أحمد قبش، مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، دار الرشيد، دمشق، ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
٢١- الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
٢٢- الأصفهاني، أبو القاسم حسين ابن محمّد الراغب، المفردات، تحقيق: صفوان الداودي، (دمشق: دار القلم) ط١، ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م.
٢٣- الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، مكة المكرمة.
٢٤- الألباني، محمد ناصر الدين، تخريج أحاديث مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥، ١٩٨٤م.
٢٥- الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٢٦- الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
٢٧- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٢٨- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح سنن الترمذي، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
٢٩- الألباني، محمد ناصر الدين، ضعيف سنن الترمذي، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠٠م.
٣٠- إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد العربية، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٣١- البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع الصحيح، دار الشعب، القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ط١.

٣٢- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، وكذا طبعة: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤.

٣٣- البكري، طَرَفَة بن العَبْد، ديوان طرفة بن العبد، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢ م.

٣٤- البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨ه.

٣٥- البيهقي، أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٣٦- التبريزي، محمد بن عبد الله، مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٣٧- التبريزي، يحيىٰ بن علي الخطيب، شرح ديوان أبي تمام، قدم له ووضع هوامشه: راجي الأسمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: ٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣٨- الترمذي، محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة السلمي، سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢.

٣٩- التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٤٠- الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤١- الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب، البيان والتبيين، دار الهلال، بيروت ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤٢- جاسم سلطان، أزمة التنظيمات الإسلامية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط: ١، ٢٠١٥م.

٤٣- الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك علىٰ الصحيحين، تحقيق: مصطفىٰ عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

٤٤- حليمة الحمد، القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ٢٠٠٣م/ ١٤٢٣هـ.

٤٥- الحموي: ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
٤٦- الحموي، أبوعبد الله بن محمد بن سالم بن نصر الله المازني، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧م.
٤٧- الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط: ٥، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م،
٤٨- الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، مفاتيح الغيب= التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٤٢٠ه.
٤٩- الزُّندي، محمد بن إبراهيم بن عبد الله الحميري، شرح الحكم العطائية، مؤسسة الأهرام القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٥٠- الزَّبيدي، محمد بن مرتضىٰ الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية ط١.
٥١- الزجاج، إبراهيم السري، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: د عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
٥٢- الزمخشري، محمود بن عمر بن محمد. الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٩م.
٥٣- زياد عبد الكريم النجم، تونبي ونظرية التحدي والاستجابة ـ الحضارة الإسلامية أنموذجًا، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب وزاره الثقافة دمشق ٢٠١٠، ط١، توزيع صفحات للدراسات والنشر.
٥٤- سبيتي، مصطفىٰ، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠٠٩م.
٥٥- سعيد بن منصور، سنن سعيد بن منصور، تحقيق: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز، دار الصميعي، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
٥٦- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط ٣٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
٥٧- سيد قطب، السلام العالمي والإسلام، دار الشروق القاهرة، ط١٤.
٥٨- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: مركز هجر للبحوث، دار هجر، مصر، ط١، ١٤٢٤ه.
٥٩- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، ط: ١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٦٠- الشاشي، الهيثم بن كليب، المسند، تحقيق: محفوظ الرحمن، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٤ه.

٦١- الشاطبي، إبراهيم بن موسىٰ بن محمد اللخمي، الاعتصام، تحقيق: الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٦٢- شاكر نصّار، لورنس والعرب، المطبعة الأميركانية، بيروت، ط١، ١٩٣٠م.

٦٣- الشنقيطي، محمد المختار، الحركة الإسلامية في السودان، (مدخل إلىٰ فكرها الاستراتيجي والتنظيمي)، صناعة الفكر، بيروت، ط١، ٢٠١١م.

٦٤- الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤١٤ه.

٦٥- الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.

٦٦- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٠ هـ/ ٢٠٠٠م.

٦٧- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.

٦٨- العسكري، الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.

٦٩- عمر أبو ريشة، ديوان، دار العودة، بيروت، ١٩٩٨م.

٧٠- عمر بهاء الأميري، من وحي فلسطين، دار الفتح، عمان -الأردن، ط١، ١٩٧١م.

٧١- عمر عبيد حسنة، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٩٩٤م، ط٢.

٧٢- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، ط١.

٧٣- فريد الأنصاري، الفطرية بعثة التجديد المقبلة، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٧٤- الفغالي وأنطوان عوكر، العهد القديم العبري، المكتبة البولسية، لبنان ط١، ٢٠٠٧م.

٧٥- الكلاعي، سليمان بن موسىٰ، الاكتفاء، تحقيق: محمد كمال الدين، (بيروت: عالم الكتب) ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٧٦- لبيد بن ربيعة، ديوان لبيد، اعتنىٰ به: حمدو طمّاس، دار المعرفة، ط١،،١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م.

٧٧- المتنبي، أحمد بن الحسين، ديوان المتنبي، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
٧٨- المجيدي، عبد السلام مقبل المجيدي (بصائر المعرفة القرآنية): (سورة البقرة: إشراق الحضارة الإسلامية)، تحت الطباعة.
٧٩- المجيدي، عبد السلام مقبل، الأساس في أصول التفسير، الطبعة الثالثة.
٨٠- محمد إقبال، ديوان (الأعمال الكاملة)، إعداد: سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، بيروت، ٢٠٠٧م.
٨١- محمد الغزالي، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، دار نهضة مصر، ط١، ط٣، ٢٠٠٥م.
٨٢- محمد بن محمد حسن شُرَّاب، شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية «لأربعة آلاف شاهد شعري»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٧م.
٨٣- محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
٨٤- محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط١، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.
٨٥- محمد عزت دروزة، التفسير الحديث (مرتب حسب ترتيب النزول)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٣هـ.
٨٦- محمد علي الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، ط٥ ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
٨٧- محمد محمود الزبيري، الأعمال الشعرية الكاملة، إصدارات وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤.
٨٨- مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، دار الجيل، بيروت، ط١.
٨٩- المقريزي، أحمد بن علي، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨.
٩٠- ناريمان يونس لهلوب، مهارات القيادة التربوية الحديثة، دار الخليج الأردن-عمان، ٢٠١٥م، ط١.
٩١- نجيب جرجس الأرشيدياكون، تفسير سفر صموئيل الأول، مطبعة مدارس الأحد، ط ٢، ٢٠٠٦م.
٩٢- النووي، يحيىٰ بن شرف، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢.
٩٣- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤م.
٩٤- هنتنجتون، صامويل، صدام الحضارات، ترجمة: طلعت الشايب، (نيويورك) ط١، ١٩٩٩م.

٩٥- ول ديوانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

٩٦- وهبة الزحيلي، العلاقات الدولية في الإسلام، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

* **موقع الكتروني:**

٩٧- ويكيبيديا Kikiw /gro.aidepikiw.ra / /:sptth

المحتويات

مقدمة ٥

تمهيد: دراسة السنن بين حالتين إسرائيليتين مثيرتين: حالة القعود، وحالة البعث . ١٧

القسم الأول: القومة وبعث التحدي بداية اليقظة بمواجهة الأزمات وعدم الهروب منها

السنن الأساسية للانطلاق والخروج من التيه ٣٣

السُّنَّة الأولىٰ: المواجهة المناسبة وعدم الانهزام أمام التحديات والأخطار أساس صناعة الحياة: ٣٥

السُّنَّة الثانية: استمداد القدرة علىٰ مواجهة الأهوال المختلفة من الله سواء في مجال التخطيط أم في مجال البحث عن أدواتٍ مبتكرة ٤٧

السُّنَّة الثالثة: إظهار الشكر لقيد الموجود من النعم، وصيد المفقود من الفتوح .. ٥٠

السُّنَّة الرابعة: إعلام المعتدين المستكبرين بأن الخيارات مفتوحة لمقاومتهم، ومن ذلك استخدام القوة الدافعة في مواجهة القوة الغادرة ٥٢

السُّنَّة الخامسة: وضوح المنهج يقي عثرات الطريق، فيجب تحديد مفهوم القتال في سبيل الله بصورة دقيقة حتىٰ لا يتلاعب بمفهومه الغلاةُ والجفاةُ والطغاة والقساة: ٥٤

السُّنَّة السادسة: الاقتصاد الخدمي التعاوني القائم علىٰ الاقتصاد الإنتاجي أحد أهم أسس النجاح للخروج من حالة الاستضعاف ٦٢

السُّنَّة الكونية الاجتماعية السابعة: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٧٧

القسم الثاني: (صناعة الفُلْك): السنن الإجرائية للخروج من حالة الاستضعاف، والنجاح في المعارك الحضارية ٨٣

المشهد الأول: (بداية النور) بعث الملأ وفقه التغيير، وفيه السنن الآتية: ٨٧

السُّنَّة الأولىٰ: لا بد من اجتماع (الملأ)، للبحث في الحلول الممكنة الصادقة للإنقاذ ٨٩
السُّنَّة الثانية: استحضار روح المبادرة والمغامرة..... ٩٥
السُّنَّة الثالثة: تحديد الهدف الشريف الذي تبذل النفوس والأوقات والجهود لتحقيقه ٩٨
السُّنَّة الرابعة: تعظيم كلام الأنبياء، والبحث عن السبل المختلفة لفهمه وتطبيقه ١٠٠
السُّنَّة الخامسة: حِسبان النتائج المتوقعة من الخطوات التغييرية المصيرية ١٠٣
السُّنَّة السادسة: تحديد المفهوم الصحيح لمفهوم (في سبيل الله) ١٠٥
السُّنَّة السابعة: إعداد الخطط البديلة التي تستوعب حدوث انتكاسة متوقعة ممن يزعمون مناصرة المبادئ ١٠٨
السُّنَّة الثامنة: الحذر من الخسارة المبكرة في المعارك الحضارية بظهور الظلم البيني في الأفكار والأفعال ١١٠
المشهد الثاني: إدراك مداخل الإخفاق في الانطلاق.. الحذر من الشهوات التي تجتاح قلوب الصديقين: ١١٣
السُّنَّة الأولىٰ: عدم التفاعل الإيجابي مع القومة الصادقة، والتغلب علىٰ حالة الإحباط الناشئة عن السلبية التي سببها المرض القلبي..... ١١٥
السُّنَّة الثانية: التنازع علىٰ الرئاسة والزعامة من أهم الصفات النفسية المرضية المستترة عند أكثر الملأ.. .....١١٧
السُّنَّة الثالثة: البحث عن حلول تنظيمية مؤسسية لإيقاف المقياس الجاهلي المدمر في تولي المناصب الإدارية في حركات القومة الصادقة ١١٩
السُّنَّة الرابعة: الاستعداد لإيراد الشبه علىٰ الحق، وكثرة الجدل العقيم، وعدم الشعور بالصدمة..... ١٢٢
المشهد الثالث: أهم الصفات المؤهِّلة لقيادة مرحلة التأسيس: ١٢٣

الصفة الأولىٰ: الِاسْتِعْدَادُ الْفِطْرِيُّ ١٢٥
الصفة الثانية: التفوق العلمي ١٢٦
الصفة الثالثة: التفوق الجسدي ١٢٧
الصفة الرابعة: اجتياز الاختبار بين الأقران ١٢٩
الصفة الخامسة: أن يكون اختياره للقيادة بطريق شرعي ١٣٣
المشهد الرابع: المعركة الشاملة في الوقت المناسب: اصطفاء الجنود، والاستعداد الذكي للمواجهة الحتمية: ١٤٥
السُّنَّة الأولىٰ: جمع المستعدين ظاهريًا للبذل والتضحية، والتحشيد الكمي للأتباع خطوةٌ أوليةٌ ضرورية ١٤٧
السُّنَّة الثانية: التحشيد الكمي مقدمة للاصطفاء النوعي ١٤٨
السُّنَّة الثالثة: الاستيعاب النفسي للنتائج المتوقعة المؤلمة من الاختبارات الميدانية . ١٥٤
السُّنَّة الرابعة: الحذر الشديد من الثقة العمياء في النفس أو في سائر المؤمنين ثقةً تؤدي إلىٰ التبرؤ من الطبيعة الإنسانية، وتحدث عيوبًا قاتلة في المسيرة الناجحة ١٥٦
السُّنَّة الخامسة: التواصي بالحق وبالصبر ينجي من الخسر، ويصحح مقياس النظر إلىٰ الأحداث بمقياس النظر المتوازن الدنيوي الأخروي، ويجمع بين الأسباب المادية والأسباب الغيبية ١٦٢
السُّنَّة السادسة: الصبر في جميع الأحوال الحيوية سواء عند اتخاذ القرارات، وعند تنفيذها بعد الحسم فيها، وعند العمل الميداني المتعلق بها ١٦٧
السُّنَّة السابعة: اتخاذ القرار الخطير بالبروز للعدو، والحسم في التقدم والتأخر في هذه الخطوة عبر اجتهاد جماعي صحيح ١٧٠
السُّنَّة الثامنة: تحريك المؤثرات الإعلامية التي تحفز الروح المعنوية في الجيش ١٧٣
السُّنَّة التاسعة: الدعاء بالثلاثية الابتهالية التي تثبت المحارب ساعة (الصفر) أي ساعة التقاء الجيشين ١٧٥

القسم الثالث: حقائق أزلية وسنن ثابتة في الخريطة العالمية ١٧٧

الحقيقة الأولىٰ: أحداث العالم تقوم علىٰ التداول والابتلاء والقوىٰ الخيرة تكسب المعركة باتباع السنن المادية واستمداد المدد الإلهي ١٨٠

الحقيقة الثانية: مع بذل الأسباب اللازمة والممكنة ورفع المعنويات وتعزيز الثقة بموعود الله لا بد من توقع جميع الاحتمالات ١٨١

الحقيقة الثالثة: العمل الجماعي المتعاون المتكامل مفتاح النصر الحقيقي ١٨٤

الحقيقة الرابعة:تداول السلطة، وتدوير الوظيفة، وتغيير المسؤولين؛ لبث الدماء الجديدة وفق مقاييس الكفاءة والنزاهة ١٨٤

التحاسد داء النخب ومعضلة الرواد ١٩٤

صفات القيادة الجديدة التي آلت إليها الأمور بعد طالوت رحمه الله: ١٩٦

الصِّفَة الأولىٰ: العمل الميداني المؤثر ١٩٦

الصِّفَة الثانية: العبادة المتفردة حتىٰ صارت أحب أنواع العبادة إلىٰ الله: ١٩٨

الصِّفَة الثالثة: الشجاعة في المواجهة ١٩٨

الصِّفَة الرابعة: الارتباط بالحق، والرجوع إليه عند خوف الزلل، ويظهر ذلك في سجوده عند خوف الفتنة ١٩٨

الصِّفَة الخامسة: اتصافه بما يجعله أهلًا للاصطفاء الإلهي ١٩٩

الصِّفَة السادسة: الفاعلية القيادية الحقيقية، خاصة في المجال الأمني، وابتكار ما يقيم الحضارة، ويحميها ٢٠٠

الصِّفَة السابعة: السعي لإقامة الاكتفاء الاقتصادي ٢٠١

الحقيقة الخامسة:سنة الدفع كفيلة بإزالة الفساد واستئصاله ٢٠٢

من صور الفساد الذي يُسْتَدفع ٢٠٤

السياسة الغربية المفسدة بين التغول المتوحش والمكر الكُبَّار ٢٠٩

توسيع أفق المدافعة من فقه النبوة التليد ٢١٥

الحقيقة السادسة: التفصيل التاريخي والتنظيمي والحضاري الذي جاءت به الشريعة قائم علىٰ الحق، ويقود إلىٰ الحق ٢١٧

الحقيقة السابعة: التحدي الحيوي العالمي الدائم الكبير، والاستجابات المقابلة... ٢١٩

وسطية الأمة الإسلامية في شهودها الحضاري ٢٢٥

خلوف الرسالات ومسيرة الدم الناقع ٢٢٦

بين سنة التدافع القرآنية ونظرية التحدي والاستجابة عند أرنولد توينبي ٢٣٣

الحقيقة الثامنة: الإنفاق في سبيل الله أساس للفوز في سنة التدافع ٢٣٦

البصيرة الأولىٰ: الإنفاق في سبيل الله دليل علىٰ صدق الإيمان، خاصةً في أزمنة الحاجة والاستضعاف .....

البصيرة الثانية: الإنفاق في سبيل الله تعالىٰ عطية ربانية، ومنحة إلهية للعبد في الحياة الدنيوية ٢٤٠

البصيرة الثالثة: الكفر الأصغر والأكبر ظلم للنفس وظلم للعالم ٢٤٥

أهم المصادر والمراجع ٢٦٠

المحتويات ٢٦٧

قرآن يتلىٰ لإنسانية ترقىٰ